عقل السيد جيه جي ريدر

إدجار والاس

عقل السيد جيه جي ريدر

تأليف
إدجار والاس

ترجمة
إبراهيم سند أحمد

مراجعة
هبة عبد العزيز غانم

هنداوي

عقل السيد جيه جي ريدر

إدجار والاس

The Mind of Mr. J. G. Reeder

Edgar Wallace

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: يوسف غازي

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٢٣٢٣ ٠

صدر الكتاب الأصلي باللغة الإنجليزية عام ١٩٢٥.
صدرت هذه الترجمة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢١.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب، وتصميم الغلاف، والترجمة العربية لنص هذا الكتاب مُرَخَّصة بموجب رخصة المشاع الإبداعي: نَسْبُ المُصنَّف، الإصدار ٤٫٠. جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي خاضعة للملكية العامة.

المحتويات

القصة الأولى: الشرطي الشاعر ٧
القصة الثانية: صيد الكنوز ٢٣
القصة الثالثة: فرقة العروض المسرحية ٤١
القصة الرابعة: سارقة الرخام ٥٩
القصة الخامسة: ميلودراما بحتة ٧٥
القصة السادسة: أفعى المامبا الخضراء ٩١
القصة السابعة: القضية العجيبة ١٠٧
القصة الثامنة: المستثمرون ١٢١

القصة الأولى: الشرطي الشاعر

كان اليوم الذي وصل فيه السيد ريدر إلى مكتب النائب العامِّ يومًا مصيريًّا بالنسبة إلى السيد لامتون جرين، مدير أحد فروع بنك لندن سكوتيش آند ميدلاند.

يقع الفرع الذي يُديره السيد جرين على ناصية شارع بيل المُتفرِّع مع شارع فيرلينج في بلدة إيلينج. الفرع عبارة عن مبنًى كبير — على خلاف الفروع في الضواحي — وخُصِّصت المُنشَأة بالكامل للخدمات البنكية؛ لأن البنك يتعامل مع عددٍ هائل من عمليات الإيداع، ومن تلك العمليات كشفُ الرواتب لعدد ثلاثة آلاف موظَّف لدى شركة لونار تراكشن، وعمليات الإيداع من شركة أسوشييتد نوفالتيز التي تُحقِّق مبيعاتٍ هائلة، وشركة لارافون؛ وهذه الشركات ليست سوى ثلاثة من عملاء بنك لندن سكوتيش آند ميدلاند.

تحضيرًا لأيام صرْف المُرتَّبات الخاصة بتلك الشركات، يُؤتى بمبالغَ كبيرةٍ في أيام الأربعاء بعد الظهيرة من المقرِّ الرئيسي، وتُودَع تلك المبالغ في الغرفة المنيعة المصنوعة من الفولاذ والخرسانة، وتقع تلك الغرفة أسفلَ المكتب الخاصِّ للسيد جرين، ولكن لا يستطيع أحدٌ الدخول إليها إلا عبر بابٍ فولاذي في المكتب العام. بإمكان الواقف في الشارع أن يرى هذا الباب؛ وتسهيلًا للمراقبة، وُضِع مصباحٌ عاكسٌ للضوء فوق الباب مباشرة، ومِن ثَمَّ يُلقي بإضاءةٍ قوية على الباب. وللمزيد من إجراءات الأمان، عُيِّن حارسٌ ليلي، وهو عسكريٌّ مُتقاعد اسمه آرثر مولينج.

تتم حراسة البنك بشكلٍ صارمٍ من قِبَل الشرطة؛ حيث يمرُّ الشرطيُّ المكلَّف بالحراسة على البنك كلَّ أربعين دقيقة. ومن عادة الشرطي أن ينظر عبر النافذة ويتبادل الإشارات مع الحارس الليلي؛ إذ كانت التعليمات أن ينتظِر حتى يظهر مولينج.

في ليلة السابع عشر من أكتوبر، وقف الشرطي بيرنت كعادته أمام فتحة المراقبة الواسعة ونظر إلى داخل البنك. وأول شيء لاحظَه هو انطفاء المصباح فوق باب الغرفة

المنيعة. لم يرَ الشرطيُّ الحارسَ الليلي؛ ومِن ثَم بدأ الشكُّ يَنخر بداخله، ولم ينتظر حتى يُظهر الرجل نفسه كما يفعل عادةً، بل تجاوز النافذة ووصل إلى الباب وفَزِع لما وجده مواربًا. دفع الباب وفتحه ودخل إلى البنك ونادى على مولينج باسمه.

لم يردَّ عليه أحد.

تخلَّلَت الهواءَ رائحةٌ خافتة حلوة لم يستطع تحديدَ مكان انبعاثها. كانت المكاتب العامة خالية، ولمَّا دخل إلى غرفة المدير التي كان ثَمة ضوءٌ يشعُّ منها، رأى شخصًا مُمَدَّدًا على الأرض. كان الحارسَ الليلي. وجدَه مُكبَّل اليدَين ومشدود الوثاق من الرُّكبتَين والكاحلين بشريطَين.

بات مصدر انبعاث الرائحة الغريبة والخافتة واضحًا الآن. إنها تنبعث من علبة صفيح قديمة مُعلَّقة أعلى رأس الرجل المُمدَّد على الأرض وممسوكة بسلكٍ مُثبَّت في إطار صورة، قعر العلبة مثقوبٌ بحيث تتساقط قطراتٌ من سائلٍ مُتطايِر على الفوطة القُطنية التي تُغطي وجه مولينج.

أُصيب بيرنت بجروح في الحرب؛ ولذا تعرَّف على الفور على رائحة الكلوروفورم، ولمَّا سحب الرجل الفاقد للوعي إلى المكتب الخارجي، نزع الفوطة من فوق وجهه ولم يتركه إلا للاتصال على قِسم الشرطة، وحاول إفاقَتَه ولكن دون جَدْوى.

وصلَت تعزيزات الشرطة في غضون دقائق، وأتى معهم جرَّاح القِسم، ولحُسن الحظ أنه كان في القسم حين ورودِ البلاغ. باءت كلُّ محاولات إنقاذ حياة الرجل البائس بالفشل.

أصدر طبيب الشرطة قرارَه قائلًا: «من المُحتمَل أنه فارق الحياة قبل العثور عليه. ولا نعرف سرَّ تلك الخدوش في راحة يدِه اليُمنى.»

فتح قبضةَ يده وأرى الحاضرين ستةَ خدوش صغيرة. كانت حديثة، حيث كان هناك بقعةُ دمٍ في راحةِ يده.

أُرسِل بيرنت على الفور كي يوقِظَ السيد جرين مدير البنك، الذي كان يَقطُن في شارع فيرلينج على الناصية التي يقع فيها البنك؛ كان الشارع يضمُّ فيلاتٍ شبْهَ منفصلة عن بعضها وبطرازٍ مألوف لدى سكان لندن كثيرًا. وبينما كان الضابط يَعبر الحديقةَ الأمامية الصغيرة مُتجهًا إلى الباب، رأى الأضواءَ من خلال النوافذ، وما كاد يطرُقُ الباب حتى فُتِح وظهر السيد لامتون جرين أمامه مُرتديًا ملابسَه كاملة؛ ولمَّا رآه الضابط، فطنَ إلى حالة الارتباك الشديد التي سيطرَت عليه. رأى الشرطي بيرنت حقيبةً كبيرة ودِثارًا وشمسية على الكرسيِّ في الصالة.

لمَّا أخبر بيرنت المدير الضئيل بما اكتشفه، استمع إليه والدمُ هاربٌ من عروقه.

قال بصوتٍ مُرتجف: «أتقول سُرِق البنك؟ مُستحيل! يا إلهي! هذا فظيع!»

كاد أن يخِرَّ منهارًا لولا أن بيرنت سَنَدَه حتى نزل إلى الشارع.

ولمَّا كان يسير في الطريق المُظلم باتجاه البنك، تلفَّظ بعباراتٍ غير مُتسقة قائلًا: «نوَيت ... نويت الذَّهاب في عطلة. الحقيقة هي ... كنتُ أنوي ترك العمل في البنك. وتركت مذكرة تشرح الأسباب لمجلس الإدارة.»

دخل المدير إلى دائرة الأشخاص المُشتَبَهِ بهم. فتح دُرج مكتبه ونظر فيه، ثم خرَّ على الأرض.

قال وهو لا يكاد يتمالك نفسَه: «إنها ليست هنا! تركتُها هنا ... مفاتيحي ... مع المذكرة!»

أُغمِي عليه في ذلك الوقت. ولمَّا أفاق الرجل، وجد نفسه في زنزانةٍ بقِسم الشرطة، وفي وقتٍ لاحقٍ من اليوم نفسِه مَثَل أمام القاضي يَسنُدُه اثنان من رجال الشرطة، واستمع كأنه في حُلمٍ إلى تهمة التسبُّب في قتل آرثر مولينج بالإضافة إلى تحويل مائة ألف جنيه إسترليني إلى حسابه الخاص.

في صباح اليوم الأول من الحبس الاحتياطي، انتقل السيد جون جي ريدر — مُمتعضًا بعضَ الشيء لأنه يتشكَّك في جميع الإدارات الحكومية — من مكتبه الخاص في شارع لوار ريجانت إلى مكتبٍ مُعتمٍ بعضَ الشيء في الطابق العلوي من المبنى الذي يُوجَد به مكتب النائب العام. وكي يتمَّ هذا التغيير، لم يشترط إلا شرطًا واحدًا وهو أن يتصل المكتب بخطِّ هاتفٍ خاصٍّ مع مكتبه القديم.

إنه لم يأمُر بذلك، بل لم يأمُر بشيء مُطلقًا. ولكنه طلب هذا بارتباكٍ واعتذار. كان ثَمة نوعٌ من قلة الحيلة المُؤسفة تُسيطر على جون جي ريدر جعلت الناسَ يشعرون بالأسف نحوه، مما جعل النائب العامَّ حتى تنتابه لحظاتُ شكٍّ غير مريحة بشأن ما إذا كان قرارُه حكيمًا بما يكفي عندما استبدل هذا الرجل الباديَ الضعف الذي كان في منتصف العمر بالمُفتش هولفورد الذي كان يتَّسِم بالمراوغة والكفاءة والغموض الشديد.

كان السيد ريدر يتجاوز الخمسين بقليل، وكان رجلًا مُستطيلَ الوجه له شَعر رمادي مائلٌ إلى الأصفر، وبعض الشعر في جانبَي وجهه ممَّا يصرِف الانتباه عن أُذنَيه الكبيرتَين للغاية. يضع على منتصف أنفه نظارة أنفيَّة ذات إطار فولاذي، ولم يرَه أحدٌ ينظُر من خلال هذه النظارة مُطلقًا، ودائمًا ما كان يُزيلها حين يقرأ. يرتدي قُبعة مُستديرة ذاتَ

حائطٍ طويل وتاج مُسطَّح تتفق مع المعطف الطويل المُحكَم الأزرار عبر صدره القليل الشَّعر في بعض الأحيان ولا تتطابق معه في أحيانٍ أخرى. حذاؤه مُربَّع من عند الأصابع وربطة عنقه — ذات النمط العريض الواقي للصدر — جاهزة ومُثبَّتة في مكانها خلف ياقةٍ بطراز جلاديستون. أفضل شيءٍ لدى السيد ريدر هو مِظلته الملفوفة بإحكامٍ بالغ، لدرجة أن مَن يراها يظن أنها عصا مشيٍ رفيعة. وسواءٌ في الجو المطير أو المُشمِس، يُعلِّق مِظلَّته في ذراعه ولا يَفرِدها مُطلقًا حسبما يعيش في الذاكرة الحيَّة.

التقى به المفتش هولفورد (الذي رُقِّي الآن وتَولَّى مسئوليات الحكمدار) في المكتب كي يُسلِّمه واجباته ومجموعةً من المُتعلقات والأثاث القديم.

«سعدتُ بلقائك يا سيد ريدر. لم أسعد بهذا اللقاء من قبل، ولكني سمعتُ الكثيرَ عنك. كنتَ تعمل لدى بنك إنجلترا، أليس كذلك؟»

همس السيد ريدر بأنه حَظِي بهذا الشرف، وتنهَّد وكأنه آسف على القدَر الذي أبعده دون اكتراث عن الألغاز التي كانت تعجُّ بها أعماله. كان تفكير السيد هولفورد المُتأمِّل يعجُّ بالهواجس والتخوُّفات.

قال بحرَج: «هذه الوظيفة مختلفة، على الرغم من أنني أُخبِرت بأنك أحد أفضل المُستنيرين في لندن، وفي هذه الحالة فسيكون العمل سهلًا. ومع ذلك، لم يكن لدَينا مُطلقًا مُحققٌ من خارج الإدارة ... أعني مُحقِّقًا خاصًّا — إذا جاز التعبير — في المكتب من قبل، ومن الطبيعي أن تكون شرطة سكوتلاند يارد ...»

علَّق السيد ريدر مِظلته الأنيقة، وهمهمَ قائلًا: «أفهم الأمر تمامًا. هذا طبيعيٌّ للغاية. توقع السيد بولوند التعيين. وغضبَت زوجتُه ... غضبًا شديدًا. ولكن ليس لديها سبب لذلك. إنها امرأةٌ طَموحة. لديها نصيبٌ ثالث في نادي رقص في منطقة ويست إند، وربما يتعرَّض للمداهمة هذه الأيام.»

فُوجِئ هولفورد. فهذه الأخبار أكثرُ من مجرد شائعة يُتهامَس بها في شرطة سكوتلاند يارد.

قال مندفعًا: «كيف تعرِف هذه الأخبارَ يا رجل؟»

كانت ابتسامة السيد ريدر تنمُّ عن استخفافه بنفسه.

قال معتذرًا: «يلتقط المرءُ بعض المعلومات الغريبة. أنا ... أنا أرى الخطأ في كل شيء. إنها سجيَّتي الغريبة والشاذة في التفكير ... فأنا أُفكر بعقلية المُجرم!»

التقط هولفورد نفَسًا طويلًا.

«حسنًا، لا يُوجَد الكثير من العمل. قضية إيلينج هذه واضحةٌ كالشمس. جرين مُدان سابق، تم تعيينه في البنك في وقت الحرب وترقَّى حتى وصل إلى منصب المدير. وقد حُكِم عليه بسبع سنين بتهمة الاختلاس.»

همهم السيد ريدر: «الاحتيال والاختلاس. أنا ... اممم ... أخشى أنني كنتُ الشاهدَ الرئيسي ضده؛ فجرائم البنوك كانت ... اممم ... هواية لدي. نعم، تورَّط في مشاكل مع مُقرضي الأموال. أحمق جدًّا، أحمق للغاية. ولا يعترف بخطئه.» تنهَّد السيد ريدر من أعماقه. «يا له من بائس! مع تعرُّض حياته للخطر، قد يغفر له المرء ويتغاضى بالفعل عن مراوغاته المُثيرة للشفقة.»

حملق المُفتش في الرجل الجديد بذهول.

«على حدِّ علمي، لا ينبغي أن يُطلَق عليه لقب «بائس». اختلس مائة ألف جنيه إسترليني، وروى أضعفَ حكاية قرأتها في حياتي ... ستجد نُسَخًا من تقارير الشرطة هنا، إذا كنتَ ترغب في الاطلاع عليها. الخدوش على يد مولينج تُثير الفضول ... كما وجدوا عدة خدوش على يده الأخرى. إنها ليست عميقةً لدرجة تُوحي بأنه كان ثَمة صراع. بالنسبة إلى الحكاية التي يرويها جرين ...»

أومأ السيد جيه جي ريدر حزينًا.

وقال أسِفًا: «لم تكن قصةً مُبتكَرة. حسبما أتذكر، فقصته كانت كالتالي: تعرَّف عليه رجل كان مسجونًا معه في سجن دارتمور، وهذا الشخص أرسل له خطابًا يبتزُّه فيه ويُخبره أن يدفع له أو يُخلِيَ المكان. وقبل أن يعود جرين إلى حياة الجريمة، كتب جميعَ الوقائع إلى مجلس الإدارة ووضع الخطاب في دُرج مكتبه مع مفاتيحه، وترك مذكرةً للصرَّاف الرئيسي على المكتب ذاتِه، ونوى مغادرة لندن ليُحاول أن يبدأ من جديدٍ في مكانٍ لا يعرفه فيه أحد.»

قال المفتش بحسم: «لم تُوجَد خطابات في المكتب أو فوقه ولا مفاتيح. الجزء الحقيقي الوحيد من الحكاية هو أنه قضى مدة.»

اقترح السيد ريدر موضحًا: «في السجن، نعم هذا صحيح.»

عندما تُرِك وحده في المكتب، قضى وقتًا طويلًا للغاية في مُكالمة من هاتفه الخاص مع فتاة لا تزال يافعةً على الرغم من أنها لم تَسْلم من تقلُّبات الزمان. وظلَّ يقرأ بقية الصباح في الوثائق التي تركها سابقُه على المكتب وتضمُّ أقوال الشهود.

في وقتٍ مُتأخِّر من بعد الظهيرة، دخل النائب العامُّ إلى غرفته ورأى كومة المستندات الكبيرة الغارق فيها مرءوسه.

سأل بنبرةٍ تنمُّ عن الرضا: «ما الذي تقرؤه؟ ... هل هي قضية جرين؟ يُسعدني أن هذه الأوراق تُهمُّك، على الرغم من أنني أراها قضية بسيطة. تلقَّيت خطابًا من رئيس البنك الذي يعمل لديه الرجل، ويبدو أنه لسببٍ ما يعتقد بأن جرين يقول الحقيقة.»

اكتسى وجه السيد ريدر بتعبير الألم الذي يرتسِم على وجهه عندما تُصيبه الحيرة دومًا.

وقال: «هذه شهادة الشرطي بيرنت. أظن أنه بإمكانك توضيحُ الأمر لي يا سيدي. قال الشرطي بيرنت في شهادته ... دعني أقرَأْها عليك:

> قبل أن أصل إلى البنك، رأيتُ رجلًا يقف على ناصية الشارع، خارج البنك مباشرة. رأيتُه بوضوح بفضل ضوء شاحنةِ بريد وهي تمر. لم أكترث لوجوده على الإطلاق ولم أرَه مرةً أخرى. كان بإمكان الرجل أن يلفَّ حول المُجمَّع ويأتيَ إلى المبنى رقم ١٢٠ في شارع فيرلينج من دون أن أراه. بعدما رأيته مباشرة، ارتطمَت قدمي بقطعةِ حديدٍ على الرصيف. سلطتُ الضوء على قطعة الحديد واكتشفت أنها حدْوة حصان قديمة، وسبق أن رأيتُ الأطفال يلعبون بتلك الحدوة في وقتٍ سابق من ذلك المساء. ولما نظرتُ مرةً أخرى نحو الناصية، اكتشفت أن الرجل اختفى. ربما لمح ضوء المصباح في يدي. لم أرَ أحدًا آخر، وحسبما أتذكر، لم أرَ ضوءًا في منزل جرين لَمَّا مررت به.»

نظر السيد ريدر إلى رئيسه.

قال النائب العام: «حسنًا. لا يُوجَد شيءٌ لافت للنظر في هذا. في الغالب كان جرين هو الذي لفَّ حول المُجمَّع ودخل من وراء الشرطي.»

فرَك السيد ريدر ذقنه.

قال مُفكرًا: «نعم، نعم ...» غيَّر جِلسته في الكرسي من دون ارتياح. سأل بعصبية: «هل سيعتبر تصرُّفي غيرَ مُهذب إذا أجريتُ بعض الاستجوابات بعيدًا عن استجوابات الشرطة؟ لا أودُّ أن يُفكروا في أني مجردُ هاوٍ يتدخَّل في وظائفهم القانونية.»

قال النائب العام مُتحمسًا: «على الإطلاق، انزل إلى الضابط المسئول عن القضية: سأعطيك مذكرة له — ليس من غير المعتاد إطلاقًا أن يجري مسئول لديَّ تحقيقًا منفصلًا، على الرغم من أنني أظن أنك لن تكتشفَ سوى القليل. أعطت شرطة سكوتلاند يارد مُسوِّغات وجيهة للقضية.»

قال ريدر مُترددًا: «هل مسموحٌ لي أن أرى الرجل؟»

«جرين؟ آه، بالطبع! سأُرسِل لك اللازِمَ من أجل هذا.»

كان الضوء يتلاشى من السماء الرمادية الراعدة المُلبَّدة بالغيوم، وكانت الأمطار تهطل على نحوٍ مُتقطِّع، حين عبَر السيد ريدر، مُعلِّقًا مِظلتَه في ذراعه ورافعًا ياقة مِعطفه، البوابة القاتمة لسجن بريكستون وتم توصيله إلى الزنزانة التي يقبع فيها الرجلُ المُشتَّت واضعًا رأسه فوق يدَيه وعيناه الذابلتان تُحملِقان في الفراغ.

قال جرين بصوت يكاد يكون مُنتحبًا: «هذا صحيح، هذا صحيح! كل كلمة.»

رجل شاحبٌ أوشك شَعره أن يتطاير، وله شارب مُتناثر الشعرات ذو لون أصفر، ويدبُّ فيه الشيب. يتمتع ريدر بذاكرة استثنائية في حفظ الوجوه، ومن ثَمَّ تعرَّف عليه فور رؤيته، على الرغم من مرور بعض الوقت قبل أن يتعرَّف عليه الآخر.

«نعم، أتذكَّرك الآن يا سيد ريدر. أنت مَن ألقى القبض عليَّ من قبل. ولكني استقمْتُ في حياتي تمام الاستقامة. لم آخُذ حتى ولو فِلسًا واحدًا ليس من حقي. فتاتي البائسة، ستُفكر ...»

سأل السيد ريدر مُتعاطفًا: «هل أنت مُتزوِّج؟»

«لا، ولكني كنت سأتزوج ... تأخرتُ في زواجي. إنها أصغر منِّي بحوالي ثلاثين عامًا، إنها أفضلُ فتاة ...»

استمع ريدر إلى الكلمات التي تُعبِّر عن وَجْد الرجل، وكسا الحزنُ كلَّ ملامح وجهه.

«الحمد لله أنها لم تأتِ إلى المحكمة، ولكنها تعلم الحقيقة. أخبرَني صديقٌ لي أنها مصدومة تمامًا.»

هزَّ السيد ريدر رأسه قائلًا: «يا لها من مسكينة!»

تابع الرجل والمرارة باديةٌ في نبرة صوته: «الأدهى أنها تلقَّت الخبرَ في عيد ميلادها.»

«هل كانت تعرِف أنك نويت السفر؟»

«نعم، أخبرتها في الليلة التي سبقَت الحادث. لن أُقحمها في القضية. لو كنَّا مخطوبَين بشكل لائق وسليم، كانت الأمور ستختلف؛ لكنها مُتزوجة وتمشي في إجراءات الطلاق من زوجها، ولكن لم يصدر حكمٌ باتٌّ حتى الآن. وهذا هو السبب في عدم خروجي معها أو رؤيتها كثيرًا. وبالطبع لم يعرف أحد عن خِطبتنا على الرغم من أننا نعيش في الشارع ذاتِه.»

سأل ريدر: «شارع فيرلينج؟» أومأ مدير البنك آيسًا.

«وهي في السابعة عشرة، تزوَّجتْ من رجل لا يختلف عن الحيوان. كان اضطراري إلى عدم البَوح أمرًا مُزعجًا جدًّا بالنسبة إليَّ ... أعني ألَّا يعرف أحدٌ عن أمر خِطبتنا. وما مِن حقيرٍ إلا وحاول التقرُّب منها، وكنتُ أجزُّ على أسناني ولا أنطق شيئًا. يا لها من فظاظة! حتى ذلك الأحمق بيرنت، الذي ألقى القبض عليَّ، كان يتقرَّب إليها؛ إذ اعتاد أن يكتب شعرًا لها ... لا تعتقد أن هذا يصدُر من شرطي، أليس كذلك؟»

لم يَبدُ أن التناقض الشنيع لشرطي شاعر يصدم المُحقِّق.

قال برفق: «كل إنسان بداخله شاعر، والشرطي رجل.»

على الرغم من أنه أبدى استخفافًا بالتناقض في شخصية الشرطيِّ الشاعر، فإنه شغَل تفكيره طوال الطريق وهو عائدٌ إلى المنزل في طريق بروكلي، كما أنه ظل يُفكر في أمره طوال وقت استيقاظه.

كانت الساعة الثامنة إلا الربع صباحًا، وبدا أن العالَم لا يُوجَد فيه سِوى بائعي اللبن وأفراد توصيل الجرائد إلى المنازل، عندما دخل السيد جيه جي ريدر إلى شارع فيرلينج.

لم يقف إلا بضعَ ثوان خارج البنك الذي ظل لمدة طويلة مصدرَ الرعب والخوف في المنطقة، ثم تابع طريقَه في الشارع العريض. وعلى جانبَي الشارع، يُوجَد صف من الفيلات الجميلة؛ جميلة على الرغم من أنها تحمل تشابهًا قويًّا بين بعضها البعض؛ كل منزل له فِناء أمامي صغير، تجده في بعض الأحيان عبارةً عن قطعةِ أرضٍ عُشبية وأحيانًا أخرى مُزينًا بأحواض الزهور. منزل جرين هو المنزل الثامن عشر على الطريق من جهة اليمين. عاش في المنزل مع مدير منزلٍ يُجيد الطهي، ومن الواضح أن أعمال البَسْتنة لم تكن من هواياته؛ حيث كان الفناء الأمامي مُغطًّى بحشائشَ تُرِكَت لتنموَ على سجيَّتها دون رعاية.

قبل الوصول إلى المنزل السادس والعشرين، توقف السيد ريدر وحملق باهتمامٍ طفيف في الستائر الزرقاء التي تُغطي جميع النوافذ. كان من الواضح أن الآنسة ماجدة جراين من عشَّاق الزهور، فزهور الغرنوقي تملأ الأصص في النوافذ وموضوعة على مسافاتٍ متساوية بطول الحافة الصغيرة تحت النافذة المُقوَّسة. في منتصف قطعة الأرض العشبية، كان يُوجَد حوضُ زهورٍ دائريٌّ به شجرةُ ورد ليس بها زهور وأوراقها مُتدلِّية وجافة.

لما رفع عينَيه إلى النافذة العُلوية، رأى ستائرَها ترتفع ببطءٍ وأدرك بغيرِ وضوح أنه كان ثَمة شخص يقف خلف الستائر البيضاء المصنوعة من الدانتيل. ابتعد السيد ريدر مُسرعًا وكأنه ضُبِط يرتكِب فعلًا غيرَ أخلاقي، واستأنف جولاته حتى وصل إلى مشتل زهور كبيرٍ يقع على ناصية الشارع من الجهة الأخرى.

توقف هنا مُتأملًا لبعض الوقت وواضعًا يده على السياج الحديدي وعيناه تُحملقان في شرودٍ في مشهد الصوبات الزجاجية. ظلَّ في وقفته هذه لمدَّةٍ طويلة لدرجة أن أحدَ عُمال المشتل جاء إليه؛ ظنًّا منه بطبيعة الحال أن شخصًا غريبًا كان يبحث عن وسيلةٍ للدخول إلى الحدائق، وكانت مِشيتُه تنمُّ عن إرهاقِ رجلٍ يكسِب قوته من الطين، وسأله إن كان يُريد أيَّ شخص.

تنهَّد السيد ريدر وقال: «أناسًا كُثْرًا، أناسًا كثْرًا!»

تاركًا الرجلَ المُستاء يُفكر في تفسير صَلافته، عاد أدراجه ببطء. وتوقف مرةً أخرى عند المبنى رقم ٤١٢، وفتح البوابة الحديدية الصغيرة وعبَر المَمرَّ إلى الباب الأمامي. فتحَت له فتاةٌ صغيرة وأدخلَته إلى الصالون.

لم تكن الغرفة مُؤثَّثة جيدًا، بل لم تحتوِ إلا على بعض قطع الأثاث القليلة. كانت الردهة مفروشةً بشريط من مشمع يكاد يكون جديدًا؛ أما أثاث الصالون نفسه فكان مُكوَّنًا من كراسيِّ الخيزران وقطعة مُربَّعة من السجاد اليدوي وطاولة. سمع صوت خطوات أقدام فوق رأسه، أقدام تمشي على سقفٍ خشبيٍّ غير مفروش، وبعد فترةٍ وجيزة انفتح الباب ودخلَت فتاة.

كانت الفتاة فاتنة الجمال، ولكنه رأى على وجهها أمَاراتِ الحزن. بدَت شاحبةً وهزيلة، وبدت عيناها وكأنها توقفَت عن البكاء لتوِّها.

نهض ريدر عندما دخلت الفتاةُ وسألها: «الآنسة ماجدة جراين؟»

أومأت الفتاة برأسها.

سألَت بسرعة: «هل أنت من الشرطة؟»

صحَّح لها المعلومة حذِرًا: «ليس بالضبط. أشغَلُ ... اممم ... وظيفةً في مكتب النائب العام، وهي تُماثل الوظيفة في قوة شرطة العاصمة، إلا إنها منفصلة عنها.»

عبَسَت، ثم قالت:

«كنتُ أتساءل: هل سيأتي أحد لرؤيتي. هل أرسلك السيد جرين؟»

«أخبرني السيد جرين عنك، ولكنه لم يُرسِلني.»

في تلك اللحظة، فوجئ بالتعبير الذي ارتسم على وجهها. ظهر التعبير على وجهها ومرَّ بسرعة خاطفة، حتى قبل أن تستطيع العينُ الغرة أن تُدرك مروره.

قالت: «توقعتُ أن يأتيَ أحد.» ثم سألَت: «ما الذي دفعه إلى ارتكاب هذا الجُرم؟»

«هل تعتقدين أنه مُذنِب؟»

«الشرطة تعتقد ذلك.» ثم تنهَّدَت تنهيدةً عميقة وقالت: «كنت أتمنَّى من الله أنني لم أرَ ... هذا المكان!»

لم يُجِب؛ ولكن ظلَّت عيناه تجُولان في أرجاء الشقة. على الطاولة المصنوعة من البامبو، تُوجَد زَهْرية قديمة مملوءة بتشكيلةٍ بالغةِ الجمال من زهور الأقحوان الذهبية ولكن من دون تنميق. والغريب في الأمر، في وسط تلك الزهور ظهرت زهرةُ نجمٍ كبيرةٌ وكأنها شخصٌ مُحدَث النعمة، وانخرطَ مُصادفة مع طبقة النبلاء.

همهمَ قائلًا: «هل أنتِ مُغرمةٌ بالزهور؟»

نظرَت إلى الزهرية غيرَ مكترثة.

قالت: «نعم، أحبُّ الزهور. وضعَتها الفتاة في تلك الزهرية.» ثم استدركَت: «هل تعتقد أنه سيُعدَم شنقًا؟»

امتعض ريدر من فظاظة السؤال الذي طُرِح من دون تردُّد.

قال: «إنها تهمة بالغة الخطورة.» ثم أردف: «هل لديك صورة للسيد جرين؟»

قطَّبَت جبينها.

«نعم؛ هل تُريدها؟»

أومأ ريدر.

ما كادت أن تُغادر الغرفة حتى وصل إلى الطاولة البامبو ورفع الزهور من الزهرية. كما رأى من خلال الزجاج، كانت الزهور مربوطةً بقطعة خيط من دون إحكام. تفحص الأطراف وتحقَّق من صحة ملاحظته الأولى مرةً أخرى: لم تُقطَع أيٌّ من تلك الزهور، بل انتُزِعت من سيقانها انتزاعًا. تحت الخيط، تُوجَد الورقة التي لُفَّت حول السِّيقان أول مرة. الورقة عبارة عن صفحة مقطوعة من كرَّاسة، رأى الخطوط الحمراء ولكنه لم يستطع تمييز الكتابة بالقلم الرصاص.

لمَّا سمع وقْعَ أقدامها على السُّلَّم، أعاد الزهور إلى مكانها في الزهرية، ولمَّا دخلت وجدَتْه ينظُر من النافذة إلى الشارع.

قال وهو يأخُذ الصورة الفوتوغرافية منها: «شكرًا لك.»

كانت الصورة تحمل عباراتِ غزَل على ظهرها.

«أخبَرَني أنك مُتزوِّجة يا سيدتي، أهذا صحيح؟»

قالت باقتضاب: «نعم، مُتزوجة، ولكنني مُطلقة فعليًّا.»

«هل تعيشين هنا منذ فترة طويلة؟»

أجابت: «منذ ثلاثة أشهر تقريبًا. هو من رغب في أن أعيش هنا.»

نظر في الصورة مرةً أخرى.

«هل تعرفين الشرطي بيرنت؟»

لاحظ تورُّد وجهها ولكن سرعان ما اختفى.

قالت بأسلوب فظ: «نعم، أعرف ذلك الأحمقَ الوقح.» حينذاك، أدركَتْ أنها تتحدث بأسلوب ليس مهذبًا تمامًا ولا يليق بسيدةٍ راقية، فتابعَت حديثها بنبرةٍ ألْيَنَ: «السيد بيرنت رجل عاطفي، وأنا لا أحبُّ الأشخاص العاطفيِّين، خاصة ... حسنًا، أنت تفهمني يا سيد ...»

همهم الرجل: «ريدر.»

«تفهم يا سيد ريدر أنه عندما تُخطَب الفتاة ويكون وضعها كوضعي، فإنها لا تُحب ذلك النوع من الاهتمام.»

كان ريدر ينظر إليها باهتمام. ما من شكٍّ في أنها حزينة ومُرتبكة. فيما يتعلق بموضوع الانفعالات البشرية والآثار التي تترُكها على وجه الإنسان؛ فالسيد ريدر حُجة في ذلك مثل الروائي الإيطالي مانتيجازا تقريبًا.

قال: «في يوم عيد ميلادك، يا له من أمرٍ مؤسِف! وُلدتِ في السابع عشر من أكتوبر. أنت إنجليزية، أليس كذلك؟»

قالت باقتضاب: «بلى، أنا إنجليزية. وُلِدتُ في وولوورث ... في وولينجتون. عشتُ مدَّة في وولوورث.»

«كم عمرك؟»

أجابت: «ثلاثةٌ وعشرون عامًا.»

خلع السيد ريدر نظارته ومسحها بمِنديلٍ حريري كبير.

قال: «المسألة كلها تبعث على حزن لا يمكن وصفه. سعدتُ بفرصة الحديث معك أيتها الشابة. أتعاطف معك من أعماق قلبي.»

وبهذه الطريقة غير المُرضية، غادر السيد ريدر.

أغلقَت الباب خلفه ورأته يتوقَّف في منتصف الممر ويلتقط شيئًا من حوضٍ على الحافة، ومِن ثَم قطَّبت جبينها وتساءلت: لماذا التقطَ هذا الرجل في منتصف العمر حدْوة حصانٍ رَمتْها من النافذة ليلة أمس. وضع السيد ريدر قطعة الحديد الصَّدِئة في جيبه ثم تابع طريقَه مُفكرًا حتى وصل إلى المشتل، حيث كان يودُّ طرح بعض الأسئلة.

لمَّا دخل السيد ريدر مُستحيًا إلى غرفة التحقيقات وأبرز أوراقَ اعتماده للمُفتش المسئول، وجد رجال القسم رقم ١٠ عاكفين على أداء واجباتهم.

قال ذلك الضابط المسئول مُتودِّدًا: «أوه، نعم، السيد ريدر. وصلتْنا مذكرة من مكتب النائب العام، ومن دواعي سروري أن عملتُ معك في تلك القضية الكبيرة [قضية تزوير أموال بنك إنجلترا.] منذ بضع سنوات. والآن، ما الذي يُمكنني تقديمه لك؟ ... بيرنت؟ نعم، إنه هنا.»

نادى على الرجل وأتى ضابطٌ شابٌّ حسَن المظهر نحوهما.

قال المفتش: «إنه الرجل الذي اكتشف جريمة القتل، إنه ينتظر ترقية. يا بيرنت، أتى هذا السيد النبيل من مكتب النائب العام ويُريد التحدُّث معك قليلًا. من الأفضل أن تُجرِيَ مُحادثتك في مكتبي يا سيد ريدر.»

ألقى الشرطيُّ الشابُّ التحية وتبع الشخص الذي ظل يمشي حتى اكتنفَته خصوصية مكتب المُفتش. كان شابًّا واثقًا من نفسه؛ بعد أن ظهرت صورته واسمه في الجرائد بالفعل، أصبح التلميح بالترقية حقيقةً لا جدال فيها تقريبًا، وبات واضعًا نصْب عينَيه احتمالَ تحقيق إنجازٍ عظيم.

قال السيد ريدر: «أخبَروني أنك شاعر تقريبًا أيها الضابط.»

تورَّدَت وجنتا بيرنت.

قال مُعترفًا: «عجبًا، أجل يا سيدي. أكتب القليل من الشعر.»

سأل الآخر بلطف: «قصائد حُب، أليس كذلك؟ يجد المرء وقتًا في الليل لِمثل ... اممم ... هذه الخيالات. ولا يُوجَد مصدرُ إلهام مثل ... اممم ... الحبُ أيها الضابط.»

احمرَّ وجه بيرنت.

قال: «أكتب قليلًا في الليل يا سيدي، ولكني لم أتجاهل واجبي قط.»

همهم السيد ريدر: «هذا طبيعي؛ فلديك عقل شاعر. يا لها من فكرة شاعرية أن تقطف الزهور في منتصف الليل ...»

قاطعَه بيرنت مُسرعًا: «أخبرَني صاحب المشتل أنه يُمكنني أخذُ أيِّ زهور أُريدها. لم أرتكب خطأً.»

أمال ريدر رأسه إشارةً إلى الاتفاق معه.

«أعلم ذلك. قطفتَ الزهور في الظلام. بالمناسبة، قطفتَ بالخطأ زهرةَ نجمٍ مع زهور الأُقحوان وربطتَ قصيدتك الصغيرة في الباقة وتركتَها على عتبة الباب مع ... اممم ... حدوة حصان. أتساءل: ما الذي حدث لحدوة الحصان.»

صحح الشاب المُرتبك: «رميتُها إليها، إلى حافَة نافذة السيدة. في الحقيقة، لم تلمع الفكرة في رأسي حتى مررتُ بالمنزل ...»

كان وجه السيد ريدر يتطلَّع إلى الأمام.

قال بصوتٍ خافت: «هذا ما أريد التأكُّد منه. لم تلمع فكرة ترك الزهور في رأسك حتى مررتَ بمنزلها، هل أنا على صواب؟ هل لَمَعَت الفكرة بفضل حدوة الحصان؟ ثُم عُدتَ وقطفتَ الزهور وربطتَها مع قصيدةٍ صغيرة سبقَ أن كتبتَها وقذفتها باتجاه نافذتها … لسنا بحاجة إلى ذِكر اسم السيدة.»

ظهر على وجه الشرطي بيرنت مزيجٌ من المشاعر.

«لا أعرف كيف خمَّنتَ هذا، ولكنها الحقيقة. لو كنتُ ارتكبت خطأً …»

قال السيد جيه جي ريدر بعقلانية: «ليس خطأً أن تقع في الحُب. الحُب شعور جميل … قرأتُ الكثير عنه.»

ارتدَت الآنسة ماجدة جراين ملابسها للخروج بعد الظهيرة وكانت ترتدي قُبعتَها، عندما رأت الرجل الغريب الذي زارها في صباح ذلك اليوم يسير في المَمرِّ المُغطَّى بالفُسيفساء. ومن خلفه رأت مُحققًا يتولَّى التحقيق في القضية. كانت الخادمة بالخارج، ولا يمكن لأحد أن يدخل إلا لو فتحَتْ هي له. مشَت مُسرعة خلف التسريحة ووقفت أمام النافذة تنظر إلى الطريق جَيئةً وذَهابًا. نعم، ها هي سيارة الأجرة التي عادةً ما تُرافق مثل هذه الزيارات، ورأت رجلًا آخر بجانب السائق، ومن الواضح أنه «مشغول».

سحبت مفرش سريرها وأخذت رزْمة الأوراق المالية التي وجدَتْها ورمتها في حقيبة يدها، ومشت على أطراف أصابعها إلى البسطة، ومنها إلى الغرفة الخلفية غير المُؤثَّثة، وفتحَت النافذة ونزلت إلى سقف المطبخ المستوي. وفي غضون دقيقةٍ أخرى، وصلت إلى الحديقة وخرجت منها عبر البوابة الخلفية. كان يُوجَد شارع ضيق يُفرِّق صَفَّي الفيلات عن بعضهما من الخلف. بلغَتِ الطريق السريع واستقلَّتْ سيارةً قبل أن يتعب السيد ريدر من الطَّرْق على الباب. وحسب معلومات السيد ريدر، فإنه لم يرَها مرةً أخرى.

بناءً على طلب النائب العام، ذهب إلى منزل رئيسه بعد العَشاء وأخبره قصته المدهشة.

«لا شك أن جرين — الذي حصل على ترقيةٍ استثنائية وتجاوز سابقيه في الخدمة بفضل الخدمات الخاصة التي أدَّاها في أثناء الحرب — صاحبُ سوابق، ولكنه ذكَر الحقيقة لَمَّا قال إنه تلقى خطابًا من رجلٍ قضى معه مدةً في السجن. اسم هذا المُبتز — أو بالأحرى كان اسمه — آرثر جورج كراتر، وينتحل اسمًا آخر وهو مولينج!»

قال النائب العام بذهول: «أليس هو الحارِسَ الليلي؟»

أومأ السيد ريدر.

«بلى يا سيدي، إنه آرثر مولينج. وُلدت ابنته — الآنسة ماجدة كراتر — كما قالت صادقةً في وولوورث في السابع عشر من أكتوبر عام ١٩٠٠م. قالت وولينجتون بعد ذلك، ولكنها قالت وولوورث أولًا. يُلاحِظ المرء أنه عندما ينتحِل الناس أسماءً مُزيفة لعائلتهم، فنادرًا ما يُغيرون أسماءهم الخاصة، واسم «ماجدة» يسهل تمييزه.

من الواضح أن مولينج وضع خُطة مُحكمة لسرقة البنك. أحضر ابنته باسم عائلة مُزيف إلى إيلينج وتمكَّن من تعريفها بالسيد جرين. تمثلت وظيفة ماجدة في كسب ثقة جرين وأن تعرف كلَّ ما يُمكنها معرفته. ربما كان من مهامها الحصولُ على نسخة من المفاتيح. وسواءٌ تعرَّف مولينج على المدير الذي عرَفَه في السجن قديمًا أو حصل على تلك المعلومات من الفتاة، فلن نعرف هذا مُطلقًا. ولكن لمَّا نمَتِ المعلومة إلى علمه، ارتأى فرصةً أكيدة في سرقة البنك ورمي التهمة على المدير.

تمثَّل دور الفتاة في أن تكون امرأةً على وشك الطلاق، ويجب أن أعترف بأن هذه الكذبة أربكتْني حتى أدركتُ أن مولينج لن يرغب بأي حالٍ من الأحوال في أن يربط اسم ابنته بمدير البنك.

اختِيرَت ليلة السابع عشر من أجل مُداهمة البنك. نجحت خُطة مولينج في التخلص من مدير البنك. رأى الخطاب على الطاولة في مكتب جرين الخاص وقرأه، ثم حصل على المفاتيح — على الرغم من أن لديه نسخةً منها — وفي اللحظة المناسبة أخرج ما يستطيع حملَه من النقود خارج البنك، وأسرع بها إلى المنزل في شارع فيرلينج، حيث دُفِنَت الأموال في حوض الزهور في مركز الحديقة الأمامية تحت شجرة الورد؛ تخيَّلْتُ أن هناك شيئًا يمنع وصول الغذاء إلى هذه الشجرة المسكينة الجافة فورَ رؤيتها أول مرة. لا يسَعني إلا أن آمُلَ ألا تكون الشجرةُ قد ماتت تمامًا، ولذا أعطيتُ تعليماتٍ بإعادة زرعها وتسميدها جيدًا.»

قال النائب العام غيرُ المُهتم بالبستنة على الإطلاق: «نعم، نعم.»

«لمَّا زرع مولينج الشجرة مستعجلًا بعض الشيء، خدَش يده. تحتوي الزهور على بعض الأشواك ... ذهبتُ إلى إيلينج للبحث عن شجرة الورد التي خدشَتْ يده. أسرع عائدًا إلى البنك وانتظر لأنه يعرف أن الشرطيَّ بيرنت يتولَّى خدمته في وقتٍ مُعين. جهَّز علبة الكلوروفورم مُسبقًا وكانت الأصفاد والأشرطة في انتظاره، ووقف على ناصية الشارع حتى رأى الضوء من مصباح بيرنت، فأسرع بعد ذلك ودخل البنك وترك الباب مواربًا، وربط نفسه وأوصدَ الأصفاد واستلقى على الأرض، مُتوقعًا أن يصل الشرطيُّ ويعثُر عليه ويُنقِذه قبل أن يتأذَّى كثيرًا.

لكن الشرطي بيرنت كان في علاقة حُبٍّ لطيفة مع الفتاة. لا شك أنها تلقَّت تعليماتٍ من والدها بأن تُسعِده قدْر المُستطاع. بيرنت شابٌّ وشاعر، علِم بيوم ميلادها، ولَمَّا كان يمشي بطول الشارع ارتطمت قدمه في حدوة حصان، ولمعت الفكرة في رأسه بأنه لا بدَّ أن يعود، وربَط حدوة الحصان ببعض الزهور التي سمح له صاحبُ المشتل بقطفها، وتركَ باقة الزهور الصغيرة تحت قدمي السيدة — فكرة شاعرية ورجل جديرٌ بأرقى تقاليد قوة شرطة العاصمة. هذا ما فعَلَه، لكن الأمر استغرق بعض الوقت؛ وطيلة الوقت الذي ظلَّ فيه هذا الشاب يُمارس مُغازلاته كان آرثر كراتر يحتضر!

بعد بضع ثوانٍ من استلقائه على الأرض، لا بدَّ أنه فقد وعيَه وظلَّ الكلوروفورم يتقطَّر، ولَمَّا وصل الشرطي إلى البنك في نهاية المطاف، بعد تأخُّرٍ عن الموعد المُحدد بعشر دقائق، كان الرجل ميتًا!»

اعتدَل النائب العام في جلسته على الكرسي الوثير، وعبَس في وجه مرءوسه الجديد.

سأل مُتعجبًا: «كيف بحقِّ السماء جمعتَ كل هذا بعضَه مع بعض يا رجل؟»

هزَّ السيد ريدر رأسه بحُزن.

وقال: «لدي ذلك الطبعُ السيِّئ. إنه حظٌّ عاثر للغاية، ولكنها الحقيقة. أرى الشرَّ في كل شيء، في أجمات الزهور الذابلة وفي حدوة الحصان وحتى في الشِّعر. أُفكِّر بعقلية المُجرم. يا له من أمر مُؤسِف!»

القصة الثانية: صيد الكنوز

يشيع في أوساط المُجرمين أنه حتى أصغر ضابط مباحث يمتلك ثروةً وممتلكاتٍ وأن تلك الممتلكات يَحوزها من السرقة والرِّشوة والابتزاز. هذا ما يتهامَس به مَن في الحقول والمحاجر ومحلات الخياطة وغسل الملابس والمخابز التي تتبع خمسين سجنًا وثلاثَ مؤسَّساتٍ لتشغيل المحكوم عليهم في المُقاطعة؛ إذ يقولون إنَّ جميع المُحققين ذَوي المناصب العُليا يتَّبِعون أساليبَ شائنة كي يَكنِزوا الأموال لأنفسهم؛ ومِن ثَم يتحوَّل العمل لديهم إلى هواية، ويُظهِرون أنهم يتقوَّتون على مصادر دخلهم الزهيد.

لَمَّا كان السيد جيه جي ريدر يتعامَل مع لصوص البنوك والمُزوِّرين — وهم أصحاب الطبقة الأرستقراطية والرأسمالية في عالَم الجريمة — لمدةٍ تربو على عشرين عامًا، فتقول الأسطورة إنه كان يملك منازلَ ريفيةً ومُدخراتٍ سريةً هائلة. إنه لا يحتفظ بهذه المبالغ المالية الهائلة في البنوك. فقد كان من المُعترَف به أنه كان شديدَ الذكاء بحيث لا يمكن أن يُخاطر باكتشاف السلطات لهذه المبالغ. كلَّا، بل كانت الأموال مُخبَّأةً في مكانٍ ما: كان حُلم المئات من الخارجين على القانون أن يكتشفوا الكنز يومًا ما، ويعيشون باقيَ أيامهم في سعادة. الجانب المُرضي الوحيد من ثرائه (جميعهم اتفقوا على ذلك) هو تقدُّمه في السن — إذ يتجاوز عمره الخمسين عامًا — ولا أحد يأخذ الأموالَ معه إلى القبر، والذهب ينصهر عند درجة حرارةٍ مُعينة، ونادرًا ما تُطبَع الأوراق المالية من الدرجة الأولى على ورق أسبستوس.

في أحد أيام السبت، جلس مدير النيابة العامة في ناديه يتناول الغداء مع قاضي مجلس الملك — ويومُ السبت أحدُ يومَين في الأسبوع يتناول فيهما القاضي طعامًا لائقًا. ثم تحوَّل الحديث إلى السيد جيه جي ريدر، الذي يَشغَل منصب رئيس المُحقِّقين لدى النائب العام.

اعترف مُمتعِضًا: «إنه يتمتع بالكفاءة، ولكني أكره قُبَّعته. إنها من النوع الذي يرتديه فلان.» وذكر اسم أحد السياسيين البارزين «إنني أشمئزُّ من معطفه المشقوق الذيل، مَن يراه وهو يدخل إلى المكتب يعتقد أنه ضابط لدى الطبيب الشرعي، ولكنه كفءٌ في النهاية. أمقتُ شعراتِه الناميةَ على جانبَي وجهه، وأشعر أنني إذا تحدَّثت إليه بأسلوبٍ فظ، فسينفجر بالبكاء — رجل لطيف. ربما لطفه مُبالَغ فيه بالنسبة إلى نوع العمل لديَّ. إنه يعتذر للساعي في كل مرةٍ يدقُّ له الجرس!»

ردَّ القاضي، الذي كان يعرف شيئًا عن الإنسانية، بابتسامة باردة.

وقال بسخرية: «إنه أشبَهُ بقاتل مُحتمَل في نظري.»

ظلَم ميلورد السيد جيه جي ريدر بمُبالغته؛ لأن السيد ريدر كانت لديه القُدرة على خرق القانون — خرقه تمامًا. في الوقت ذاتِه، يُوجَد العديد ممن كوَّنوا فكرةً خاطئة تمامًا عن مُسالَمة السيد جيه جي كفرد. لو كول واحدٌ من هؤلاء، وقد كان يمزج ما بين طباعة الأوراق المالية وعمليات السطو البسيطة.

القول بأن المُهدَّدين يعيشون طويلًا قول مُبتذَل، ولكنه حقيقة مثل معظم الأشياء المُبتذَلة. في عددٍ هائل من القضايا، عندما ينزل السيد جيه جي ريدر من على منصة الشهود، كانت عيناه تلتقيان بعينَي الماثل في قفص الاتهام، ويستمع باهتمام مُعتدل إلى مختلِف الوعود بشأنِ ما سيحدُث له؛ سواءٌ في المستقبل القريب أو البعيد. لأنه كان يتمتع بخبرةٍ واسعة في الأوراق المالية المُزوَّرة، وأرسل العديد من الرجال إلى الأشغال الشاقة.

البذاءة ليست من صفات السيد ريدر، وسبق أن رأى سجناء يرغون ويُزبِدون في فَوْرة غضبهم، ورآهم والدمُ هاربٌ من عروقهم وفي قمة الغضب، وسمع لعناتهم وعويلَهم، والتقى بهم بعد الإفراج عنهم من السجن ووجدهم أرواحًا لطيفة يمتزج فيها الخجلُ والاستمتاع بنوبات غضبهم، وتهديداتهم المُروعة التي كادوا ينسَوْنها.

لكن، في مُستهل عام ١٩١٤م، حينما حُكِم على لُو كول بالسجن لمدة عشرِ سنين، لم يصرُخ بلعناته ولم يتوعَّد بانتزاع قلب السيد ريدر أو رئتَيه أو أعضائه الحيوية من جسده الهزيل.

لم يفعل «لُو» شيئًا سوى أن ابتسم ونظر إلى المُحقِّق لجزءٍ من الثانية — يمتلك المُزوِّر عينَين زرقاوَين شاحِبتين ومُتأمِّلتين، ولم تحمِل الكراهية أو الغضب. بل كانت تُوحي بالعديد من الكلمات:

«سأقتلك في أول فرصة.»

قرأ السيد ريدر الرسالة وتنهَّد من أعماق قلبه لأنه يكره جميع أنواع الشِّجار، ومِن ثَم استاء كل الاستياء من الإجحاف الواقع عليه، واعتبارِه مسئولًا شخصيًّا عن أداء واجبٍ عام.

مرَّت العديد من السنين، وحدثَت تغييراتٌ كبيرة في أقدار السيد ريدر. انتقل من وظيفةٍ مُتخصِّصة وهي اكتشاف مُرتكِبي جرائم تزوير الأوراق المالية إلى عملٍ له مهامُّ أعمُّ لدى مكتب النائب العام، ولكنه لم ينسَ ابتسامة «لُو» مُطلقًا.

لم يكن العمل في وايتهول ثقيلًا وكان مُمتعًا للغاية. كانت معظم الرسائل غيرِ المُوقَّعة أو المجهولة الاسم التي يتلقَّاها المدير تذهب إلى السيد ريدر. في الغالب، كانت هذه الرسائل تُفسِّر نفسها، ولا تتطلَّب ذكاءً حادًّا لاكتشاف الدافع من ورائها. كان الدافع وراءَ مُعظم تلك الرسائل الغيرة أو الحقد أو إثارة المشاكل فحَسْب، وفي بعض الأحيان كان الدافع من ورائها الرغبةَ الدنيئة في تحقيق استفادةٍ مالية من المعلومات التي يتم إرسالها. ولكن في بعض الأحيان:

> سيتزوَّج سير جيمس من ابنة عمه، ولم يمرَّ ثلاثة أشهر على سقوط زوجته التعيسة الحظ من فوق الباخرة وهي تعبُر إلى مدينة كاليه. ثَمَّة شيء مُريب جدًّا في هذه المسألة. الآنسة مارجريت لا تُحبه لأنها تعلم أنه يسعى إلى الحصول على أموالها. ما الدافع من إبعادي إلى لندن في تلك الليلة؟ إنه لا يُحبُّ قيادة السيارة في الظلام أيضًا. وغريبٌ أنه أراد القيادة في تلك الليلة رغم هطول الأمطار بكميات غزيرة.

هذا الخطاب تحديدًا كان يحمِل التوقيع «صديق». العدالة لها العديد من الأصدقاء.

سير جيمس هو سير جيمس تايذرمايت الذي شغَل منصب المدير لدى هيئةٍ حكومية جديدة في وقت الحرب وتلقَّى رُتبة بارونيت نظير خدماته.

لمَّا رأى المديرُ الخطاب، قال: «ابحث في الأمر. أظن أن زوجة تايذرمايت غرقَت في البحر حسبما أتذكَّر.»

قال السيد ريدر بحزن: «وقع الحادث في التاسع عشر من ديسمبر العامَ الماضي. كانت في طريقها مع سير جيمس إلى مونت كارلو، وقطعا رحلتَهما في باريس. قاد سير جيمس، الذي يملك منزلًا بالقُرب من ميدستون، سيارته إلى دوفر، وركن السيارة في فندق لورد ويلسون. هبَّت عاصفةٌ في تلك الليلة وتلاعبت الأمواج بالسفينة، ولمَّا وصلا إلى منتصف

المسافة، أتى سير جيمس إلى ضابط المُحاسبات في السفينة وقال إنه فقد زوجته. تمَّ العثور على أمتعتها في المقصورة وكذلك جواز سفرها وتذكرة القطار وقُبَّعتها، ولكن لم يُعثَر على السيدة، وفي الواقع لم تُرَ مرةً أخرى.»

أومأ المدير.

«أرى أنك اطَّلَعْتَ على القضية.»

قال السيد ريدر: «بل أتذكَّرها. القضية من القضايا التخمينية التي أُفضِّلها. للأسف أرى الشرَّ في كل شيءٍ وكثيرًا ما فكرتُ في مدى سهولة ... ولكن أخشى أنني أرى الحياة بنظرةٍ مُنحرفة. امتلاك عقلٍ إجرامي عيبٌ رهيب.»

نظر إليه المدير بارتياب. لم يتأكَّد مُطلقًا من جدِّية السيد ريدر في حديثه. وفي تلك اللحظة، كانت جِديته خارج نطاق الرِّيبة.

استهل قائلًا: «بالطبع الخطاب كتبه سائقٌ مطرود من عمله.»

عقَّب السيد ريدر: «إنه توماس دايفورد، ويسكن في ١٧٩ شارع باراك، بميدستون. يعمل حاليًّا لدى شركة كِنت موتور باص، ولديه ثلاثة أطفال؛ اثنان منهم توأم وطفلٌ صغير وسيم.»

لم يتمالك المديرُ نفسَه وضحك.

قال: «سأعتبر أنك تعرف كلَّ شيء! استكشِفْ ما وراء الخطاب. سير جيمس شخصية لها ثِقَل في كِنت، إنه قاضي صُلح، ولديه نفوذ سياسي قوي. بالطبع، لا يذكر هذا الخطاب شيئًا. كن حذرًا يا سيد ريدر؛ فأيُّ ضربةٍ تُوجَّه إلى هذا المكتب، سترتدُّ إليك مُضاعفة!»

كانت فكرة السيد ريدر عن الحذَر فريدةً من نوعها. سافر إلى ميدستون في صباح اليوم التالي، ولَمَّا عثَر على الحافلة التي تمرُّ ببوابات كوخ عزبة إلفريدا، ارتادها وكانت رحلته مُريحة واقتصادية والمِظلَّة ما بين رُكبتَيه. مرَّ على بوابات الكوخ وسار عبر طريق طويل مُتعرِّج مُحاط بأشجار الحور، إلى أن أصبح أخيرًا على مرأًى من كوخ صاحب العزبة الرمادي.

رأى فتاةً تجلس في كرسيٍّ عميق على المرج، واضعةً كتابًا على رُكبتَيها ويبدو أنها رأَته لأنها نهضَت لَمَّا عبَر المرج، وأتت نحوه مُتحمِّسة.

«أنا الآنسة مارجريت ليثربي، هل أنت مِن ...؟» ذكرَت اسم شركة مُحاماة مشهورة، واستاءت لَمَّا أنكرَ السيد ريدر بأسفٍ علاقتَه بتلك الشركة اللامعة في الخدمات القانونية.

كانت الفتاة فاتنةَ الجمال؛ إذ كانت نَضِرةَ البشرةِ مُستديرةَ الوجه، ولا يبدو أنها من ذَوي الثقافة العالية.

«اعتقدتُ ... هل تريد رؤية سير جيمس؟ إنه في المكتبة. إذا ضربتَ الجرس، ستأخُذك إحدى الخادمات إليه.»

لو أن السيد ريدر مِمَّن ينشغل تفكيرهم بأي شيء، لكان تفكيره قد انشغل بالاقتراح القائل بأن أيَّ فتاةٍ لديها مالها الخاصُّ سوف تتزوَّج رغمًا عنها من رجلٍ يكبُرها بكثير. لم يَعُد في الأمر لغزٌ الآن. الآنسة مارجريت كانت ستتزوَّج من أي رجلٍ قويِّ الإرادة يُصِرُّ عليها.

«حتى أنا.» قالها السيد ريدر لنفسه وهو يشعر بشيءٍ من السعادة السوداوية.

لم تكن هناك حاجةٌ إلى رنِّ الجرس. ظهر على عتبة الباب رجلٌ طويل عريض المنكبَين يرتدي بِذْلة جولف. كان شعره الأشقر الطويل تتدلَّى خُصلةً كثيفة مُستويةً منه على جبهته، وله شارب كثيف بُنِّي مائل إلى الأصفر يُخفي فمَه ويتدلى على ذقنه الطويل القوي.

سأل بأسلوبٍ غليظ: «ماذا تريد؟»

همهم السيد ريدر: «أنا من مكتب النائب العام. ووصل إلى مكتبنا خطابٌ من شخص مجهول.»

لم تنزل عيناه الشاحبتان من على وجه الرجل الآخر.

قال سير جيمس بأسلوب فظ: «ادخل.» وبينما يُغلق الباب، اختطف نظرةً سريعة إلى الفتاة أولًا، ثم إلى الشارع المزروع فيه شجرُ الحور. وقال وهو يفتح الباب الذي يبدو أنه باب المكتبة على مِصراعَيه: «أنا أنتظر أحد الحَمْقى المُحامين.»

تحدَّث بنبرة صوتٍ هادئة، ولم يهتزَّ له جَفنٌ أو يُداخله القلق مقدارَ ذرة عندما أخبره ريدر بمُهمته.

«حسنًا ... ماذا عن هذا الخطاب ذي المصدر المجهول؟ أنت لا تكترث كثيرًا لهذا النوع من الهُراء، أليس كذلك؟»

وضع السيد ريدر مِظلته وقُبعته ذاتَ التاج المُسطَّح على مقعدٍ قبل أن يُخرج وثيقة من جيبه ويُعطيَها للبارونيت الذي عبَس لَمَّا قرأها. هل السيد ريدر يتمتع بخيالٍ مُتَّقِد أم خفَتَ الضوء في عينَي سير جيمس وهو يقرأ؟

قال: «هذه حكاية لا أصل لها من شخصٍ رأى مجوهرات زوجتي تُباع في باريس. الخطاب يتحدَّث عن هُراء. يُمكنني حساب كل قطعةٍ من حُليِّ زوجتي المسكينة. أحضرتُ صندوق المجوهرات ثانيةً بعد تلك الليلة المُروِّعة. لا أعرف صاحب الخط؛ من هو الوغد الكاذب الذي كتب هذا؟»

لم يُنادَ السيد ريدر بالوغد الكاذب من قبل، ولكنه تقبَّل التجرِبة بصدرٍ رحب.

قال وهو يهزُّ رأسه: «اعتقدتُ أن هذا غير حقيقي. لقد تابعتُ تفاصيل القضية بدقةٍ بالغة. لقد غادرتَ هنا بعد الظهيرة ...»

قال الآخَرُ بأسلوب فظ: «في المساء.» لم يكن يميل إلى مناقشة المسألة، ولكن نظرة السيد ريدر الطيِّبة لم يكن مِن المُمكن مقاومتُها. «لا تستغرق الرحلة إلى دوفر أكثرَ من ثمانين دقيقة. وصلنا إلى الرصيف في الساعة الحادية عشرة، أي تقريبًا في نفس وقت قطار السفينة، ومِن ثَم صعدنا على متن السفينة على الفور. أخذتُ مفتاح المقصورة من ضابط المُحاسبات وأدخلتُ السيدةَ وأمتعتَها إلى المقصورة.»

«هل كانت سيادتها تحتمل الإبحار دون التعرُّض لدُوار البحر؟»

«نعم، لم تكن تُصاب بدوار البحر أبدًا؛ وكانت في خير حالٍ في تلك الليلة. تركتها في المقصورة لتنالَ قسطًا من الراحة وذهبتُ كي أتمشَّى على ظهر السفينة ...»

أومأ السيد ريدر برأسه، وكأنه يُوافق على شيءٍ قاله الآخر، ثم قال: «أمطارٌ غزيرة وأمواجٌ هائجة.»

«نعم — أنا لا أُصاب بدوار البحر — على أيِّ حال، تلك القصة عن مجوهرات زوجتي المسكينة ما هي إلا هُراء. يمكنك أن تُخبر المدير بذلك وتُرسِلَ إليه تحياتي.»

فَتَح الباب لزائره واستغرقَ السيد ريدر بعض الوقت كي يُعيد الخطاب إلى مكانه ويجمع مُتعلَّقاته.

«تمتلك مكانًا جميلًا هنا. يا سيد جيمس ... مكان جميل. هل هي عزبة كبيرة؟»

«ثلاثة آلاف فدَّان.» لم يُحاول إخفاء نفاد صبره هذه المرةَ. «مع السلامة.»

ظلَّت ذاكرة السيد ريدر تعمل وهو يمشي في الطريق على مهَل.

فاتَتْه الحافلة التي لو أراد اللَّحاق بها لفعل، واستمر يسير في طريقٍ بدا بلا هدفٍ عبر الطريق المُتعرِّج الذي يمتدُّ على حدود ممتلكات البارونيت. بعدما قطع رُبعَ المِيل، أخذه الطريقُ إلى ممرٍّ يتفرَّع من الطريق الرئيسي بزاويةٍ قائمة ويُمثِّل، كما خمَّن، الحدَّ الجنوبي للعزبة. على الناصية، يقبع كوخ قديم مَبنيٌّ بالحجارة داخل بوابةٍ حديدية منيعة. كان الكوخ في حالةٍ يُرثى لها من الإهمال والحاجة إلى الترميم. كان البلاط مُزالًا من السقف والنوافذ قاتمة أو مكسورة، والحديقة الصغيرة مُمتلئة بنباتات الحماض والشوك. خلف البوابة، كان يُوجَد مَمرٌّ ضيق مُغطًّى بالحشائش يُؤدي إلى زرع بعيد خارج نطاق الرؤية.

لمَّا سمع صوت قفل صندوق البريد، التفتَ ورأى ساعيَ البريد وهو يركب درَّاجته.

أوقف السيد ريدر ساعيَ البريد وسأله: «ما هذا المكان؟»

«الكوخ الجنوبي، إنه مِلك سير جيمس تايذرمايت. إنه لا يستخدمه الآن. إنه لم يُستخدَم منذ سنوات، ولا أعرف لماذا؛ إنه طريق مُختصر إذا صادف وأتوا من هذا الطريق.»

مشى معه السيد ريدر باتجاه القرية، وكان ماهرًا في استخراج مكنونات الصدور حتى ولو كانت خاوية؛ ولكنَّ صدْر ساعي البريد لم يكن خاويًا البتَّة.

«نعم، يا لها من سيدة مسكينة! كانت ضعيفةً للغاية، إنها واحدة من هؤلاء المرضى الذين يعيشون لفترةٍ أطولَ من رجالٍ أصحَّاء كثيرين.»

طرَح السيد ريدر سؤالًا عشوائيًّا ولم يتوقَّع أن يحصل على كل تلك المعلومات.

«نعم، كانت السيدة تُصاب بدُوار البحر. أعلم ذلك لأنها في كل مرة تُسافر إلى الخارج، اعتادت أن تأخذ زجاجةً من الدواء الذي يتناوله الأشخاص لدوار البحر. أوصلتُ العديد من تلك الزجاجات حتى خزَّنها الصيدليُّ ريكس تحت اسم «صديق المسافرين عملاء بيكرز»، وأطلق عليها هذا الاسم. أخبرَني السيد ريكس منذ بضعة أيام أنه تتوفَّر لديه ستُّ زجاجاتٍ من هذا الدواء، ولا يعرف كيف يتصرف فيها. فلا أحد في كليمبري يُسافر عن طريق البحر.»

ذهب السيد ريدر إلى القرية وشغل وقته الثمين في أماكنَ ما فكَّر في الذَّهاب إليها. قضى وقتَه في الصيدلية وفي ورشة الحدَّاد وفي فِناء مبنًى مُتواضع. ولحق آخِرَ حافلة إلى ميدستون وحالَفَه الحظُّ كثيرًا إذ لحق بآخِرِ قطارٍ إلى لندن.

وبطريقته الغامضة، أجاب عن استفسار المدير في اليوم التالي بما يلي:

«نعم، رأيتُ سير جيمس: إنه رجل مُثير للاهتمام.»

حدثَت هذه الواقعة يوم الجمعة. وظلَّ مشغولًا طوال يوم السبت. أتى السبت بشيءٍ جديد مُثير للاهتمام.

في صباح يوم الأحد المُشمِس، وقف السيد ريدر مُرتديًا مِبذَلًا مُزهرًا وفي قدَمَيه نعلٌ أسودُ مخملي، في نافذة منزله في طريق بروكلي، يجُول بنظره في الشارع الخالي من المارَّة. دقَّ جرسُ الكنيسة المحليَّة المبنية بارتفاعٍ عالٍ كي يُنبئ عن القُدَّاس المُبكر، وخلا الأفق من أي كائنٍ حي باستثناء قطةٍ سوداء تنامُ في بُقعة مُشمِسة أعلى سُلَّم المنزل المقابل. كانت الساعة تدق السابعةَ والنصف، وقد وصل السيد ريدر إلى مكتبه منذ الساعة السادسة، وجلس يعمل تحت أضواء المِصباح وقد أوشك شهر مارس على الانتهاء.

من الجزء ذي الشكلِ الهلاليِّ في النافذة، نظر إلى قِسمٍ من طريق لويشام السريع وإلى أكبر قدرٍ يُمكن أن يراه في تانرز هيل قبل أن يَحجبه جسرُ السكة الحديدية المؤدِّي إلى ديبتفورد مباشرة.

لَمَّا رجَع إلى طاولته، فتح علبةً من أرخص السجائر وأشعل سيجارة ودخَّنَها بطريقةٍ تُوحي بأنه لا يُدخِّن كثيرًا. دخن السجائرَ كامرأةٍ تبغض السجائر ولكنها تشعُر أنها الشيءُ الصحيح.

قال السيد ريدر بصوتٍ خافت: «يا إلهي.»

عاد إلى النافذة ورأى رجلًا ينعطف من طريق لويشام السريع. عبَر الطريق ثم أتى مباشرة إلى منزل دافوديل (التي تعني أزهار النرجس)، كان هذا الاسم المَرِح هو الاسمَ الظاهر على قوائمِ باب منزل السيد ريدر. رجل طويل مُنتصِب القامة له وجهٌ بُني مُتجهِّم، أتى إلى البوابة الأمامية ثم عبَر وتجاوز نطاق الرؤية للرجل الذي يُراقِب من خلف النافذة.

قال السيد ريدر وهو يسمع جلجلة الجرس: «يا إلهي.»

بعد بِضْع دقائق، نقرت مُدبِّرة شئون المنزل على الباب.

وسألت: «السيد كول يُريد رؤيتك يا سيدي، هل أُدخِله؟»

أومأ السيد جيه جي ريدر.

دخل لو كول إلى الغرفة ووجد رجلًا في منتصف العمر يرتدي مِبذَلًا ذا ألوانٍ صارخة يجلس على مكتبه وعلى أنفه نظَّارة أنفية مائلة.

«صباح الخير. يا كول.»

نظر لو كول إلى الرجل الذي أرسله إلى الجحيم لمدَّة سبعِ سنواتٍ ونصف ولوَى شفتَه الرفيعة.

«صباح الخير يا سيد ريدر.» نظرَت عيناه إلى سطح مكتبه شبه الخالي الذي يشبك ريدر يدَيه عليه برفق. «لم تتوقَّع رؤيتي، أليس كذلك؟»

قال ريدر بصوتٍ خافت: «لم أتوقَّعْها في هذا الوقت المُبكر، ولكن كان يجب أن أتذكَّر أن الاستيقاظ مُبكرًا من العادات الجيدة التي تغرِسها الأشغال الشاقة.»

قال هذا على سبيل الثناء على حُسن السلوك.

«أظنُّ أن لديك فكرةً جيدة جدًّا عن سبب حضوري، أليس كذلك؟ أنا لا أنسى بسهولةٍ يا ريدر، والمرء في دارتمور لديه وقتٌ وفير للتفكير.»

رفع الرجل الأكبرُ سنا حاجبَيه الأصفرَين، وانزلقَت النظارة ذات الإطار المَعدِني على أنفه بانحرافٍ أكثر.

أنزل حاجبَيه عابسًا وقال: «تبدو هذه العبارة مألوفةً لي. دعْني أُفكر ... قيلت في مسرحية درامية، بالطبع، ولكن ماذا كان اسمُ تلك المسرحية: «سولز إن هارنيس» أم «ذا ماريدج فو»؟»

بَدا حريصًا حقًّا على الحصول على مساعدته في حلِّ هذه المشكلة.

قال «لو» ذو الوجه الطويل وهو يَصُرُّ على أسنانه: «ستختلف أحداث هذه المسرحية. سأنال منك يا ريدر ... يُمكنك الذَّهاب إلى رئيسك، النائب العام، وتُخبره. ولكني سأنال منك يا عزيزي! ولن يكون هناك دليلٌ يُدينني. وسأحصل حتى على ذلك الجورب الصغير الجميل يا ريدر!»

كانت أسطورةُ ثروة ريدر فكرةً يتقبَّلها حتى رجلٌ ألمعيٌّ الذكاء مثل كول.

أظهر السيد ريدر قدْرًا من الفكاهة وقال: «ستحصُل على جوربي! يا إلهي سأُضطَر إلى أن أمشيَ حافيَ القدمَين.»

«تعرف ما أعني — فكِّر في الأمر. في ساعةٍ مُعينة ويومٍ مُعين ستموت، ولن تقبض عليَّ شرطة سكوتلاند يارد بأسرِها بتهمة قتلك! لقد فكرتُ في كل شيء ...»

همهمَ السيد جيه جي ريدر بنبرةٍ مُشجِّعة: «المرء في دارتمور لديه وقتٌ وفيرٌ للتفكير. إنك تتحوَّل إلى واحدٍ من مُفكِّري العالَم يا كول. هل تعرف رائعة رودين — تمثال جميل ينبض بالحياة ...»

«قلتُ ما لدي.» نهض لو كول والابتسامةُ لا تزال ترتسِم على جانبَي فمه. «ربما تُقلِّب المسألة في عقلك، وفي غضون يومٍ أو يومَين لن تشعُر بتلك السعادة.»

كان وجه ريدر مُثيرًا للشفقة في حُزنه. يبدو شعره الرماديُّ المائل إلى الأصفر غيرُ المُهندَم واقفًا على أطرافه، الأُذنان الكبيرتان اللتان تقِفان بزاويةٍ قائمة على وجهه، تُوهِمان بحركة ارتعاش.

أمسك لو كول مقبض الباب.

«بوم!»

كان صوتُ شيءٍ خفيفِ الوزن اخترقَ اللوح؛ شيء مرَّ بسرعةٍ شديدة بالقُرب من خدِّه، ثم رأى أمامه ثُقبًا عميقًا يظهر في الجدار، وأُصيب وجهُه بلَسْع حبَّات الجِصِّ المُتطايرة. التفتَ والشررُ يتطاير من عينه.

وجد السيد ريدر مُمسِكًا مُسدَّس براونينج في يده له كاتمُ صوتٍ أُسطواني مُثبَّت على الفوهة، ثم أخذ يُحملق في السلاح مشدوهًا.

سأل مُتعجبًا: «كيف حدث هذا بحق الجحيم؟»

وقف لو كول يرتجف غضبًا وخوفًا، وشحب لونُه.

قال لاهثًا: «أنت ... يا لَك من حقير! تُحاول إطلاق الرصاص عليَّ!»

حملق فيه السيد ريدر من فوق نظارته.

«هذا غير معقول ... هل تظن أني أفعلُ ذلك؟ هل لا تزال تفكر في قتلي يا كول؟»

حاول كول الكلامَ ولكن الكلمات لم تُسعِفه؛ ولذا فتح الباب على مِصراعَيه واندفع نازلًا من على السُّلَّم ومنه إلى المدخل الأمامي. لمَّا وصلتْ قدمُه عند العتبة الأولى، قُذِف شيءٌ بقوة بحيث تجاوزه وتحطَّم إلى فُتاتٍ عند قدمَيه. كانت زهريةً حجرية كبيرة كانت تُزين عتبة النافذة في غرفة نوم السيد ريدر. مُتخطيًا حُطامَ الزهرية الحجرية والزهور، حملق في وجه السيد جيه جي ريدر الذي تكسوه الدهشة.

قال مُتلعثمًا: «سأقتلك!»

قال الواقف في النافذة بنبرة قلقة: «أرجو أنك لم تتأذَّ. تحدُث هذه الأشياء. في يوم مُعيَّن وفي ساعة معينة ...»

ظلَّ المُحقِّق يتحدَّث حتى خرج لو كول إلى الشارع.

لمَّا كان السيد ستان برايد يأخذ حمَّامه الصباحي، دخل صديقه وزميله في السجن إلى غرفته الصغيرة المُطلَّة على ميدان فيتزروي.

لا يحمل ستان برايد أيَّ صفاتٍ توحي بالبراءة، إنه رجل بدين وقصير وله وجهٌ ضخم أحمر ولُغد؛ توقف عن تجفيف نفسِه وحملقَ من فوق حافة المنشفة.

وسأل بجِدَّة: «ما الأمر؟ تبدو وكأنَّ شرطيًّا يُطاردك. ما الأمر الذي خرجتَ من أجله مبكرًا هكذا؟»

أخبره «لو»، وزاد الحِسُّ المرِح على ملامح زميله في الغرفة أكثر وأكثر.

قال هامسًا: «يا لك من أحمق! ما الذي جعلك تذهب إلى ريدر هكذا! ألا تظنُّ أنه في انتظارك؟ ألا تعتقد بأنه يعرف اللحظة التي خرجتَ فيها من دارتمور؟»

قال الآخَر: «أخَفْته على أيِّ حال.» فضَحِك السيد برايد.

وقال ساخرًا: «يا لك من شجاع! أخفتَ هذا الشخص العجوز! (لم يقُل كلمة «شخص».) لو هرب الدم من عروقه كما هرَب منك، فقد أخفتَه! ولكنه لم يهرب. بالطبع

أطلق رَصاصةً مرَّت من جانبك؛ ولو أراد تصويبَ الرصاصة عليك، لكنتَ ميتًا الآن. ولكنه لم يفعل. مُفكِّر، أعطاك شيئًا كي تُفكِّر به.»

«من أين أتى هذا السلاح، لا ...»

سُمِع طرقٌ على الباب وتبادل الرجلان النظرات.

سأل برايد: «مَن الطارق؟» وردَّ صوتٌ مألوف.

«شرطيٌّ من سكوتلاند يارد.» همس برايد وفتح الباب.

كان «الشرطي» هو الرقيب ألفورد من دائرة التفتيش الجنائي، رجل دمث وبدين ومُحقِّق له مُستقبل واعد.

«صباح الخير أيها الرفاق، ألم تذهب إلى الكنيسة يا ستان؟»

ابتسم ستان ابتسامةً مُتأدِّبة.

«كيف حال التجارة يا لو؟»

«ليست سيِّئة.» أصبح المُزوِّر مُتيقظًا ومتشككًا.

«أتيت إليك بشأن سلاح؛ ورَدَني خبر أنك تحمِل سلاحًا. كولت، أتوماتيك، آر. ٧ / ٩٤٣١٨. هذا غير قانوني. هذه الأسلحة لا تنتمي لهذا البلد.»

قال «لو» مُتجهمًا: «ليس معي سلاح.»

شابَ شعرُ برايد من الخوف؛ لأنه أُدين أيضًا بتهمة لها علاقة بترخيص سلاح، وربما أودَى به هذا الاكتشاف إلى إكمال مدة عقوبته التي لم تنتهِ بعد.

«هل ستأتي معي قليلًا إلى القِسم أم آتي لأُفتِّشك؟»

قال لو: «بل تُفتشني.» ثم رفع ذراعه كي يُتيحَ له تفتيشه، بينما فتش المُحقِّق جسمه بالكامل حتى قدمَيه.

قال المُحقق: «سأُلقي نظرةً على المكان.» ثم «ألقى نظرة» مُتفحصة.

قال الرقيب ألفورد: «لا بدَّ أنَّ هناك سوءَ فَهْم.» ثم قال فجأة: «هل هو ما رميتَه في النهر وأنت تتمشَّى بطول الجسر؟»

جفل لو. كان ذلك أول إنذار يتلقَّاه بأن هناك مَن «تعقَّبه» هذا الصباح.

انتظر برايد حتى رأى ضابط المباحث وهو يعبر ميدان فيتزروي من النافذة، ثم عاد إلى رفيقه حانقًا.

«ذكي، ألستَ كذلك! هذا الكلب العجوز يعرف أنَّ لديك سلاحًا، ويعرف الرقم. ولو وجده ألفورد، «لسحبك» إلى القسم وسحبَني معك!»

قال «لو» بوجهٍ عابس: «رميته في النهر.»

قال برايد وهو يتنفَّس الصعداء: «ذكي ... لستَ ذكيًّا جدًّا ولكنك ذكي! أخرج ريدر من عقلك؛ إنه ليس صيدًا سهلًا، وإن لم تسمع عنه، فأنت أصم! أَخَفْتَه؟ أنت أحمق كبير! يستطيع أن يذبحَك ثم يكتبَ ترنيمة عن الأمر.»

قال كول مُتذمرًا: «لم أكن أعرف أنهم يتعقَّبونني، ولكني سأنال منه! ومن أمواله أيضًا.»

قال برايد بأسلوب فظ: «نَلْ منه من مكانٍ آخر. لا يُهمني أن تكون مُحتالًا أو قاتلًا حتى؛ ولكني أشمئز من الحماقة. احصل على أمواله لو استطعت، أراهن أنها مُستثمَرة بالكامل في العقارات، ولا يُمكنك رفعُ المنازل — لكن لا تتحدَّث عن ذلك. أنت تُعجبني يا لو، لكن إلى حدٍّ معين؛ لا يزال أمامك الكثير كي تتعلَّمه. أنا لا أُحب ريدر؛ لا أحب الثعابين، ومن ثَم لا أضع يدي في جُحرها.»

وهكذا، أخذ لو كول مسكنًا جديدًا في الطابق العلوي لمنزل رجلٍ إيطالي في شارع دين، وفي هذا المكان كان لديه الوقتُ والحافز لأن يجترَّ أحزانه ويُخطط من جديد لتدمير عدوه. لا بدَّ من خططٍ جديدة، فالمُخططات التي بدَت بالغةَ الإحكام بين جدران زنزانة ديفونشاير المنعزلة ظهرَ العديد من أوجه الضعفِ فيها.

تعرَّض هوَس «لو» بالقتل لتعديلٍ هائل. وقد خضع لاختباراتٍ على يد طبيبٍ نفسي ماهر، على الرغم من أنه لم يُدرِج السيد ريدر ضمن قائمة المرغوب في قتلهم، وفي الواقع، كانت لديه فكرةٌ غامضة عن معنى كلمة هوس القتل. ولكن كانت هناك طرقٌ أخرى لإيذاء ريدر، وظلَّ يعود بعقلِه إلى حلم اكتشاف الكنز الذي يُخفيه هذا المُحقِّق الشرير.

بعد أسبوع تقريبًا، دعا السيد ريدر نفسه إلى غرفة المدير الخاصة، وأنصتَ ذلك المسئول الرائع مشدوهًا لنظرية مرءوسه الصادمة عن سير جيمس تايذرمايت وزوجته المُتوفَّاة. لما انتهى السيد ريدر، دفع المدير كرسيَّه للوراء مُبتعدًا عن الطاولة.

قال بنبرةِ انفعالٍ خفيف: «يا صديقي العزيز، لا يُمكنني إصدارُ أمرٍ بناءً على قوة تخميناتك، ولا حتى أمر تفتيش. القصة رائعةٌ للغاية، مُذهلة، ولكنها تُناسِب أن تُكتَب في صفحات قصةٍ مُثيرة، وليس في تقريرٍ من مكتب النائب العام.»

اقترح المُحقِّق بلُطف: «كانت ليلةً عاصفة ومع ذلك لم تكن السيدة تايذرمايت مريضة. هذه حقيقة لا ينبغي تجاهلُها يا سيدي.»

هزَّ المدير رأسه.

وقال: «لا يُمكنني منحُ الأمر، ليس بِناءً على شهادة. سوف أُثير عاصفةً هوجاء تُطيح بي في وايتهول. ألا يُمكنك أن تفعل شيئًا ... غير رسمي؟»

هزَّ السيد ريدر رأسه.

قال بأسلوب مُتحفِّظ: «لوحظ وجودي في الحي. أعتقد أنه يستحيل إخفاء ... اممم ... آثاري. ولكني حددتُ موقع المكان، ويُمكنني أن أخبرك بالموقع بالضبط.»

هزَّ المدير رأسه مرةً أخرى.

قال بنبرةٍ هادئة: «لا يا ريدر، المسألة كلُّها عبارة عن استنتاجات من جانبك. أوه، نعم، أعلم أنك تُفكر بعقلية المُجرِم، أعتقد أنك ذكرتَ لي هذا من قبل. وهذا سببٌ وجيه لعدم إصدار الأمر. إنك ببساطة تُدين هذا التعيس بقصةٍ بارعة من ابتكارك. هذا كله هُراء!»

تنهَّد السيد ريدر وعاد إلى مكتبه ولكن ليس يائسًا يأسًا كاملًا، حيث دخل عنصرٌ جديد في تحقيقاته.

سافر السيد ريدر إلى ميدستون عدة مرات في ذلك الأسبوع، ولم يُسافر وحده؛ وعلى الرغم من أنه ادَّعى عدم إدراكه لحقيقة وجود شخصٍ يتبعه مثل ظلِّه، فقد رأى لو كول في عدة مناسبات وقضى بضعَ دقائق مشغولًا بالتفكير فيما إذا كانت تَجرِبتُه فَشِلت أم لا.

في المرة الثانية، لمعتْ فكرة في رأس المُحقِّق، ولو كان للضحك سبيلٌ إليه لضَحِك بصوتٍ عالٍ عندما خرَج من محطة ميدستون ذاتَ مساء واستأجر سيارةَ أجرة ورأى لو كول يُنادي على سيارةٍ أخرى.

كان السيد برايد مشغولًا في ممارسةٍ مُملَّة إلا إنها ضرورية؛ وهي تقسيم حزْمة أوراق لعب؛ بحيث تبقى ورقةُ الآس الماسيِّ في الأسفل لَمَّا اقتحم شريكه السابق الغرفةَ عليه، وبدا شعاع النصر يلمع في عينَي «لو» الباردتين مما جعل قلب السيد برايد يسقط في قدمه.

قال لو: «نلتُ منه!»

وضع برايد أوراقَ اللعب جانبًا ووقف.

وسأل بنبرةٍ باردة: «نلتَ ممَّن؟ وإذا كنت تقصد القتل، فلا حاجة إلى الرد، ولكن اخرج!»

«ليس قتلًا.»

جلس «لو» معتدلًا على الطاولة ووضع يدَيه في جيوبه وابتسامة حقيقة مُرتسمة على وجهه.

«ظللتُ أُراقب ريدر لمدة أسبوع، وهذا الشخص يحتاج إلى بعض المراقبة!»

لَمَّا توقَّف لمدةٍ طويلة: سأل الآخر: «ثم ماذا؟»

«وجدتُ كَنْزه!»

فرك برايد ذقنه وأصبح مُقتنعًا بعض الشيء.

«هل وجدتَه حقًّا؟»

أومأ لو.

«كان يسافر إلى ميدستون كثيرًا في الفترة الأخيرة، ويسير بالسيارة إلى قريةٍ صغيرة على بُعد خمسة أميال خارجَها. ودائمًا ما كنتُ أفقد أثره في تلك القرية. ولكن في إحدى الليالي، لَمَّا عاد إلى المحطة لِلَّحاق بآخر قطار، دخل إلى قاعة الانتظار ووجدتُ مكانًا يُمكنني مُراقبته منه. ما الذي تظنُّ أنه فعله؟»

لم يتلفَّظ السيد برايد بأي اقتراح.

قال «لو» بصوتٍ مؤثِّر: «فتح حقيبته وأخرج رزْمة أوراقٍ كبيرة كهذه! ظل يُقلب الأوراق على الطاولة التي أمامه! تتبَّعتُه إلى لندن. دخل المطعم في المحطة لاحتساء كوب من القهوة، ولكني ظللتُ بعيدًا عن أنظاره. لَمَّا خرج من المطعم أخرج منديله ومسح فمه. لم يرَ الكتاب الصغير الذي سقط منه، ولكني رأيته. ارتعبتُ من أن يراه أحد آخر أو أن ينتظرَ لمدةٍ طويلة حتى يجدَه بنفسه. ولكنه خرج من المحطة وأنا أخذتُ الكتاب في طرفةِ عين. انظر!»

كانت كرَّاسةً صغيرة متهالكة ومُغطَّاة بجلدٍ رقيقٍ أحمر ذي لونٍ باهت. مدَّ برايد يده كي يأخذها.

قال لو: «انتظِر لحظة، أنا بحاجةٍ إلى بعض المساعدة، فهل أنت معي في هذه العملية مناصفة؟»

تردَّد برايد.

قال: «إن كانت عملية سرقة فقط، فأنا معك.»

قال «لو» مُبتهجًا: «سرقة فقط، كما إنها عملية مُربحة.» ودفع الدفتر عبر الطاولة.

جلسا لفترةٍ طويلة في الليل يتحدَّثان بصوتٍ منخفض ويتناقشان في بعض الأحيان بحيادية عن أسلوب السيد جيه جي ريدر المَنهجيِّ في التسجيل في الدفتر وعدم نزاهته المُفرطة.

هطلَت الأمطار في مساء يوم الإثنين. وهبَّت عاصفة من الجنوب الغربي وامتلأ الهواء بالأوراق المُتساقطة، بينما يقطع «لو» ورفيقُه الأميال الخمسة التي تفصل بينهما وبين

القرية سيرًا على الأقدام. لم يكن أيٌّ منهما يحمل أدواتٍ ثقيلة مرئيَّة، ولكن «لو» كان يحمل مجموعة أدوات لها استخدامٌ فريد تحت مِعطفه المقاوِم للمياه، وأُثقِلَت جيوب معطف السيد برايد بعتلةٍ صغيرة قوية.

لم يُقابلا أحدًا في طريقهما ودقَّ جرس الكنيسة ليُعلِن الساعة الحادية عشرة لمَّا أمسك «لو» قُضبان بوابات الكوخ الجنوبي ورفع نفسه فوقها، ثم قفز بخِفَّة من فوقها إلى الجانب الآخر. تبعه السيد برايد الذي يتمتع بمرونةٍ فريدة على الرغم من ضخامةِ جسمه. ظهر الكوخ الخرِب في الظلام وعبَرا البواباتِ ذات الصرير إلى الباب ثم أضاء «لو» مصباحه وسلَّطه على ثُقب المفتاح قبل أن يبدأ في التعامُل معه بالأدوات التي أخرَجها من حقيبته.

فُتِح الباب في غضون عشرِ دقائق ودخَلا بعد بضع ثوانٍ إلى غرفةٍ صغيرة ذات سقف منخفض، ولم يكن فيها سوى مِدْفأة عميقة ليس لها نافذةٌ مشبكة. خلع لو معطفه المقاوم للمياه وبسَطَه على النافذة قبل أن يُشعل ضوء المصباح، وجثا على رُكبتَيه ونفَض الرُّكام مِن فوق أرض المدفأة وأخذ يتفحَّص الفواصل بين الحجارة الكبيرة بعناية.

قال: «هذا العمل غير مُتقَن. فأيُّ أحدٍ يُمكن أن يراه.»

وضع مِخلَب العتلة في الشقِّ ورفع الحجارة فتحركَت قليلًا. توقف لحفر شقٍّ أعمق باستخدام مِطْرقةٍ وإزميل، ثم دفع مخلب العتلة داخلَ الشقِّ أكثر. ارتفعت الحجارة فوق حافَة الأرضية ودفع برايد الإزميل إلى الأسفل.

قال «لو» بصوتٍ أجشَّ: «مع بعضنا الآن.»

وضَعا أصابعهما أسفلَ حجارة المدفأة ورفَعاها رَفْعةً واحدة. أخذ «لو» المصباحَ وجثا على رُكبتَيه وسلَّط ضوء المصباح داخل التجويف المُظلم. وبعدئذٍ:

صرخ قائلًا: «أوه، يا ربي!»

بعد ثانية، اندفع الرجلان المُرتعِبان من الكوخ إلى الطريق. وحدثَت معجزة، إذ وجدا البوابات مفتوحةً وشخصًا يقف أمامهما ويلفُّه الظلام.

سمعا صوتًا: «ارفع يدَيك يا كول!» وبقدْر ما كان الصوت كريهًا في أذن لو كول، بقدر ما تمنَّى أن ينقضَّ على عنق السيد ريدر.

في الساعة الثانية عشْرة في تلك الليلة، كان سير جيمس تايذرمايت يُناقش بعض المسائل مع عروسه المُنتظَرة: غباءُ مُحاميها الذي يرغب في حماية ثروتها، وذكاؤه وبصيرته في تأمين حرِّية التصرُّف كاملةً للفتاة التي ستُصبح زوجته.

استهلَّ قائلًا: «هؤلاء الحَمْقى لا يُفكرون إلا في أتعابهم …» وعندها دخل الخادم دون سابقِ إنذارٍ وخلفه مأمورُ المقاطعة ورجل آخَر تذكَّر أنه رآه من قبل.

يعرف المأمور سير جيمس جيدًا، ولكنه سأل دون داعٍ: «هل أنت سير جيمس تايذرمايت؟»

ردَّ البارونيت مُقطبًا جبينَه: «نعم أيها الكولونيل، ما الأمر؟»

«أنت قيد الاعتقال بتهمة قتلِ زوجتك إلينور ماري تايذرمايت مع سبق الإصرار.»

شرح جيه جي ريدر لرئيسه: «لقد اعتمد كلُّ شيءٍ على سؤال ما إذا كانت السيدة تايذرمايت مُعرَّضةً لدُوار البحر أم لا. إذا كانت مُعرَّضة لدوار البحر، فلا يُحتمَل أنها صعدت على متن السفينة ولو لمدة خمسة دقائق بدون استدعاء المُضيفة. والمُضيفة لم ترَها ولم يرَها أحدٌ على متن السفينة لسببٍ بسيط؛ وهي أنها لم تصعد على متن السفينة! قُتِلَت في العزبة ودُفِنت جُثَّتها أسفلَ المِدفأة في الكوخ القديم، وتابع سير جيمس رحلته بالسيارة إلى دوفر وأعطى أمتعتَه للحمَّال وأخبرَه أن يأخذها إلى المقصورة قبل أن يعود ويترك سيارته في مرآب الفندق. ضُبِط وقتَ وصوله بحيث يصعد إلى متن السفينة بين زِحام المسافرين من قطار السفينة ولم يعرف أحدٌ هل كان بمُفرده أم برفقته أحد؛ ولذا لم يهتمَّ أحد. أعطاه ضابط المُحاسبات المفاتيحَ ووضع أمتعته بالإضافة إلى قُبعة زوجته في المقصورة ودفع للحمَّال أُجرته وطلب منه الانصراف. رسميًّا، السيدة تايذرمايت صعدت على متن السفينة لأنه سلَّم تذكرتها إلى مُحصِّل التذاكر واستلم قسيمة ركوبها السفينة. ثم اكتشف أنها اختفَت. تمَّ البحث في السفينة ولكن بالطبع لم يُعثَر على السيدة التعيسة الحظ. كما أشرتُ من قبل …»

قال المدير بخفةِ ظِل: «تُفكر بعقلية المجرم. استمرَّ يا ريدر.»

«لأنني أتمتَّع بتلك الصفة الغريبة والمُستنكَرة، فطنتُ إلى مدى سهولة مسألة الإيهام بأن السيدة صعدت على متن السفينة، وقلتُ في قرارة نفسي لو ارتُكِبت جريمة القتل، فلا بدَّ أنها ارتُكبت على مسافة بِضْعة أميال قليلةٍ من المنزل. بعد ذلك، أخبرني البنَّاء في المنطقة أنه أعطى سير جيمس درسًا بسيطًا في طريقة خَلْط المِلاط. وأخبرني الحدَّاد أن البوابة كُسِرت ربما بسبب سيارةِ سير جيمس؛ رأيتُ القُضبان المكسورة وكلُّ ما أردتُ معرفته هو متى تمَّ إصلاحها. ومن ثَم بتُّ متأكدًا بأنها مدفونة في الكوخ أسفل المدفأة. بدون أمر التفتيش، بات من المُستحيل إثباتُ نظريتي أو دحضُها، ولا يُمكنني أن أُجرِيَ

تحرياتٍ فرديةً بنفسي بدون المخاطرة بسُمعة إدارتنا — إذا جاز لي أن أقول «إدارتنا».» قالها مُعتذرًا.

غَرِق المدير في التفكير.

«وبالطبع أغريتَ هذا المدعوَّ كول كي يحفر تحت المدفأة بزعم أنك تملك أموالًا مدفونة تحتها. أفترضُ أنك كشَفتَ عن هذه الحقيقة في كَرَّاستك، أليس كذلك؟ ولكن أخبِرني بحق السماء لماذا تخيَّل أن لديك كنزًا مدفونًا؟»

ابتسم السيد جيه جي ريدر أسفًا.

وقال مُتنهدًا: «عقل المجرم غريب. إنه ينسج أوهامًا وقصصًا خُرافية. ولحُسن الحظ أنني أفهم ذلك العقل. كما أقول دائمًا ...»

القصة الثالثة: فرقة العروض المسرحية

ساد الهدوء والسكينة في مكتب النائب العام ممَّا انسجم انسجامًا تامًّا مع ذوق السيد جيه جي ريدر وميوله. فقد كان رجلًا يُحب العملَ في مكتبٍ يسوده الهدوءُ بحيث تُسمَع دقات عقارب الساعة وصوت تقليب الأوراق الخافت.

ذات صباح، طُرِح أمامَه كتالوج مطبوع على الآلة الكاتبة باسم السادة بشركة ويلوبي — وكلاء العقارات البارزون — وأخذ يُقلب في الصفحات مفكرًا. وصل الكتالوج حديثًا، ولم تمرَّ سِوى بضع دقائق حتى وضع الساعي المحفظةَ على مكتبه.

بسَط ورقةً وأعاد قراءة الوصف المُغري لعقارٍ ليس بالأهمية البالغة، ومِن ثَم أصبح تفحُّصه الإعلانَ مَضيعةً للوقت؛ لأنه كُتِب على هامش الورقة باللون الأحمر كلمة «مؤجَّر» مما يعني أن مبنى «ريفرسايد بوور» ليس متاحًا للإيجار. لم يكن الحبر جافًّا؛ ولذا فمن الواضح أن كلمة «مؤجَّر» كُتِبَت هذا الصباح.

قال السيد ريدر: «همممم!»

اهتمَّ بالمسألة لعدة أسباب. في حرارة شهر يوليو، تشهدُ المساكنُ على ضِفَّة النهر ارتفاعًا زائدًا في الأسعار، ومع بداية شهر نوفمبر، تُصبح مثل المُخدِّرات في السوق. وكقاعدةٍ عامة، لا يستأجر الزائرون العابرون للمُحيطِ الأطلسيِّ الأكواخَ على ضفاف النهر في الأشهر التي تتَّسمُ بهطول الأمطار والضباب وسوءِ الطقس.

غُرفَتا استقبال، غرفتا نوم، حمَّام، أَقْبِية جافَّة كبيرة، مَرْج يُطل على النهر، مركب شراعي وقاربُ بنطٍ صغيران. إضاءةٌ بالغاز والكهرباء. سعر الإيجار ثلاثة جنيهات في الأسبوع أو جنيهان في حالة الإيجار لمدة ستة أشهر.

سحَب الهاتف على الطاولة إليه، وطلب رقم الوكلاء.

«مؤجَّر، هل هو ... يا إلهي! لرجل أمريكي؟ ومتى سيُتاح مرةً أخرى؟»

أخذ المُستأجرُ الجديد المنزلَ لمدة شهر. اهتمَّ السيد ريدر أكثرَ وأكثر على الرغم من أن اهتمامه «بالرجل الأمريكي» لم يبلغ درجةَ اهتمام الرجل الأمريكي بالسيد ريدر.

عندما أتى آرت لومر العظيم في رحلة عملٍ من كندا إلى لندن، أخذه صديقٌ ومُعجَب في نزهةٍ لمدة يومٍ واحد لرؤية أهمِّ معالم مدينة لندن.

قال الصديق الذي يُطلَق عليه اسم تشيب واسمُه الحقيقي سبارو: «إنه يخرج بوجهٍ عامٍّ في وقت الغداء.»

نظر السيد لومر في أرجاء مدينة وايتهول مُستخفًّا لأنه رأى العديد من المدن في العالَم التي لا تُشبه إحداها الأُخرى في جمالها.

همس تشيب: «ها هو!» على الرغم من عدم الحاجة إلى الغموض أو الإسرار.

خرج رجلٌ في منتصف العمر من أحد أبواب مبنًى كبير رماديِّ اللون. على رأسه، قبَّعة طويلة ذات تاج مُسطَّح وجسده مُغطًّى بإحكام في مِعطفٍ مشقوق الذيل. رجل بجسدٍ هزيلٍ نوعًا ما، وله شعرات على جانبَي وجهه ذات لون أبيض مائل إلى الأصفر ونظَّارة، والنظارة أقربُ إلى نهاية أنفه من بدايتها.

سأل آرت بذهول: «هو؟»

ردَّ الآخرُ مؤكدًا: «نعم هو.»

«هل هذا هو الشخص الذي تخشاه؟ أنت مجنون. يا إلهي، إنه لا يتحمَّل حتى نزلةَ برد! سأعود الآن إلى منزلي في تورونتو ...»

يفتخر آرت بموطنِه، وبهذه الروح الفخورة بكلِّ ما هو كندي والتي تُلوِّن حتى الملامحَ القبيحة للمرء بأبهى الألوان، كان يتحدَّث حتى عن الشرطة المَلَكية الكَندية بكل خير — تلك القوة التي عادةً ما يحمِل لها أقصى درجات الاشمئزاز داخل الأجواء المحلية.

قام آرت بـ «عمليات» — لم يستخدِم قطُّ أيَّ كلماتٍ أدنى — في تورونتو، والتي أعطَتْه مَيْزاتٍ معيَّنة بسبب قربها من بافالو ومن حدود الولايات المتحدة. سبق له أن نفَّذ «عمليات» في كندا ذاتِها، ولكن الخط الذي سلَكه في تلك الفترة وهو السرقة بالإكراه، وضعه ذات مرةٍ في مواجهة قاضٍ كندي؛ والقاضي في كندا يتمتع بسلطاتٍ غير عادية. حُكِم على آرت بالسجن لمدة خمس سنوات؛ وما زاد الطِّينَ بلَّة، أنه صدر ضدَّه حُكمٌ بالجلْد

خمسًا وعشرين جلدةً بسوطٍ له تسعةُ أذناب، وكل ذنب منها مُؤلِم. بعد ذلك، انقطع عن العنف وكرَّس نفسه لتكوين فرقته، وذاع صيتُ فرقة آرت لومر من المحيط الأطلنطي إلى المحيط الهادئ.

سبق أن كان اسمه آرثر لومر عندما أُنقِذ من عصابة في لندن ومن عالَم الجريمة وأُرسِل إلى كندا؛ فالهيئات الخيريَّة لديها انطباعٌ أن مستوى جرائم الأحداث مُنخفضٌ في كندا. بفضل البراعة الكبيرة والإدارة الحكيمة في تلك المرحلة والمَيل الفطري إلى اكتساب المال بطرُق سهلة، اشترى لنفسه منزلًا من طابقٍ واحد على الجزُر وشقةً في شارع تشيرش وسيارة ذات ستة أسطوانات، واكتسب لَكْنة أهل نيو إنجلاند التي تَلْقى قَبولًا في أي مكانٍ في العالَم باستثناء نيو إنجلاند.

«سأُخبر العالَم بأنكم بحاجةٍ إلى الاستيقاظ يا رفاق! أهذا ريدر؟ لو كانت كندا والولايات المتحدة تعجُّ بالخِراف أمثالِه، لجمعتُ مبلغًا في شهرٍ واحد أكبرَ مما تدفعه هوليوود لشابلن في عشرِ سنوات. نعم يا سيدي. اسمع، هل يرتدي ساعة؟»

اندهَش دليلُه قليلًا.

«هل يرتدي ساعةَ يدٍ؟ بالتأكيد!»

أومأ السيد آرت لومر.

«انتظِر ... سآتيك بها في غضون خمس دقائق ... سأذهب لأُريَك شيئًا.»

ارتكب الرجلُ أكبرَ حماقةٍ في حياته؛ أتى إلى لندن في رحلة عمل وخاطرَ بمليون دولار من أجل استحسانٍ رخيصٍ من شخص لا يكترث لرأيه مثقالَ قِطْمير.

كان السيد ريدر واقفًا على الرصيف بعصبية وينتظر ما يصفُه «بحركة مرور السيارات» كي يعبُر الطريق، حينما اصطدم به رجلٌ غريب.

قال الغريب: «عذرًا يا سيدي.»

همهم السيد ريدر: «لا عليك. ساعتي مُتقدِّمة بخمس دقائق، يُمكنك رؤية الوقت الصحيح في ساعة بيج بن.»

شعر السيد لومر بيدٍ في جيب معطفه، وأصبح كالمُنوَّم مِغناطيسيًّا وهو يرى الساعةَ تعود إلى جيب السيد جيه جي ريدر.

سأل السيد ريدر بمرح: «هل تمكث هنا مدَّةً طويلة؟»

«ها، نعم.»

«إنه وقت جميل من السنة.» خلع السيد ريدر نظارته ومسحها في كمِّه برفقٍ وارتداها بوضعية مُعوجَّة. «ولكن البلد ليس جميلًا مثل كندا في الخريف. كيف حال ليوني؟»

لم يُغْمَ على آرت لومر؛ ولكنه ترنَّح قليلًا وأغلق عينَيه وفتحهما بقوةٍ وكأنه يُحاول الاستيقاظ. ليوني هو صاحب ذاك المطعم الصغير في بافالو الذي اتخذه آرت ورفاقُه قاعدةَ انطلاقٍ لتنفيذ عملياتهم المُربحة.

«ليوني؟ هل تقول، السيد ...»

«والفرقة، هل تُؤدي في إنجلترا أم أنها في فترة راحة؟ أظنُّ أنها في فترة راحة.»

حملق آرت في الآخَر. وظهر على وجه السيد ريدر تعبيرٌ ينمُّ عن الاهتمام والتساؤل. كان الأمر كما لو كانت أخبارُ فرقة العروض المسرحية أمرًا يستحوذ على تفكيره.

بدأ آرت بصوتٍ أجشَّ: «تقول ... اسمع ...»

قبل أن يُلملِم شتاتَ أفكاره، كان ريدر يَعبُر الطريق وينظر بعصبيةٍ يمْنةً ويسْرة، وهو يُمسك مِظلته في يده مُحكِمًا قبضته عليها.

قال السيد لومر: «أظن أنني مجنون.» وعاد بخُطًى بطيئةٍ إلى حيث ترك مُرشده القَلِق.

لم يتخلَّ عن كبريائه وقال باقتضاب: «كلَّا، مشى بعيدًا قبل أن ألمسه. تعالَ معي، سنتناول بعض المأكولات، إنها تقريبًا الثانيةَ عش...»

وضع يده في جيبه، ولكنه لم يجد ساعته! وسُرِقَت كذلك سلسلةُ ألبرت البلاتينية الغالية. يُمكن أن يكون مزاح السيد ريدر ثقيلًا في بعض الأحيان.

سأل مدير النيابة العامة الذي يرأس السيد جيه جي ريدر: «آرت لومر ... هل يُوجَد ما يُدينه؟»

«لا يا سيدي، إنه ليس محلَّ الشكوى. لقد تمكَّنتُ من الحصول على ساعته، ولما رجعتُ إلى مَلفِّي الخاص، وجدتُها مسروقةً في كليفلاند عام ١٩٢١م؛ إنها مُقيَّدة في ملف الشرطة في ذلك التاريخ. فقط ... امممم ... وفي رأيي أنه من اللافت للنظر أن يُوجَد هذا الرجلُ في لندن في نهاية الموسم السياحي.»

زمَّ المدير شفَتَيه مُتشكِّكًا.

«امما، أخبر الناس في سكوتلاند يارد. هذا العمل ليس من اختصاصنا. ما عملُه؟»

«إنه قائدُ فرقة عروضٍ مسرحية؛ أعتقد أن هذا عمله. ارتبط السيد لومر ذات مرة بشركة أعمال مسرحية، في منصب مُتواضع.»

سأل المدير مُتحيرًا: «هل تقصد أنه مُمثِّل؟»

«نعم يا سيدي، منتجٌ وليس مُمثِّل. سمعتُ عن فرقته المسرحية، على الرغم من أنني لم أسعَدْ برؤية عروضهم. مجموعة موهوبة.»

تنهَّد من أعماقه وهزَّ رأسه. ثم قال: «لا أفهمك تمامًا في مسألة فرقة العروض المسرحية. كيف حصلت على ساعته يا ريدر؟»

أومأ السيد ريدر. وقال بصوتٍ مُنخفض: «لم يكن الأمر سوى دعابةٍ من جانبي. مجرد دعابة.»

يعرف المديرُ السيد ريدر معرفةً جيدة جدًّا تمنعه من تتبُّع الموضوع.

كان لومر يعيش في فندق كالفورت في بلومزبري. شغل جَناحًا مُهمًّا، حيث كان في موقع رجل يسعى لاصطياد سمكةٍ كبيرة، ومن ثَم لم يكن ليأبهَ بتكلفة الطُّعم. ابتلعَت السمكة الكبيرة الطُّعمَ بسرعةٍ أكبرَ مما أمَّل آرت لومر. السمكة الكبيرة هي بيرتي كلود ستافن، ووصفُه بالسمكة الكبيرة ليس من فراغ؛ فهو شابٌّ فيه بعض صفات الأسماك مثل العين الباهتة والفمِ الذي لا ينغلق. حَظِيَ والد بيرتي بثروةٍ لا تحلم بها المُمثِّلات. عمل في صناعة الفَخَّار واشترى مَحْلج أقطان واتخذه عملًا إضافيًّا، وجنى أموالًا طائلة ولكنه لم يستأجر سيارةَ أجرة إذا كان بإمكانه ركوبُ الحافلة، ولم يركب الحافلةَ إذا كان بإمكانه المشي. وبتلك الطريقة، حافظ على صحة كبدِه (التي لم ينفكَّ عن الإشارة إليها) ولكنه سرَّع من تدهور حالة قلبه الصحية.

ورث بيرتي كلود من أبيه الوضاعة كما ورث أموالَه التي لم تُترَك للخدَم المُخلِصين ودُور رعاية الأيتام والجمعيات الخيرية من أجل تعزيز الحُب بين الناس، وهذا يعني أن بيرتي ورث كلَّ بنسٍ من أبيه تقريبًا. كان لديه ذقنٌ مُنحسِر وجبهةٌ مائلة تنمُّ عن عقل غيرِ ناضج، ولكنه يعلم أن الشلن يتكوَّن من اثنَي عشر بنسًا، وأن مائة سنتٍ تُساوي دولارًا واحدًا، وهذه المعلومات أكثرُ مما يكتسبها أبناءُ المليونيرات الوحيدون عادةً.

تحلَّى السيد ستافن بصفة لا يشكُّ فيها سوى القَليلين؛ ألا وهي هِبَة الأحلام الرومانسية. في الوقت الذي لم ينشغِل فيه السيد ستافن بخفضِ النفقات العامة أو تسريع الإنتاج، يُحب أن يجلس في هدوءٍ ويضع السيجارة بين شفتَيه ويُغلق عينَيه قليلًا ويتخيَّل نفسه في مواقفَ بطولية. وبذلك، يمكن أن يتخيَّل أنه قُدِّر له العثور على كهوفٍ مُظلمة مليئة بالصناديق المُغبرة المُمتلئة بالكنوز؛ أو يرى نفسه في كازينو دوفيل وأمامه أكوامٌ هائلة من الأوراق النقدية التي ربحها من الأثرياء اليونانيين أو الأرمن أو أي شخصٍ فاحش

الثراء في الحقيقة. دارت معظم أحلامه حول الأموال بمبالغَ طائلةٍ من أجل تسديد رسوم نقل المِلكية على ممتلكات والده التي انتزعها منه المُحصِّلون ظلمًا. كان فاحشَ الثراء، ولكن ينبغي أن تَزيد ثروته؛ هكذا كانت نظرته.

عندما وصل بيرتي كلود إلى فندق كالفورد واصطُحِب إلى غرفة الاستقبال الخاصة بآرت، دخل إلى عالم الرومانسية المُسكِرة. تحتوي الغرفةُ على طاولة كبيرة في المنتصف مُغطَّاة بعيِّنات من الكوارتز من جميع درجات النَّقاء، وانتُشِلت هذه العيِّنات من منجمٍ اكتُشِف حديثًا على يد شقيق آرت غيرِ الحقيقي، ويقعُ هذا المنجمُ في مكانٍ لا يعرفه سوى رجُلَين؛ أحدهما هو آرت لومر والآخَر هو بيرتي كلود ستافن.

خلَع السيد ستافن معطفه الخفيف ومشى إلى الطاولة وفحص الكوارتز الخام باهتمامٍ بالغ.

قال: «لديَّ نتيجة الفحص. الرجل الذي أجرى الفحص صديقٌ لي ولم يأخُذ منِّي بنسًا واحدًا، وتقريره مُبشِّر ... إنه مُبشر للغاية.»

استهلَّ آرت قائلًا: «الشركة ...» ولكن السيد ستافن رفع إصبعه مُحذِّرًا.

«أعتقد أنك تعرف ولستَ بحاجةٍ إلى أن أُذكِّرك بأنني لن أُضارب بدولارٍ واحد في هذا المنجم. لن أدفع أيَّ أموال. ما سأفعله هو استغلال نفوذي للترويج للصفقة. هل تعرف ما أعني؟»

قال آرت: «شيء مقابل لا شيء!» وفي هذا الموقف لم يكن مخطئًا تمامًا.

«حسنًا، لن أدفعَ أموالًا في الشركة. ربما أتولَّى الإدارة في وقتٍ لاحق، عندما يتمُّ تحصيل الأموال وتسير الأمور بسلاسة. لن أُغامر باسمي من أجل ... قدرٍ مجهول.»

وافق آرت.

وقال بارتياح: «وفَّر صديقي المال. لو امتلك هذا الرجل مائةَ دولارٍ أخرى، فسيُصبح لديه كلُّ المال في العالَم، إنه فاحشُ الثراء. من المنطقيِّ يا سيد ستافن أنني لن آتيَ إلى هنا وأحاولَ الحصولَ على الأموال من رجلٍ غريب ولا أعرفه البتَّة. لقد تقابَلنا في كندا؛ تقابلنا بالفعل! ولكن ما الذي تعرفه عني؟ ربما أكون محتالًا كبيرًا، ربما أكون نصَّابًا أو أي شيء!»

خطرت فكرةٌ من هذا القَبيل في عقل بيرتي كلود، ولكن صراحة صديقه بدَّدَت قدرًا من شكوكه.

تابع آرت وهو يُدخِّن سيجاره مُتأمِّلًا: «تساءلتُ كثيرًا ما الفكرة التي أخذتها عني وأنا أجلس بين تلك المجموعة من اللصوص. ولكن أُخمِّن أنك قلتَ لنفسك «هذا الرجل لديه خبرة حياتية ضخمة ويجب إشراكه.» وهذا صحيح. في معسكرات المناجم في كندا، اعلَم أنك تُزاحِم أناسًا شرِسين في السوق، نعم يا سيدي. إنهم لا يعرفون الرحمة.»

على الرغم من أن بيرتي كلود لم يفهم الوضع، فإنه قال: «فهمتُ الوضعَ جيدًا. أنا متأكد من أنني أعرف الرجال. ولو لم يظهر ما جاء في كتاب «أنا إنسان» في تصرفاتي، فاعتبر أني فَشِلت في التعبير.»

قال السيد لومر مُتكاسلًا: «بالتأكيد!» ثم أضاف: «بالتأكيد!» كي يُشدِّد على الأُولى. «إنه كتابٌ جيد تمامًا. عندما أعطيتَني إيَّاه في فندق كينج إدوارد، ظننتُ أنه يتحدَّث عن الحساب. ولكن هذا شِعر رصين، يبدأ كلُّ سطرٍ بحرفٍ كبير وينتهي كلُّ سطرٍ بكلمة لها إيقاعُ السطرِ السابقِ نفسُه. قلتُ لسكرتيري: «لا بدَّ أن السيد ستافن رجل حادُّ الذكاء.» كيفية حصولك على هذه الأفكار تُذهلني. تلك الحكاية عن الأميرة التي خرجت من ...»

سارع بيرتي للتوضيح: «محَّارة، كانت تُجسِّد اللؤلؤة. هل تعني حكاية «العذراء البيضاء»؟»

أومأ لومر مُتكاسلًا.

«كانت رائعة. لم أقرأ الشعر مُطلقًا حتى قرأتُ هذا الشعر؛ وجعلني أشعرُ بالرغبة في البكاء وكأني أحمق كبير! ولو كانت لديَّ مواهبك، لما تجوَّلتُ في أونتاريو مُنقبًا. كلَّا يا سيدي.»

قال السيد ستافن بعد تفكير: «إنها موهبة. قلتَ إنَّ لديك المالَ من أجل الشركة، أليس كذلك؟»

«أملك كلَّ سنت. لستُ في وضع يجعلني أُقدِّم لك أي سهمٍ في الشركة ... هذه حقيقة. هذا لا يعني أن عليك أن تقلق بشأن ذلك. احتفظت ببعض الأموال من الإعلانات. كلَّا يا سيدي، لم أنوِ أن أجعلَك تدفع سِنْتًا واحدًا.»

نفَضَ الرَّماد من سيجارِه وقطَّب جبينه.

قال ببطء: «تعاملتَ معي بلُطف بالغ يا سيد ستافن، وعلى الرغم من أنني لستُ مُضطرًّا إلى إخبار كلِّ من أقابله عن أعمالي، فإنك شخصٌ نقيٌّ للغاية ومن ثَم أشعر بالثقة تجاهك. وهذا المنجم لا يعني شيئًا.»

رفع بيرتي كلود حاجبَيه.

قال: «لا أفهم قصدك تمامًا.»

ارتسمَتِ ابتسامةٌ مُتثاقلة وحزينة نوعًا ما على شفَتَي آرت.

«ألا يخطر ببالك أنني لو أمتلك رأس المال لهذا المشروع، فسيكون من الحماقة أن أقوم برحلة إلى أوروبا؟»

لا شك أن بيرتي تساءل عن سبب زيارته.

«بيعُ هذا المنجم أشبهُ ببيع سبائكَ من الذهب. لا يستدعي الأمر أيَّ إجراء؛ ربما تمكنتُ من بيعه لو كنتُ أعيش في غابة أماجاني. كلَّا يا سيدي، أنا هنا في عملٍ قد يجعل شعر رأسك يقفُ لو علمتَ ما هو.»

نهض فجأةً وذرَع الغرفة ذَهابًا وإيابًا والقلقُ بادٍ عليه وقطَّب حاجبَيه مُفكرًا.

قال فجأة: «أنت شاعر كبير. ربما يكون خيالك أوسعَ من الآخرين. ما الذي يعنيه المَنجمُ لي؟ حفْنة من مئات الآلاف من الدولارات أرباحًا.» هزَّ كتفَيه ثم استطرد: «ما الذي ستفعله يوم الأربعاء؟»

فوجئ بيرتي كلود من السؤال غير المُتوقَّع.

«في يوم الأربعاء؟ حسنًا، على حدِّ علمي، ليس هناك ما أفعله.»

عضَّ السيد لومر على شفتيه مُفكرًا.

«لديَّ منزل على ضفَّة النهر. تعالَ لزيارتي واقضِ تلك الليلةَ معي، وسأُعرِّفك سرًّا لن تتردَّد الجرائد في دفع مليون دولار كي تعرفه. ولو قرأته في كتاب، فما أنت بمُصدِّقه. ربما تكتب عنه يومًا ما. تحتاج صياغة هذه الحكاية إلى رجلٍ يتمتَّع بمثل خيالِك الخِصْب. انتظر، سأُخبرك به الآن.»

وبعد ذلك، سرد السيد لومر حكايته مُترددًا بعضَ الشيء.

«لا أعرف شيئًا عن السياسة وكلِّ ما يتعلق بها. تفجَّرَت ثورةٌ كبيرة في روسيا وحدثَت فيها أشياءُ غريبة. لستُ غبيًّا كي لا أعرف هذا. اهتمامي بروسيا حينَذاك لا يقلُّ عن اهتمامك ببيكتاون التابعة لمدينة ساسكاتشوان. ولكن منذ ستة أشهر، تواصَلْتُ مع رجلَين من روسيا. خرَجا من الولايات المتحدة في عجَلةٍ من أمرهما وكانت قواتُ الشرطة تُلاحِقهما، وصادفَ أنني كنتُ أمكث في مزرعةٍ بالقُرب من الحدود عندما وصَلا. ما الذي فعلاه في رأيك؟»

هزَّ السيد ستافن رأسه.

قال الآخر بهدوء ورَصانة: «يتجولان لبيع الزمرُّد.»

«الزمرُّد؟ يتجوَّلان لبيعه؟ ما معنى كلامك؛ يُحاولان بيع الزمرُّد؟»

أومأ آرت برأسه.

«نعم يا سيدي. يحمل أحدُهما حقيبةً ورقية مليئة بالزمرُّد، من جميع الأحجام. اشتريتُ الكثير مقابل اثنَي عشر ألف دولار وأخذتُها إلى تورنتو وبلغَت قيمتها هناك مبلغًا يقل عن مليون دولار بقليل.»

جلس بيرتي كلود يستمعُ فاغرًا فاه.

«أتى هذان الرجلان من موسكو. كانا يتجوَّلان ويبيعان المجوهرات منذ أربعة أعوام. أحدهما أمير مُتدهوِر الحال يعمل وكيلًا لأشخاصٍ مُهمِّين آخَرين، لم أُحاول التقصِّيَ عن الأمر لأنني بطبيعة الحال لستُ فُضوليًّا.»

انحنى إلى الأمام وربتَ على رُكبةِ الآخر للتأكيد على ما تفوَّه به.

«لم يبلغ الجزءُ الذي اشتريتُه واحدًا على عشرين من المخزون الذي لديهما. أرسلتهما مرةً أخرى إلى روسيا للحصول على باقي الكمية وسيصِلان إلى هنا الأسبوعَ المُقبل.»

قال بيرتي كلود لاهثًا: «عشرون مليون دولار! كم سيُكلفك الأمر؟»

«مليونَ دولار ومائتَي ألفِ جنيه. تعالَ إلى منزلي في مارلو وسأُريك أكبرَ زُمُرد في حياتك؛ كل ما تبقَّى لديَّ في حقيقة الأمر. بِعتُ أكبر جزءٍ إلى مليونير من بيتسبرج مقابل ... حسنًا، لن أقول لك السعر لأنك ستعتقد أنني سرقته! وإذا أعجبَتك أيُّ زمردة تراها ... حسنًا، سأبيعها لك، على الرغم من أنني لا أُريد أن أبيع. بطبيعة الحال، لا يُمكنني وضع هامش ربحٍ على صديق.»

استمع بيرتي كلود مشدوهًا وقتَ أن كان مُضيفه يسرد كنوزه ببساطةٍ وذكاء. لمَّا غادر السيد ستافن غرفة صديقه، كان رأسه يدور، على الرغم من أنه تَملَّكه شعورٌ مُربك بأُلفة الموقف الذي طالما عاشه في أحلامه.

وبينما كان يسير في القاعة، رأى رجلًا في منتصف العمر يرتدي قبَّعةً لها تاجٌ مُسطح، ولكن بعيدًا عن ربطة عُنقه الجاهزة، وعن حذائه المُربَّع من عند الأصابع وعن مظهره الذي يُوحي بأنه موظَّف لدى مُحضر المحكمة، كان بيرتي كلود سيمرُّ به دون أن يُلاحظه، لولا أن الرجل العتيق الطراز وقفَ في طريقه.

«عذرًا يا سيدي، أنت السيد ستافن، أليس كذلك؟»

قال بيرتي باختصار: «نعم.»

«هلا منَحْتني بِضع دقائقَ من وقتك للتحدُّث في مسألةٍ لبعض الوقت؟»

لوَّح بيرتي بيده إشارةً على نفاد صبره.

وقال بأسلوب فظ: «ليس لديَّ الوقت كي أرى أحدًا. وإذا كنتَ تُريد موعدًا، فمن الأفضل أن تُقدِّم طلبًا مكتوبًا.»

وخرج بيرتي وترك الرجل ذا المظهر الحزين يُحملِق مفكرًا فيه.

كان منزل السيد لومر عبارةً عن منزلٍ حجَري صغير ذي طابقٍ واحد يقع بين مارلو وكواري وود، ولو جدَّ السيد لومر في البحث عن منزل، فلن يجد منزلًا يُناسِب أغراضه مثل هذا المنزل. يربط بيرتي كلود النهر بأشعَّة الشمس ووقت الاستجمام بالملابس المُريحة، ومن ثَم ارتعش لَمَّا خرج من محطة السكة الحديد، ونظر قَلِقًا إلى السماء المُلبَّدة بالغيوم. كان المطر يهطل وزخَّات المطر تتساقط من فوق كلِّ جزء من سيارة الأجرة التي تنتظره خارج المحطة.

قال مُتذمِّرًا: «إنه شهر ذو طقس سيِّئ وليس مناسبًا لأخذِ منزلٍ على النهر.»

وافقَه السيد لومر الذي لم يكن مُتأكدًا في عقله من الشهر المثاليِّ لاستئجار منزلٍ على النهر.

وقال: «إنه يُناسِبني. يُوفر هذا المنزلُ العزلةَ التي تُناسبني. أكره أن يتطفَّل عليَّ الآخَرون.»

يسير الطريق من المحطة إلى المنزل مُوازيًا للنهر. نظر السيد ستافن من النوافذ التي تتدفَّق عليها مياه الأمطار ولم يرَ سوى المياه الرمادية والحشائش الرطبة في المروج التي يسير فيها الطريق. ولكن بعد السير بالسيارة لمدة ربع ساعة، وصلا إلى كوخٍ صغير جميل مُقام على حديقة زاخرة بالزهور. اشتعلَت النيران في مدفأة الصالة وساد جوٌّ من الراحة والهدوء في أرجاء المكان ممَّا أنعش معنويات بيرتي المُنخفضةَ. بعد بضع ثوانٍ، جلسا في غرفة طعام نِصفُها مُبطَّن بالخشب، حيث قُدِّمَ الشاي.

الجو العام له جاذبيةٌ غير مفهومة لدى معظم الناس، ومن ثَم وجَد بيرتي نفسه مُعجبًا بالدفء الذي يسود المكانَ والخدمةِ غير المُتوقَّعة؛ حيث كانت هناك خادمةٌ جميلة في الانتظار، وكبيرُ خدَمٍ هادئٌ في منتصف العمر، وشابٌّ بَشُوش الوجه يرتدي ملابسَ الخادم، وأخذ الشابُّ معطفَ بيرتي المُبتلَّ وجفَّف حذاءه قبل أن يدخُل إلى غرفة الطعام.

قال السيد لومر الذي لم يكن يكذِب أية كذبةٍ صغيرة غير ضرورية مُطلقًا؛ لأنه يسهل كشف الكذبة الصغيرة: «لا، المنزل ليس ملكي: ولكني أستأجِره وقتما أكون في لندن. وجينكينز — كبير الخدم — رَجُلي وكذلك الخادمة؛ أما الآخرون فاستأجرتُهم مع المنزل.»

بعد تناوُل الشاي، اصطحب بيرتي إلى غرفة نومه وفتح دُرجًا داخل دولابه وأخرج صندوقًا فولاذيًّا صغيرًا مُقفلًا بقفلَين. فتح القفلَين ورفع صينيَّةً معدنية مُسطَّحة مغطَّاة بطبقةٍ من الصوف القطني.

قال: «يُمكنك أخذ أيٍّ من هذه الأحجار التي تأسِر عينك. قدِّم عرضًا وسأُخبرك بقيمتها.»

أزاح طبقة الصوف القُطني وكشف عن ستَّة أحجارٍ كريمة رائعة.

أخرج السيد لومر أكبرَ حجرٍ بين إصبعَي السبَّابة والإبهام وقال: «ماذا تقول في هذا؟ إنه يُساوي ستة آلاف دولار، أي: ألفًا ومائتَي جُنيهٍ تقريبًا. ولو عرَضتَ عليَّ هذا المبلغ مقابِلَه، فسأظن أنك مُغفل لأنَّ الطريقة الآمنة الوحيدة للحصول على أحجار الزمرُّد هي شراؤها بخمسين في المائة أقلَّ من قيمتها. أظن أن هذا الحجر كلَّفني نحوَ — وأجرى عملية حسابية في عقله — تِسْعين جنيهًا.»

لمعَت عينا بيرتي. إنه يتمتَّع بخبرةٍ معقولة في أحجار الزمُرُّد ويعلم أنَّ هذه الأحجار أصلية.

سأل من دونِ اكتراث: «ألا تُريد أن تبيعَها مقابل تسعين جنيهًا؟»

هزَّ آرت لومر رأسه.

«كلَّا يا سيدي. عليَّ أن أجنيَ بعض الأرباح حتى من أصدقائي! سأبيعها لك مقابلَ مائة جنيه.»

أدخل بيرتي يده داخل جيبه.

«كلَّا، لا أريد الدفع الآن. على أية حال، ما الذي تعرفه عن أحجار الزمرُّد؟ ربما كانت مُزيفة بمهارة. خُذها إلى المدينة واعرِضْها على خبير ...»

«سأُعطيك الشيك الآن.»

«في أي وقتٍ يُناسبك.»

لفَّ آرت الحجَر بحرصٍ ووضَعه في صندوقٍ صغير وسلَّمَه لرفيقه.

في طريق عودتهما إلى غرفة الطعام، شرح قائلًا: «لن أبيع غيرَ هذا الحجر.»

ذهب بيرتي إلى المكتب الصغير وكتب الشيك وقطعَه من الدفتر وسلَّمه إلى السيد لومر. ونظر آرت إلى الورقة وعبَس.

سأل: «عجبًا، ما الذي أفعله بهذا؟ ليس لديَّ حسابٌ في بنكٍ هنا. جميعُ أموالي في شركة أسوشييتد إكسبريس.»

قال بيرتي مُتفضِّلًا: «سأكتبه «الدفع لحامله».»

لا تزال الشكوك تُساور السيد لومر.

«أرجو أن تكتب رسالةً تُخبر الرئيس أو أيًّا مَن كان أن يصرف لي هذه الورقة الصغيرة. أنا أكره البنوك على أيَّةِ حال.»

كتب بيرتي كلود اللطيفُ الرسالةَ المطلوبة. عندما انتهى من الكتابة، انتقل إلى الحديث عن العمل لأنه رجلٌ عمَلي. «هل يُمكنني المشاركة في صفقة المجوهرات هذه؟»

هز آرت لومر رأسه مُترددًا وقال: «اعذُرني يا سيد ستافن، ولكن هذا مُستحيل تقريبًا. سأكون صريحًا معك لأقصى درجةٍ لأنني أُحب المعاملات الواضحة. عندما تدخل في تلك الصفقة، فأنت تطلُب منِّي أموالًا!»

أصدر بيرتي صوتًا خافتًا إشارةً على الاحتجاج.

«حسنًا، هذا أسلوبٌ وضيع لقول ذلك، ولكن المسألة مُتعلِّقة بموضوع الأموال ذاته. أنا مَن تحمَّلتُ المخاطرة. وكذلك نظمتُ تلك العملية وتكبَّدت أموالًا لإخراج هذا الرجل من روسيا؛ تذاكر الطيران والقطارات الخاصة وكل شيء. لا أحِبُّ أن أرفض طلبك لأنني أُحبك يا سيد ستافن. ربما إذا وقَعَت في يدي أيُّ قطعةٍ يُحتمَل أن تودَّ اقتناءها، فسأُعطيها لك بسعر معقول.»

فكَّر بيرتي لمدةِ دقيقة، وراح عقلُه يعمل.

سأل: «ما التكلفة التي تكبَّدتَها في تلك الصفقة حتى الآن؟»

هزَّ السيد لومر رأسه مرةً أخرى. «لا يُهم ما التكلفة التي تكبدتُها؛ لو عرضتَ عليَّ أربعة أضعافِ الأموال التي أنفقتُها في تلك الصفقة، وهذا مبلغٌ كبير، فلن أُشرِكَك فيها. يُمكنني المخاطرة وأمنحك فائدةً صغيرة، ولكني لن آخُذَ الأموال مقابل ذلك.»

لم يفقد بيرتي الأمل، ومن ثَم قال: «سنتحدَّث في تلك المسألة لاحقًا.»

توقَّف المطرُ وتساقطَت أشعَّة الشمس الذهبيةُ الباهتة فوق النهر، وبينما بيرتي يتمشَّى مع مُضيفه في الحديقة، سمع صوتًا خافتًا صادرًا من مُحرِّك طائرةٍ تمرُّ من فوقهما. والآن، يرى الطائرة تدور وتختفي خلف القمة السوداء لكواري وود. سمع الرجل الذي بجانبه يتعجَّب ولما استدار، رأى وجهَ آرت مُقطبًا إشارةً على الانزعاج والشك.

سأل: «ما الأمر؟»

قال آرت مُتثاقلًا: «إنني أتعجَّب. قالوا لي الأسبوعَ المقبل ... أوه، كلَّا، أنا أحمق.»

حلَّ الظلام. وأضاء كبيرُ الخدم الأنوارَ وأغلق الستائرَ عندما دخَلا المنزل مرةً أخرى، ولم يصعُب على بيرتي إدراكُ أن شيئًا حدث أزعجَ مُضيفه إزعاجًا شديدًا. لم يتحدَّث كثيرًا، وفي نصف الساعة التالي، كان مُتحفظًا وهو يجلس أمام النيران يُحملق في ألْسِنة اللهَب المُتصاعدة ويجفل لدى سماع أيِّ صوت.

كان العَشاء خفيفًا وقُدِّم في وقتٍ مُبكر، وبينما كان الخدم يرفعون الطعام، دخل الرجلان إلى غرفة الصالون الصغيرة.

«ما المشكلة يا لومر؟»

قال الآخَرُ مُنزعجًا: «لا شيء، فقط ...»

في تلك اللحظة، سَمِعا رنينَ الجرس، وتوتَّر آرت عندما سمعه. سمع أصوات المجادلات في الصالة ثم أتى الخادم.

قال: «يُوجَد رجلان وسيدة يُريدون رؤيتك يا سيدي.»

رأى بيرتي الآخر يعَضُّ على شفتَيه.

قال آرت بأسلوبٍ فظ: «أدخلهم.» بعد ثانية، دخَل إلى الغرفة رجلٌ طويل يرتدي معطفًا جلديًّا وخوذة طيار.

«مارشام! ماذا بحقِّ الجحيم ...؟»

الفتاة التي تبعَته أسرَت انتباه بيرتي كلود على الفور. كانت الفتاة مَمشوقةَ القوام سمراءَ البشرة جميلةَ الوجه، على الرغم من امتقاع وجنتَيها والتعب الظاهر في عينَيها. أما الرجل الثاني فلم تكن له نفس الجاذبية: كان قصيرًا ويحمل ملامحَ أجنبية وله لحيةٌ قصيرة ويرتدي معطفًا قديمًا من الفرو يلفُّ به جسمه كلَّه حتى رقبته، ولا يرتدي شيئًا على رأسه ذي المظهر الشاذ.

أغلق آرت الباب.

سأل: «ما الدافع وراءَ هذه الزيارة؟»

قال الرجل الطويل بوجهٍ عابس: «وقعَت مشكلة. أتى للأمير عرضٌ آخَر. أرسل بعض البضاعة، ولكنه لن يُعطيَك اللؤلؤَ أو الماس حتى تدفعَ له نصف المبلغ الذي وعَدتَ به. هذه الأميرة بولين ديميتروف، ابنة الأمير.»

رمَق آرت الفتاةَ بنظرةٍ غاضبة.

قال: «انظري هنا أيتها الشابة، أظنُّ أنكِ تتحدَّثين الإنجليزية، أليس كذلك؟»

أومأت الفتاة.

«هذه ليست طريقةَ إتمام الأعمال في بلدنا. أبوك وعَدَ ...»

قالت: «تعجَّل أبي كثيرًا. وخاض مُخاطرة كبيرة. في الحقيقة، لستُ متأكدة من مدى صِدقه في تلك المسألة. المسألة بسيطة للغاية، ادفع ما وعدتَ به. إذا دفعتَ أموالك الليلة ...» كان حديثها بأقلِّ قدْر من اللكنة الأجنبية، مما استطرب أُذن بيرتي.

انفجر آرت: «الليلة؟ كيف يُمكنني الحصول على الأموال من أجله الليلة؟»

قالت الفتاة: «إنه في هولندا. والطائرة في انتظارنا.»

كرَّر الكَندي غاضبًا: «ولكن كيف يُمكنني الحصول على المال الليلة؟ هل تظنُّون أني أحمل مائة ألف جنيه في جيبي الذي أحمل فيه مُسدَّسي؟»

هزَّت كتفَيها مرة أخرى، واستدارت إلى الرجل القصير الأشعث، وقالت له شيئًا بلُغة لا يفهمها السيد ستافن. ردَّ بصوتٍ أجش، ثم أومأت الفتاة.

«يقول بيتر إن أبي سيقبَل شيكًا منك. إنه يريد فقط التأكُّد من أنه لا يُوجَد ...» ثم توقفَت للبحث في رأسها عن كلمة بالإنجليزية.

سأل آرت بأسلوبٍ فظ: «هل خدَعْتِ والدك من قبل؟ لا يُمكنني أن أُعطيَك الأموال ولا الشيك. يُمكنك إلغاء الصفقة، هذا آخر كلام عندي!»

في ذلك الوقت، كان الطيار قد فتح العبوة التي يحملها تحت إبْطِه ووضعها على الطاولة، فذُهِل بيرتي كلود من مرأى الأحجار الكريمة تتلألأ أمام عينيه. كانت هناك ماسات مصقولة وغير مصقولة، وقطع مجوهرات قديمة وفاتنة لا بدَّ أنها من موروثات العائلات القديمة؛ ولكن لم يخطر بباله قيمتُها التاريخية في ذلك الوقت. أشار إلى آرت أن يأخذا جنبًا.

قال بصوتٍ منخفض: «إذا استطعتَ أن تُبقيَ على هؤلاء هنا الليلة، فسأتعهَّد بجمع الأموال التي تُريدها في هذه الصفقة وحدي.»

هزَّ آرت رأسه.

وقال: «لا فائدة من ذلك يا سيد ستافن. أنا أعرف هذا الرجل. إذا لم أُرسِل له الأموال الليلة، فلن نَشَمَّ رائحة تلك البضاعة.»

صفَّق بيدَيه فجأة.

تنفس قائلًا: «نعم! يا لها من فكرة رائعة! أنت لديك دفتر شيكاتك.»

لمع شكٌّ مُريب في عينَي بيرتي كلود.

قال: «بالتأكيد معي دفتر الشيكات، ولكن ...»

«تعالَ إلى غرفة الطعام.» كاد آرت أن يسبقه، وعندما دخلا إلى الغرفة أغلقَ الباب. قال وهو يتحدَّث بسرعة: «لا يُمكن تقديم الشيك لمدة يومَين أو ثلاثة. بالتأكيد لن يُقدِّمه غدًا. بحلول ذلك الوقت، يُمكننا توصيل هذه البضاعة إلى المدينة لحفظِها لدى البنك؛ ومِن ثَم يُمكنك الاحتفاظ بها حتى أستردَّها. إضافة إلى ذلك، يُمكنك إيقافُ صرف الشيك صباحَ الغد إذا لم تكن الأحجار تستحقُّ الأموال.»

نظر بيرتي إلى المسألة من عدة زوايا مختلفة في بضعِ ثوانٍ.

قال: «أليس من الأفضل أن نُعطيَهم شيكًا بتاريخ مؤجَّل؟»

«بتاريخ مؤجَّل؟» تحيَّر السيد لومر. «ما الذي يعنيه ذلك؟» لمَّا شرح بيرتي، أشرق وجهه. قال: «ولِمَ لا؟ بالتأكيد! هذه وسيلة حماية مزدوجة. اكتب تاريخ استحقاقه بتاريخ بعد غد.»

لم يتردَّد بيرتي أكثرَ من ذلك. جلس على الطاولة وأخرج دفتر الشيكات وقلَم حبر، وتحقَّق من التاريخ.

عندما توقَّف عن الكتابة، اقترح آرت: «اكتبه «لحامله» مثل الشيك الآخَر.»

أومأ بيرتي وأضاف توقيعه المُميز برسم خطٍّ تحته.

«انتظر لحظة.»

خرج آرت من الغرفة وعاد في غضون دقيقة.

قال مُبتهجًا: «لقد أخَذوه!» ربَّت على كتف الشاب المُبتهِج: «يا رجل، لم أرضَ أن تدخل في تلك الصفقة في البداية، ولكنك شريكٌ فيها الآن. سنتقاسَم الأرباح مُناصَفة، أنا لستُ طماعًا. تعالَ معي، سأُريك شيئًا آخر ما كان في خاطري أن أُريَه لأيِّ شخص.»

خرج إلى المَمرِّ وفتح بابًا صغيرًا يؤدي إلى سُلَّمٍ حجري ينزل إلى القَبْو، وأضاء المصباح وهو ينزل على الدرَج. فتح قفل الباب الثقيل وفتح الباب.

وقال: «انظر هنا، هل رأيتَ شيئًا كهذا في حياتك؟»

حملق بيرتي كلود في الظلام داخل القبو.

استهلَّ قائلًا: «أنا لا أرى …» وعندها دُفِع بعنف إلى الظلام حتى إنه تعثَّر وسقط أرضًا.

أُغلِق عليه الباب في ثوانٍ وسمِع طقطقةَ القفل وصرخ قائلًا: «يا هذا، ما الذي يحدث!»

قال السيد لومر ساخرًا: «يا هذا، ستعرِف في غضون يومٍ أو يومَين.»

أغلق آرت الباب الثانيَ وصعد السُّلَّم بخفة، وانضمَّ إلى الخادم وكبيرِ الخدم والخادمة الجميلة والزائرين الثلاثة في غرفة الصالون.

«إنه بالداخل الآن. وسيظل هنا حتى يأتيَ ميعاد صرفِ الشيك ... لديه طعام وشراب في القبو يكفيه لمدة أسبوع.»

سأل الروسيُّ ذو اللحية: «هل أقنعتَه؟»

قال الآخر بازدراء: «أقنعتُه! كان ساذَجًا. والآن، عليكم الهروب بسرعة الآن أيها الشباب والفتيات! حصلتُ على خطابٍ من هذا الرجل إلى مدير البنك يُخبره ...» ونظر في الخطاب وقرأ: «صرف الشيك المُرفَق لصديقي السيد آرثر لومر.»

بدأ الحديث بين أفراد فرقة العروض المسرحية إشارةً على الموافقة.

«عادت الطائرة، أليس كذلك؟»

أومأ الرجلُ الذي يرتدي المعطفَ الجلدي.

قال: «نعم، استأجرتُها للمساء فقط.»

«حسنًا، يُمكنك العودة أيضًا. راي وآل، ارجعا إلى باريس وخُذا قاربَ سي بي من هافر. سليكي، تخلَّص من تلك الشعيرات وغادر ليفربول مُستقيمًا. ستُسافر بولين وأجي إلى جنوة، وسنتقابل في ليوني في الرابع عشر من الشهر القادم ونُقسِّم البضاعة بيننا!»

بعد يومين، ذهب السيد آرت لومر إلى مكاتب البنك الشمالي التجاري الأنيقة وطلب مقابلةً مع المدير. قرأ المديرُ الخطاب وتفحَّص الشيك ثم ضربَ الجرس.

قال السيد لومر بصوتٍ مندهش تقريبًا: «إنه مبلغ كبير للغاية.»

ابتسَم المدير. وقال: «إننا نصرف شيكاتٍ كبيرةً للغاية هنا.» ثم قال للمُوظَّف الذي أتى بِناءً على إشارة منه: «يودُّ السيد لومر أكبر قدْر ممكن من هذا المبلغ بالعملة الأمريكية. كيف هو حال السيد ستافن؟»

قال لومر: «أوه، سافرتُ أنا وبيرتي إلى باريس بخصوص شركتي الخاصة تلك. يا إلهي! يصعب تمويل الصناعات الكندية في هذا البلد يا سيد سومز، ولكننا عقَدْنا صفقة رائعةً للغاية في باريس.»

تحدَّث في موضوعات تِجارية بحتة حتى عاد الموظف ووضع كومةً من الأوراق التجارية والأوراق النقدية على الطاولة. أخرج السيد لومر محفظةً ووضع فيها الأموال جيدًا، وتصافح مع المدير وخرج إلى المكتب العام. ثم توقَّف لأن السيد جيه جي ريدر كان يعترِض طريقه مباشرة.

«يوم الدفع للفرقة يا سيد لومر، أم نُسمِّيها «الخزينة»؟ حصيلتي اللُّغوية المسرحية ضعيفة نوعًا ما.»

تلعثَم آرت: «السيد ريدر؛ سعدتُ برؤيتك، ولكنني مشغول الآن …»

سأل ريدر مُتلهفًا: «ما الذي تظنُّ أنه حدث لصديقنا العزيز السيد بيرتي كلود ستافن؟»

«حسنًا، إنه في باريس.»

همهم ريدر: «هل لَحِق أن يصل إلى هناك! أخرجَته الشرطة من قبو منزلِك في الضاحية منذ ساعة! ما أروعَ الأنظمة الحديثة في النقل والمواصلات! مارلو في دقيقة، وباريس الدقيقة التالية، وموسكو، لِنَقُل إنها التالية.»

لم يتردَّد آرت بعد ذلك. دفع المُحقِّقَ جانبًا واندفع وتجاوزه وأسرع إلى الباب. كان في حالةِ هياج شديدة لدرجة أن الرجُلَين اللذَين كانا في انتظاره واجَها صعوبةً بالِغة في وضع الأصفاد في مِعصَمَيه.

قال السيد ريدر لرئيسه: «نعم يا سيدي، دائمًا ما يُسافر آرت مع فرقته. أثار اختفاءُ الفرقة شكوكًا كبيرةً بداخلي وبالطبع وضعتُ المنزلَ تحت المراقبة منذ اختفاء السيد ستافن.» قال مُعتذرًا: «بالطبع هذا ليس من عملي وفي الحقيقة ما كان لي أن أتدخَّل. لكن كما شرحتُ لك سابقًا، المسألة تتعلَّق بعقلي الغريب …»

القصة الرابعة: سارقة الرخام

السبب الأساسي الذي جعل مارجريت بيلمان مَحطَّ انتباهِ السيد ريدر هو أنها تعيش في شارع بروكلي، ويفصلها عن مسكنه الخاصِّ بِضعةُ منازل. لم يكن يعرف اسمَها لأنه لا يَشغَل باله على الإطلاق بالمُلتزِمين بالقانون، ولكنه يعرف أنها جميلةٌ ذاتُ بشرةٍ بيضاءَ متورِّدة، تلك البشرة التي نادرًا ما تُرى بعيدًا عن أغلفة المجلَّات. إنها مُتأنِّقة في ملبسها، ولو كان هناك ما يَلفِت انتباهَ السيد ريدر إليها أكثرَ من غيرها، لكانت مِشيتها وطلعتُها التي تُرضي على وجه الخصوص أيَّ رجلٍ له ميول نحو الجمال.

في بعض الأحيان، كان يمشي وراءها أو أمامها أو يركب معها السيارة ذاتها من الشارع إلى جسر وستمينستر. تنزل دائمًا عند ناصية الجسر ودائمًا ما يُقابلها شابٌّ حسَنُ الطلعة ويمشيان معًا. كان وجود هذا الشاب مصدرَ رضًا مُستترٍ للسيد ريدر، دون سببٍ مُعيَّن، إلا كونه يمتلك عقلًا منهجيًّا، ويفضل الزهرة عندما يكون لها خلفية من السرخس، وينزعج من مرأى الفنجان دون طبَقِه.

لم يخطر بباله أنه كان محلَّ اهتمامٍ وفضولِ الآنسة بيلمان.

قالت: «كان هذا السيد ريدر، أعتقد أنه يعمل لدى الشرطة.»

«السيد جيه جي ريدر؟»

نظر روي ماستر خلفَه باهتمامٍ إلى الرجل في منتصف العمر وهو يركض فزعًا كي يَعبُر الطريق وقُبَّعته الغريبة على رأسه من الخلف ومِظلته فوق كتفه وكأنه فارسٌ يحمل سيفه.

«يا إلهي! لم أتخيَّل قطُّ أنه بهذه الهيئة.»

تشتَّتَت الفتاة عن مشكلتها الخاصة، وسألَت: «مَن هو؟»

«ريدر؟ إنه يعمل في النيابة العامة، أظنُّ أنه مُحقق، أدلى بشهادته في قضية في الأسبوع قبل الماضي. واعتاد أن يكون مع بنك إنجلترا ...»

توقفت الفتاة فجأةً ونظر إليها مُتفاجِئًا.

سأل: «ما الأمر؟»

قالت: «لا أريدك أن تمشيَ معي أكثرَ من ذلك يا روي. السيد تيلفير رآني معك البارحة، ولم يُرضِه هذا الأمر البتة.»

قال الشاب ساخطًا: «تيلفير؟ ذلك الحشرة الصغيرة! ماذا قال؟»

ردَّت: «لا شيءَ مُهمًّا.» ولكنه استشفَّ من نبرة صوتها أن هذا «الكلام غير المُهم» كان مزعجًا.

قالت فجأة: «سأترك العمل لدى تيلفير. إنها وظيفةٌ جيِّدة ولن أجدَ وظيفة مثلها — أعني فيما يتعلَّق بالأجر.»

لم يُحاول روي ماستر إخفاءَ سعادته.

قال بحماسٍ بالغ: «يا لسعادتي الغامرة. لا أتخيَّل كيف تحمَّلتِ هذا الجوَّ الخانق كلَّ هذه الفترة.» سأل مرةً أخرى: «ماذا قال؟» ثم قال قبل أن ترُد: «على أية حال، توشك شركة تيلفير على الانهيار. تنتشر شائعاتٌ كثيرة وغريبة حولَها في المدينة.»

قالت مندهشةً: «ولكني كنتُ أعتقد أن الموقف الماليَّ للشركة جيد للغاية!»

هزَّ رأسه.

«كان كذلك، ولكن تصرفاتهم طائشة؛ ما الذي تتوقَّعينه من شركةٍ يُديرها إنسان مخبولٌ معتوه مثل سيدني تيلفير؟ العام الماضي، ضمِنَت الشركة ثلاثَ شركاتٍ لم تكن أيُّ شركةِ وساطة لتقترِب منهم على الإطلاق، وكان عليهم أن يأخذوا جميع الأسهم. إحدى هذه الشركات تعمل في مجال انتشال الكنوز المفقودة لانتشال سفينةٍ شراعية إسبانية غرقت منذ ثلاثمائة عام! ولكن ما الذي حدث حقًّا صباح أمس؟»

قالت: «سأُخبرك الليلة.» ثم ودَّعته على عجَل.

وصل السيد سيدني تيلفير قبل أن تدخُل إلى المكتب الذي لم يُوَفِّه روي ماستر حقَّه حينما وصفه؛ فالمكتب مُجهَّز بأثاثٍ فاخر وسجادة ناعمة وتجهيزات أخرى جميلة.

نادرًا ما كان مديرُ شركة تيلفير كونسوليداتيد يزور المقرَّ الرئيسي في شارع ثريدنيدل. فهو يقول إن الجوَّ العام في المكان يُصيبه بالاكتئاب؛ فالمكان يحوي أشكالَ البشاعة والقذارة وعدم الترتيب كافَّة. تأسَّسَت الشركة على يد جدِّ سيدني، ولكنه مات قبل أن يُولَد سيدني

بعَشْر سنوات وترك الأعمالَ لولده المُصاب بمرضٍ مُزمن، الذي مات أيضًا بعد بضعة أسابيع من ميلاد سيدني. انتعشَت الشركة على يد الأوصياء على الرغم من تدخُّلات والدته الغريبةِ الأطوار من وقتٍ لآخَر، وظهرت هذه الأطوار الغريبة جليَّةً في وصيةٍ حرَّرَته من تلك القيود التي تُفرَض بِحكمةٍ على صبيٍّ في السادسة عشرة.

المكتب مُجهَّز بنوافذَ ذات زجاجٍ مُلوَّن وبأثاثٍ فاخر؛ ومن ثَم كان يليق بالسيد تيلفير لأنه كان شخصًا مهندمًا إلى أقصى درجة. كان طويلًا ونحيفًا جدًّا لدرجةٍ لا تجعل رأسه الصغيرَ، بصورةٍ غيرِ طبيعية، يُلاحَظ في البداية. لمَّا دخلت الفتاة إلى المكتب، وجدَته يسعل بلطفٍ في منديلٍ رقيق ناعم، واعتقدت أنه شاحبٌ وبغيض أكثرَ من ذي قبل.

تتبع تحرُّكاتها بنظرةٍ مضجرة ووضعت الخطابات على مكتبه قبل أن يتحدَّث.

«قولي لي. يا آنسة بيلمان، لم تَذكُري كلمة عمَّا قلتُه لك ليلة أمس!»

أجابت بهدوء: «سيد تيلفير، من غير المُحتمَل أن أناقش مسألةً كهذه.»

قال بعباراتٍ متقطِّعة: «أريد الزواج بك وكل شيء، كل ما هنالك أنَّ هناك بندًا في وصية أمي. يمكن تجاوُز هذه المشكلة مع مرور الوقت.»

وقفتْ بجوار الطاولة وهي تستنِد بيدَيها على الحافة.

«لم أكن لأتزوَّجَك يا سيد تيلفير، حتى لو لم يكن هناك بندٌ في وصية والدتك؛ اقتراح أن أهربَ معك إلى أمريكا ...»

صحَّح كلماتها بجدِّية: «أمريكا الجنوبية وليس الولايات المتحدة، لم أقترح مُطلقًا الولايات المتحدة.»

كادت أن تبتسِم؛ لأنها لم تغضب من ذلك الشاب الأبلهِ بقدْر ما يحقُّ لها أن تغضب من اقتراحه الغريب.

تابع حديثَه مُتوجسًا: «المُهم، هلَّا أبقيتِ الأمر بيننا؟ ظللتُ قلقًا حدَّ الموت طوال الليل. أخبرتُكِ أن تُرسِلي لي خطابًا تذكرين فيه رأيك فيما عرَضتُه عليك ... حسنًا، لا تفعلي!»

ابتسمَت هذه المرةَ بالفعل، ولكن قبل أن تردَّ عليه، واصل حديثه بسرعةٍ بنبرةٍ عالية تفوق طبقةَ الصوت العالي بثلاثة أضعاف، قال:

«إنك فتاة فاتنة الجمال، وأنا مجنونٌ بك، ولكن ... هناك مأساةٌ في حياتي ... في الحقيقة. مأساة مروِّعة تمامًا. مررتُ بأحداثٍ صعبة للغاية. ولو كان لي عقلٌ من قبل، لأحضرتُ شخصًا كي يعتنيَ بشئوني. وبدأتُ أرى هذا الآن.»

للمرة الثانية في أربع وعشرين ساعةً، صبَّ عليها هذا الشابُّ الذي كان معقود اللسان، والذي لم يتنازَل مُطلقًا ويُلاحِظها، سيلًا من عباراتِ الثقة، وفي إحدى المَرَّتَين، وضع خُطة

أذهلَتْها وصدَمتْها، وأصرَّ عليها بجنون. توقف عن الحديث بَغْتة ومسح عينَيه الذابلتَين وقال بصوته الطبيعي:

«اطلبي لي بيلينجهام على الهاتف؛ فأنا أريده.»

بينما كانت أصابعُها مشغولةً بملاحقة الحروف على الآلة الكاتبة، تساءلَتْ إلى أيِّ مدًى تسبَّبتِ الشائعات حول «تزعزع» شركة تيلفير كونسوليداتيد في إثارته وحلِّ عُقدة لسانه.

أتى السيد بيلينجهام، إنه رجل ضئيل الجسم وشاحب الوجه له رأسٌ أصلع وقليل الكلام، ودخل بطريقته الكتومة إلى مكتب صاحب العمل. لم تظهر إشارة في مظهره أو في أسلوبه تدلُّ على أنه كان يُفكر في جريمةٍ نَكْراء. تظهر سِمْنته بسبب قِصَر قامته، وبعيدًا عن عُبوسه المعتاد، يرتسِم على وجهه المُستدير الذي لا تظهر عليه علاماتُ التقدُّم في العمر تعبيرٌ ينمُّ عن حُب الخير.

مع ذلك، ذهب السيد ستيفن بيلينجهام — المدير الإداري لشركة تيلفير كونسوليداتيد تراست — إلى بنك لندن آند سنترال في وقتٍ متأخِّر من بعد الظهيرة في ذلك اليوم، وقدَّم شيكًا يُصرَف لحامله بمبلغ مائةٍ وخمسين ألفَ جنيهٍ إسترليني وصُرِف الشيك ثم أُخِذ إلى شركة كريديت ليلواز. سبق أن اتصل هاتفيًّا كي يذكُر تفاصيلَ مُهمته، ووجد في انتظاره سبعة عشر طردًا وكل طردٍ يحتوي على مليون فرنك، وطردًا أصغرَ يحتوي على مبلغ مائةٍ وستة وأربعين ألفًا. بلغَت قيمة الفرنك ٧٤٫٥٥ وتلقى الثمانية عشر طردًا مُقابل شيكٍ باسم كريديت ليلواز بمبلغ ثمانين ألفَ جنيهٍ إسترليني ومبلغِ مائةٍ وخمسين ألفَ جنيه سحبَها من بنك لندن آند سنترال.

لم يُعرَف سوى القليل من تحركات بيلينجهام منذ ذلك الحين. رآه أحد المعارف وهو يركب في سيارة أجرة بتشيبسايد وتتبَّعَه حتى وصل إلى تشارينج كروس، ثم اختفى هناك. لم يُغادر عبر الجو ولا عبر البحر، ومن ثَم تُخمِّن الشرطة أنه غادر في قطار الليل الذي يقطع رحلته من هافر إلى باريس.

قال المدير المساعد في النيابة العامة: «هذه أكبر عملية سرقة وقعَت منذ سنوات. وإذا استطعتَ أن تدخل في التحقيق من دون أن يشعُر أحدٌ يا سيد ريدر، فسيسُرُّني ذلك. لا تعترِض طريق شرطة المدينة؛ يُصبح أفرادها ودودين في جرائم القتل، ولكنهم سريعو الغضب بعضَ الشيء عندما تتعلق القضية بالأموال. اذهب الآن لزيارة سيدني تيلفير.»

لحُسن الحظ، أمكن رؤية سيدني المُنهَك خارج منطقة سلطة شرطة المدينة. ذهب السيد ريدر إلى المكتب الخارجي ورأى وجهًا مألوفًا لدَيه.

قال: «عُذرًا، أظنُّ أنني أعرفك يا آنستي.» وابتسمتْ وهي تفتحُ له البوابة الخشبية الصغيرة كي تُدخِله.

قالت: «أنت السيد ريدر؛ إننا نعيش في الشارع ذاتِه.» ثم قالت بسرعة: «هل أتيتَ من أجل السيد بيلينجهام؟»

«نعم.» قال بصوتٍ منخفِض وكأنه يتحدَّث عن صديقٍ ميت: «أريد أن أرى السيد تيلفير، ولكن أظن أنَّ بإمكانك إعطائي معلومةً صغيرة.»

لم يكن لديها معلوماتٌ سِوى أن سيدني تيلفير كان في المكتب من الساعة السابعة وأنه في حالةِ انهيارٍ جعلَتها تُرسِل استدعاءً للطبيب.

قالت: «لا أظنُّ أنه في حالةٍ تسمح لك برؤيته.»

قال السيد ريدر بنبرةٍ مُطَمْئنَة: «أنا أتحمَّل المسئولية كاملة. هل السيد تيلفير ... امmm ... صديق لك يا آنسة ...؟»

«اسمي بيلمان.» لاحظ سرعة تورُّد وجنتَيها؛ وهذا يعني واحدًا من احتمالين. «لا، أنا موظَّفة، هذا كل ما في الأمر.»

نبرة صوتها أخبرته كلَّ ما يُريد أن يعرفه. السيد جيه جي ريدر حُجَّة في معرفة صداقات العمل.

همهم قائلًا: «أزعجك قليلًا، أليس كذلك؟» فرمقتْه بنظرةٍ يشوبها التشكُّك. ما الذي عرَفه، وما تأثير الاقتراح المجنون الذي قدَّمه السيد تيلفير على الكارثة الحاليَّة؟ لم تعلم شيئًا البتَّة فيما يتعلق بالوضْع الحالي، وشعرَتْ أنها اللحظة المناسبة للصراحة.

قال السيد ريدر مصدومًا: «أرادك أن تهرُبي معه! يا إلهي! هل هو متزوِّج؟»

قالت الفتاة باقتضاب: «أوه؛ لا، ليس مُتزوجًا. رجل بائس، أنا آسفةٌ عليه الآن. أخشى أن الخَسارة كبيرة عليه؛ مَن كان سيشكُّ في السيد بيلينجهام؟»

تنهَّد ريدر بحُزن: «آه، نعم معك حق!» ثم خلع نظارته ومسحها؛ ربما شكَّت في أن عينيه مُغرورقتان بالدموع. «أعتقد أنني سأدخُل الآن، أليس هذا هو الباب؟»

رفع سيدني وجهه بحركةٍ مفاجئة وحملقَ في الداخل. كان يجلس واضعًا رأسه فوق ذراعَيه لأكثر من نصف ساعة.

سأل بصوتٍ خافت: «يا هذا ... ماذا تريد؟ يا هذا ... لا أريد أن أرى أحدًا ... من مكتب النائب العام؟» ارتفع صوته حدَّ الصراخ تقريبًا. «ما الفائدة من مُقاضاته إذا لم تُستَرَد الأموال؟»

تركه السيد ريدر يهدأ قبل أن يبدأ في طرح أسئلته الحكيمة للغاية.

قال الشاب اليائس: «لا أعرف الكثير عما حدث. أنا مجرد مديرٍ صوري. أحضر بيلينجهام الشيكات إليَّ كي أُوقِّع عليها وأنا وقَّعت عليها. لم أُعطه قطُّ أيَّ تعليمات؛ كانت لديه أوامرُه. لا أعرف الكثير عن الأعمال. أخبرَني، في الحقيقة أخبرَني أنَّ وضع الأعمال سيِّئ وأنها تستلزم نصف مليونٍ أو مبلغًا قريبًا من ذلك قبل الأسبوع القادم ... يا إلهي! بعد ذلك، أخذ جميع أموالنا.»

انتحب سيدني تيلفير ومسح دموعَه في كمِّه وكأنه طفل. انتظر السيد ريدر قبل أن يطرَح سؤالًا بألطفِ أسلوبٍ مُمكن.

«كلَّا، لم أكن هنا؛ ذهبتُ إلى برايتون لقضاء عطلة نهاية الأسبوع. وأخذتْني الشرطة من فراشي في الرابعة صباحًا. أصبحْنا مُفلسِين. سأُضطَر إلى بيع سيارتي وأستقيل من النادي المشترك فيه؛ يجب على المرء أن يستقيلَ عندما يُفلِس.»

لم تَحوِ جعبة الرجل المُنكسر الكثير، ثم عاد السيد ريدر إلى رئيسه بتقريرٍ لم يُضف معلومات جديدة إلى ما لديهم. في غضون أسبوع، تخطَّت عملية السرقة، التي ارتكبها بيلينجهام، مجردَ سطورٍ قليلة إلى فِقراتٍ في مُعظم الصحف؛ لقد هرب بيلينجهام بطريقةٍ مثالية.

في المعجم الألمعيِّ للسيد جيه جي ريدر، لا تُوجَد كلمةٌ تعني إجازة. حتى مكتب النائب العام يمرُّ بأوقاتٍ تقِلُّ فيها الأعمال؛ وفي تلك الأوقات، بإمكان صغار المُوظَّفين ونوَّاب المسئولين وحتى النائب العام نفسُه أخذ إجازةٍ وترك المكتب مفتوحًا وبه أحد المرءوسين. لكن السيد جيه جي ريدر يبغض فكرة إضاعة الوقت، ومن عادته أن يملأ الأوقاتَ التي تقلُّ فيها الأعمال بجلوسه في المحكمة والاستماع باهتمامٍ شديد إلى القضايا التي تتسبَّب في سأمِ حتى كاتبِ المحكمة.

جون سميث المُتهَم بالسُّكْر واستخدام لغةٍ بذيئة مع ضابط الشرطة توماس براون؛ وماري جين هاجيت المُتهمة بإعاقة الشرطة عن أداء واجبها؛ وهنري روبنسون الذي أُحضِر إلى المحكمة باعتباره أحدَ المُشتبَه بهم ولحيازته أدواتٍ للسطو على المنازل ومنها إزميلٌ للقطع على البارد ومفكٌّ براغي؛ آرثر موزيس المُتهَم بتجاوز السرعة أثناء قيادة السيارة؛ كل هذه شخصيات فاتنةٌ وكأنها من رواياتٍ رومانسية وأسطورية بالنسبة إلى الرجل النحيل الذي يجلس بين الحشود وقفص الاتهام، وبجواره قُبَّعته ذات التاج الدائري وبين رُكبتَيه مظلَّتُه ويظهر على وجهه الحزين تعبيرٌ ينمُّ عن اندهاش بالغ.

ذات صباح باردٍ وضبابي، أخذ السيد ريدر إجازةً من واجباته واختار محكمة ماريليبون كي يقضيَ وقتَ استجمامه. ومن القضايا التي أَسَرَت انتباهَ السيد ريدر قضية اثنين ثَمِلَين وسرقة محلٍّ واختلاس، وعندما دخلت السيدة جاكسون إلى قفص الاتهام وصعد شرطيٌّ له وجهٌ أحمرُ إلى منصة الشهود، وأقسم أن يقول الحقيقة ولا شيء سوى الحقيقة وحكى قصته الغريبة.

قدَّم نفسه بطريقةٍ تقليدية قائلًا: «الشرطي فيريمان رقم ٩٧١٧ القسم إل. كنتُ في وقت خدمتي في شارع إدجوير في وقتٍ مبكِّر من ذلك الصباح في تمام الساعة ٢:٣٠ صباحًا، وعندها رأيتُ المتهمة تحمل حقيبة سفرٍ كبيرة. لمَّا رأتني، استدارت وأسرعَت في مِشيتها بالاتجاه المعاكس. لمَّا أثارت حركاتُها الشكوك، تبعتها ولمَّا أوقفتُها وسألتها عن صاحب الحقيبة التي تحملها. أخبرتني أنها صاحبة الحقيبة وأنها ذاهبة كي تلحَق القطار. قالت إن الحقيبة تحتوي على ملابسها. ولَمَّا كانت الحقيبة قيِّمة إذْ كانت من جلد التمساح، طلبتُ منها أن تُرِيَني ما بداخلها. رفضَتْ أن تُريَني محتوياتها. ورفضت أيضًا أن تُعطيَني اسمها وعنوانها فطلبتُ منها أن تأتي معي إلى قِسم الشرطة.»

ثم تبعه رقيب المباحث.

«رأيتُ السجينة في القسم وفتحتُ الحقيبة في حضورها. احتوَت الحقيبة على كميةٍ كبيرة من رقائق الأحجار الصغيرة ...»

قاطعه القاضي مُرتابًا: «رقائق الأحجار؟ هل تعني قِطَعًا حجَرية صغيرة؟ ما نوع الحجر؟»

«رخام يا سيادة القاضي. قالت إنها تُريد أن تصنع مَسارًا صغيرًا في حديقتها وأنها أخذَته من فِناءٍ يخصُّ نحَّاتَ أحجارٍ كبيرةٍ على طريق يوستون. واعترفَت بصراحةٍ قائلةً إنها اقتحمَت البوابة ودخلت إلى الفِناء وملأت الحقيبة من دون عِلم النحَّات.»

اضطجع القاضي على الكرسيِّ واطَّلع على ورقة الاتهام عابسًا.

قال: «لا يُوجَد عنوان بجانب اسمها.»

«ذكرَت عنوانًا ولكن تبيَّن أنه مُزيف يا سيادة القاضي، إنها ترفض تقديم أيِّ معلوماتٍ أخرى.»

التفت السيد جيه جي ريدر على مقعده وأخذ يُحدِّق في السجينة مشدوهًا. كانت ذاتَ قوام طويل وعريضةَ المنكبَين وقوية البِنْية. حجم اليد المُمسكة بقُضبان قفص الاتهام ضِعفُ حجم يدِ أيِّ امرأةٍ رآها من قبل. كان للمرأة وجهٌ ضخم، ولكن على الرغم من أنَّ

مظهرها به شيءٌ مُنفِّر، إلا أنها كانت وسيمةً ككلٍّ. عينان بُنِّيتان وغائرتان وأنفٌ كبير يُناسِب حجم وجهها وفمٌ شكله جميل وذقن ولغد؛ هذه الملامح الظاهرية ليست جذَّابةً لمن يرى المرأةَ بصفاتِ جمالٍ مُعينة، ولكن لأن السيد جيه جي ريدر رجلٌ مُنصِف، اعترف بأنها امرأة حسَنة المظهر. عندما تحدثَت، كان صوتها عميقًا بدرجة صوتِ الرجل وجَهْوريًّا وقويًّا.

«أعترف بحماقتي لارتكاب هذا الفعل. ولكن لمعَت الفكرةُ في رأسي قبل أن أخلُدَ إلى النوم مباشرةً ثم تصرَّفت من وحي اللحظة. كان بإمكاني شراء الحجر، كان في محفظتي ما يربو على خمسين جنيهًا وقتَ إلقاء القبض عليَّ.»

«هل هذا صحيح؟» وعندما أجاب الضابط، استدار القاضي بعينَيه اللتين يعتريهما الشكُّ إلى المرأة. وقال: «أنتِ تُقحميننا في مشكلةٍ كبيرة؛ لأنكِ لا تُريدين إخبارنا باسمك وعنوانك. أفهم أنك لا تُريدين أصدقاءك أن يعرفوا عن ارتكابك سرقة حمقاء، ولكن إن لم تُعطينا هذه المعلومات، فسأُضطَر إلى حبسكِ احتياطيًّا لمدة أسبوع.»

إنها مُتأنقة في ملبسها على الرغم من بساطتها. يومِض خاتَمٌ ماسي في إصبَع كبيرة قدَّره السيد ريدر في عقله بمبلغٍ يصِل إلى مائتَي جنيه. كانت السيدة جاكسون تهزُّ رأسها لمَّا نظر إليها.

قالت: «لا يُمكنني أن أذكر عنواني.» ثم أومأ القاضي مُقتضبًا.

قال: «تُحبَس احتياطيًّا لإجراء التحقيقات.» ولمَّا خرجَت من قفص الاتهام، قال: «أريد تقريرًا من طبيب السجن عن حالتها العقلية.»

نهض السيد ريدر فجأةً من على كرسيِّه وتبع المرأةَ والضابط المسئول عن القضية وهما يعبران الباب الصغير المُؤدِّيَ إلى الزنازين.

كانت «السيدة جاكسون» قد اختفَت عندما وصل إلى الممرِّ، ولكن كان رقيبُ المباحث ينحني فوقَ حقيبة السفر الكبيرة الجميلة التي عرَضها في المحكمة ويعكف على كتابة النموذج.

معظم مُوظَّفي المَهامِّ الخارجية في دائرة التفتيش الجنائي يعرفون السيد جيه جي ريدر، ومن ثَم ابتسم الرقيب ميلز ورحَّب به.

«ما رأيُك في تلك القضية يا سيد ريدر؟ إنها قضية جديدة بالنسبة إليَّ! لم أسمع قطُّ عن سرقة نحَّات شواهد الأضرِحة.»

فتح غطاء الحقيبة ومرَّر السيد ريدر أصابعه فوق رقائق الرخام.

قال الضابط: «يزيد وزن الحقيبة ومحتوياتها على مائة رطل. لا بدَّ أنها تتحلَّى بقوةٍ هائلة كي تحملها. كان الضابط البائس الذي حملها إلى القسم يتصبَّب عرقًا حينما وصل.»

كان السيد جيه جي عاكفًا على فحص الحقيبة. كانت جميلةً كما أن المفصَّلات والأقفال مصنوعة من الفضة المُؤكسَدة. لا يظهر اسمُ الشركة المُصنِّعة على الحقيبة من الداخل ولا الأحرف الأولى من اسم المالك على الغطاء اللامع. كانت البِطانة من الحرير ولكنها تقطعَت الآن وابيضَّت بسبب غبار الرخام.

قال السيد ريدر وهو شارد الذهن: «نعم، إنها قضية مُثيرة للاهتمام كثيرًا، مُثيرةٌ للاهتمام للغاية. هل مسموح لي أن أسألَ عما إذا كانت تحمل أيَّ ... اممم ... مُستندات عندما تم تفتيشها ...؟» هزَّ الرقيب رأسه. واستطرد السيد ريدر: «أو متعلقات غير عادية؟»

«لا تُوجَد سوى هذه.»

كان بجوار الحقيبة زوجان من القفَّازات الكبيرة. كانت هذه أيضًا متَّسِخة، ومقطَّعة من أماكنَ كثيرة.

همهم السيد جيه جي: «تكرَّر استخدام هذه القفازات في هذا الغرض. من الواضح أنها تجمع ... اممم ... مجموعةً من الأغراض بالرُّخام. ألا يُوجَد شيءٌ في محفظتها؟»

«لا يُوجَد سوى الأوراق النقدية: وعليها خاتَم البنك المركزيِّ من الظهر. يُمكننا تتبُّعُها بسهولة.»

عاد السيد ريدر إلى مكتبه، وأغلق الباب وأخرج مجموعةً مُتهالكة من أوراق اللعب من الدُّرج ولعب لعبة سوليتير؛ إذ كانت تلك طريقتَه لكي يُركِّز في التفكير. في وقتٍ مُتأخِّر من بعد الظهيرة، رنَّ جرس هاتفه وتعرَّف على صوت الرقيب ميلز.

«هل يُمكنني أن آتيَ لزيارتك؟ نعم، بخصوص الأوراق النقدية.»

بعد عشر دقائق، وصل الرقيب.

قال الضابط من دون مُقدِّمات: «صدرت الأوراق منذ ثلاثة أشهر للسيد تيلفير وهو الذي أعطاها لمُدبِّرة شئون منزله السيدة ويلفورد.»

قال السيد ريدر بصوتٍ خافت: «أوه، حقًّا؟» ثم أضاف بعد تفكير: «يا إلهي!»

عضَّ على شفتَيه بقوة.

وسأل: «وهل «السيدة جاكسون» هي تلك السيدة؟»

«نعم. جُنَّ جنون تيلفير البائس الصغير حينما أخبرَتْه أنها محبوسة احتياطيًّا وسارع إلى هولواي في سيارة أجرة كي يتعرَّفَ عليها. قضى القاضي بكفالة، وسيُفرَج عنها غدًا.

كان تيلفير يُثرثر كالأطفال وقال إنها مجنونة. يا إلهي! ذلك الرجل خائفٌ منها؛ عندما أخذته إلى غرفة الانتظار في سجن هولواي، رمَقَته بنظرةٍ جعلَته يرتعِد. على أية حال، لدينا معلومة عن بيلينجهام ربما تُهِمُّك. هل تعرف أنه على علاقة صداقة حميمية مع سكرتيرة تيلفير؟»

«حقًّا؟» أُثير اهتمام السيد ريدر حقًّا. «هل كانا صديقَين حميمَين؟ جيد، جيد!»

«وضعت شرطة سكوتلاند يارد الآنسة بيلمان تحت المراقبة؛ ربما لا يُوجَد مُسوِّغ لذلك، ولكن في القضايا مثل قضية بيلينجهام، «ابحث عن المرأة» (وقالها بالفرنسية) فغالبًا ما تجد امرأةً لها طرَفٌ في القضية.»

ترك السيد ريدر شفته وأخذ يدلك أنفَه برِفْقٍ الآن.

قال: «عجبًا! هذا تعبير فرَنسي، أليس كذلك؟»

لم يكن في المحكمة عندما وجَّه القاضي تحذيرًا صارمًا إلى سارقة الرخام وأطلق سراحها. كل ما أهمَّ السيد جيه جي ريدر هو معرفة أن المرأة دفعت لنحَّات الرخام أجرَه وأخذت رقائق الرخام خاصَّتها مُنتشيةً إلى المسكن الصغير المنعزِل في الدائرة الخارجية لُمتنزَّه ريجنت. قضى ذلك الصباح في سومرست هاوس وهو يتفحَّص نُسَخ الوصايا وما إلى ذلك؛ وبعد الظهيرة، ترك تلك الأوراق لتتبُّعِ آثار السيدة ريبيكا ألامبي ماري ويلفورد.

تُوفِّي عنها جون ويلفورد الأستاذ بجامعة إدنبرة وأصبحت أرملةً بعد زواجٍ دام لعامَين. حينذاك، بدأت العمل في خدمة زوجة السيد تيلفير — والدة سيدني — وتولَّت وحدَها مسئولية الصبي منذ الرابعة من عمره. عندما ماتت زوجةُ السيد تيلفير، جعلتها هي الوصيَّةَ الوحيدةَ على هذا الشاب. ومِن ثَم أصبحت ريبيكا ويلفورد بدَورها مُعلِّمةً ووصيَّة، وأصبحت هي المُتحكمةَ في مؤسسة هذا الشاب.

شغَل المنزلُ اهتمامَ السيد ريدر بدرجةٍ كبيرة. المنزل مَبنيٌّ على الطِّراز الحديث بالطوب الأحمر، ويتكوَّن من طابقَين وله واجهةٌ على الدائرة الخارجية لُمتنزَّه ريجنت وعلى طريق جانبي. يُطِل المنزل على حديقة كبيرة من الخلف والجانب، ولكنها تخلو من الزهور في هذا الوقت من العام. ربما كان الجو دافئًا بالنسبة إلى فصل الشتاء؛ إذ كانت هناك دفيئةٌ طويلة خلف الحديقة.

كان يتَّكئ على الألواح الخشبية وينظر حزينًا إلى الأرض من فوقِ حاجز الشجيرات المُربَّعة الذي يتداخَل مع السِّياج، وعندها رأى الباب يُفتَح والسيدة الضخمة تخرُج منه.

كانت ترتدي مِئزرًا بذراعَين عاريَين. رآها تحمِل صندوقَ ترابٍ في إحدى يدَيها وأفرَغَته في سلة مهملات مَخفيَّة، وتحمل مِكنسةً طويلة في اليد الأخرى.

اختفى السيد ريدر عن الأنظار بسرعة. وبعدها مباشرة انغلق الباب بقوة واختلسَ النظر مرة أخرى. لم يُوجَد دليلٌ على وجود مسار من الرخام. كل الطرُق كانت من الحَصى المُدلفن.

ذهب إلى كابينة هاتف قريبة واتصل بمكتبه.

قال: «ربما أبقى بالخارج طوال اليوم.»

لم يُوجَد أثرٌ للسيد سيدني تيلفير على الرغم من أن المُحقق عرَف أنه في المنزل.

أصبحت شركة تيلفير في أيدي المُصفِّين وانعقد الاجتماع الأول للدائنين. بِناءً على ما ورد من أخبار، ظل سيدني أسيرًا في فراشه، ومن هذا الملاذِ الآمن، كتب مذكرةً إلى السكرتيرة يطلُب فيها حرقَ جميع الأوراق المتعلقة بشئونه الخاصة. كتب حاشية مفادها: «هل لي أن أراكِ بخصوص العمل قبل أن أرحل؟» وتم شطب كلمة «أرحل» وكتابة كلمة «أتقاعد» مكانها. في الحقيقة، رأى السيد ريدر هذا الخطاب، فقد أتت إليه جميع المُراسلات بين سيدني والمكتب بترتيبٍ مع المُصفِّين. وكان هذا هو السبب جزئيًّا وراء الاهتمام الزائد من السيد جيه جي ريدر بالعقار رقم ٩٠٤ المواجه للدائرة الخارجية لمُتنزَّه ريجنت.

في وقتِ الغسَق، وقفت سيارة كبيرة أمام بوابة المنزل. وقبل أن ينزل السائق من فوق كرسيِّه، انفتح باب العقار رقم ٩٠٤ وخرج سيدني تيلفير مُهرولًا إلى السيارة. كان يحمل حقيبةً في كلِّ يد، وأدرك السيد ريدر أن الحقيبة الأقربَ إليه قبضتها مثل قبضة الحقيبة التي حملت فيها مُدبرة شئون المنزل الرخام المسروق.

لَمَّا وصل، فتح السائق باب السيارة ووضع الحقيبتَين وتبعه سيدني على عجَل. أُغلِق الباب واختفت السيارة عن الأنظار واستدارت مع منحنى الدائرة الخارجية للمُتنزَّه.

عبَر السيد ريدر الطريق واتخذ موقعًا قريبًا جدًّا من البوابة الأمامية وانتظر هناك.

دخل الغسَق وخيَّم الضباب على حديقة ريجنت. أسدَل الظلام أستاره على المنزل، فلا يُوجَد ضوءٌ إلا مصباح خافت يُضيء في الصالة، ولا يصدر صوت من المنزل. كانت المرأة لا تزال في المنزل؛ زوجة سيدني تيلفير التي كانت بدورها مُعلِّمة ورفيقةً ووصيَّةً وزوجة. زوجة سيدني تيلفير — المدير الخفي لشركة تيلفير كونسوليداتيد — إنها امرأةٌ بارعة ولم تكتفِ بالزواج من شابٍّ ضعيفٍ يصغُرها بعشرين عامًا فحسب، بل استعملت عقلها الذكي — إلا أنه غيرُ متزن — للسيطرة على أعمالٍ لا تفهم فيها؛ ولذا قُدِّر لها أن تغرق في

الخراب. أحسن السيد ريدر استغلال وقته في مكتب السجلَّات، ولم يتعَب في الحصول على نسخةٍ من قسيمة الزواج ونسخة من الوصية.

نظر حوله على وجل. بدأ الضباب ينقشِع وهذا ما لم يرغب فيه؛ لأنه ينوي القيامَ بأعمالٍ تتطلَّب أكبر قدْر من الخفاء.

عندئذٍ وقعَت مفاجأة. أتت سيارة أجرة مُتباطئة على الطريق ووقفت أمام البوابة.

قال سائق السيارة: «أظن أن هذا هو المكان يا آنسة.» ونزلت فتاة على الرصيف.

إنها الآنسة مارجريت بيلمان.

انتظر السيد ريدر حتى دفعت الأجرة ومشى السائق، وبينما تمشي نحو البوابة، خرج إليها من المكان المُظلِم الذي يقف فيه.

قالت لاهثة: «أوه! ... السيد ريدر، أخفتني كثيرًا! أتيتُ كي أرى السيد تيلفير؛ إنه يُعاني مرضًا خطيرًا ... كلَّا، مدبرة شئون منزله هي التي راسلتْني وطلبتْ مني أن آتيَ في الساعة السابعة.»

«هل فعلتْ حقًّا! حسنًا، سأضرب الجرس لك.»

أخبرَتْه أنه لا داعيَ لذلك؛ لأن معها المفتاحَ الذي وصل إليها مع الرسالة.

قالت مارجريت: «إنها بمُفردها في المنزل مع السيد تيلفير لأنه يرفض أن تقترِب منه مُمرضةٌ مُدرَّبة، كما أنه ...»

ألحَّ السيد ريدر بصوتٍ خافت: «هلا تكرَّمتِ وخفضتِ صوتك يا آنسة؟ سامحيني على وقاحتي، ولكن إذا كان صديقنا مريضًا ...»

اندهشَت في البداية من إلحاحه.

تحدثَت بصوتٍ منخفض وقالت: «لن يُمكنَه سماعي.»

«ربما يفعل ... المرضى حسَّاسون للغاية تجاه أصوات البشر. أخبريني، كيف وصل إليك هذا الخطاب؟»

«أتقصد الخطابَ من السيد تيلفير؟ أوصله ساعي البريد المعني بالمنطقة منذ ساعة.»

لم يدخل أحدٌ إلى المنزل أو يخرج منه سوى سيدني. وبسبب خوف سيدني الأعمى، سيُنفِّذ أيَّ تعليماتٍ تُمليها عليه زوجتُه.

فكَّر السيد ريدر دقيقة ثم قال: «وهل يتضمَّن فِقرة مثل هذه «أحضري هذا الخطابَ معك»؟»

قالت الفتاة متفاجئة: «لا، ولكن السيدة ويلفورد اتصلت قبل وصول الخطاب وأخبرتْني أن أنتظر وصوله. وطلبتْ منِّي أن أُحضر الخطاب معي؛ لأنها لا تريد ترك

مراسلات السيد تيلفير الخاصة عُرضةً لأن يطَّلع عليها أيُّ أحد. ولكن لماذا تسألني هذه الأسئلة يا سيد ريدر؟ هل هناك خطبٌ ما؟»

لم يُجِب على الفور. دفع البوابة كي يفتحها، ومشى من دون إحداث صوتٍ على الأرض التي تَنبُت فيها الحشائش الموازية للممر.

همس قائلًا: «افتحي الباب، سأدخل معك.» وعندما تردَّدَت، قال: «افعلي ما قلتُ من فضلك.»

ارتعشَت اليد التي وضعت المِفتاح في القُفل، ولكن على الأقل لفَّت المفتاح وفتحت الباب على مِصراعَيه. وجدا مصباحًا ليليًّا مُضيئًا على الطاولة الموضوعة في الصالة العريضة المُغطَّاة بالألواح. على اليسار وبالقُرب من سفح السُّلَّم، وعلى الدَّرَج السُّفلي الظاهر، رأى ريدر بابًا صغيرًا مفتوحًا؛ ولَمَّا خَطا إلى الأمام، رأى أنه باب غرفة هاتف صغيرة.

بعد ذلك، سمع صوتًا يتحدَّث من على البسطة العلوية، كان صوتًا عميقًا وجَهوريًّا يعرفه.

«أهذه الآنسة بيلمان؟»

تسارعَتْ ضربات قلب مارجريت وهي تتَّجِه إلى سفح السُّلَّم وتنظر إلى الأعلى.

«نعم، يا سيدة ويلفورد.»

«هل أحضرتِ الخطاب معك؟»

«نعم.»

تسلَّل السيد ريدر بطول الحائط حتى كاد يلمس الفتاة.

قال الصوت العميق: «جيد، هلا اتصلتِ بالطبيب وأعطيته العنوان، الدائرة الخارجية لمُتنزَّه ريجنت رقم ٧٤٣ وأخبريه أن السيد تيلفير انتكس؛ ستجدين غرفة الهاتف في الصالة، أغلقي الباب خلفك لأن الجرس يُقلِقه.»

نظرت مارجريت إلى المُحقِّق وهو أومأ لها.

رغبت المرأة في الطابق العُلوي أن تكسب وقتًا للقيام بشيءٍ ما؛ ولكن ما هو؟

تجاوزَته الفتاة، وسمع صوت الباب المُبطَّن يُغلَق، وسمع نقرةً جعلَته يستديرُ إلى الاتجاه الآخَر. أول شيءٍ لاحظَه هو عدَمُ وجود قبضةٍ في الباب، ثم لاحظ أن فتحة المفتاح مُغطَّاة بقُرصٍ معدني واكتشف فيما بعدُ أنه مُبطَّن باللباد. سمع الفتاة تتحدَّث بصوتٍ خافت ووضع أذنه على فتحة المفتاح.

«الجهاز مفصول ... لا يُمكنني فتح الباب.»

لم يتردَّد لحظة، ومن ثَم صَعِد السُّلَّم والمِظلة في يده ولَمَّا وصل إلى البسطة، سمع الباب يُغلَق بصوتٍ عالٍ. حدَّد مكان الصوت على الفور. الصوت آتٍ من الغرفة على اليسار فوق الصالة مباشرة. وكان الباب مقفلًا.

قال آمرًا: «افتحي هذا الباب.» وعندها وصلَتْه ضحكةُ الصوت العميق.

سحب السيد ريدر مقبض مِظلته القوي. لمع وميضُ معدِنٍ لما أسقطَ الطرَف السُّفلي وظهر في يده نَصلُ سكينٍ طوله ستُّ بوصات.

اخترقت الطعنة الأولى لوحَ الخشب الرفيع وكأنه مصنوعٌ من الورق. وفي ثوانٍ، أحدثَ فجوةً مُسنَّنة خرجَت منها فوهةٌ سوداء لمُسدَّسٍ أوتوماتيكي.

قال السيد ريدر مُتحذلقًا: «ضعي هذا الإبريقَ من يدك وإلا فجَّرتُ رأسَك وجعلت كلَّ شيء في مكان!»

الإضاءة في الغرفة ساطعة، ويستطيع أن يرى بوضوح. وقفت السيدة ويلفورد بجانب قُمع مُربَّع كبير، ويستقر طرَفُه الضيق على الأرض. كانت تُمسك في يدها إبريقًا حديديًّا كبيرًا مَطليًّا بالمينا، واصطفَّ حولها نحوُ ستِّ أباريقَ أخرى. في أحد أركان الغرفة، يُوجَد خزانٌ دائري كبير مُوصَّل فيه ماسورة نُحاسية كبيرة عند منتصف الخزَّان من حيث الطول.

كان وجه المرأة الذي التفتَ إليه خاليًا من التعبيرات والانفعالات.

قالت ببساطة: «أراد أن يهرُب معها بعد كلِّ ما فعلتُه من أجله!»

«افتحي الباب.»

وضعت السيدة ويلفورد الإبريقَ ومرَّرَت يدها الضخمة على جبهتها.

قالت: «سيدني حبيبي أنا، أنا مَن اعتنيتُ به وعلَّمته، وكان هناك مليون — كلها ذهبٌ — في السفينة. ولكنهم سرَقوه.»

كانت تتحدَّث عن إحدى مشاريع شركة تيلفير كونسوليداتيد التي فشِلت سفينة الكنز المفقودة التي أنفقَت الشركةُ أموالًا ضخمة لاستعادتها. كانت حانقةً من الغضب. خمَّن السيد ريدر نقطةَ ضعف هذه المرأة المُستبدَّة منذ البداية.

«افتحي الباب؛ سنتحدَّث في تلك المسألة. أنا مُتأكد تمامًا من أن خُطة سفينة الكنز خطةٌ مُحكَمة.»

سألت مُتحمِّسة: «هل تعتقد ذلك حقًّا؟» وبعد دقيقة فتحت الباب ودخل السيد جيه جي ريدر إلى غرفة الإعدام تلك.

«أولًا وقبل كلِّ شيء، أعطني مفتاح غرفة الهاتف؛ أنت مُخطئة تمامًا بشأن تلك الفتاة: إنها زوجتي.»

حملقت فيه المرأةُ مشدوهة.

«زوجتك؟» ارتسمَت ابتسامةٌ على وجهها ببطء، فغيَّرت ملامحها. ثم قالت: «عجبًا، كنتُ سخيفة. ها هو المفتاح.»

أقنعها أن تنزل معه، وعندما خرجت الفتاة المُرتعبة، همس إليها ببعضِ كلماتٍ وخرجَت مُسرعةً من المنزل.

سأل: «هلا ذهَبْنا إلى غرفة الاستقبال؟» وتوجَّهَت به السيدة ويلفورد إليها.

سأل برفق: «الآن، هلَّا أخبرتِني عن كيف تعلَّمت ... عن الأباريق؟»

كانت تجلس على حافة الأريكة ويداها مُشبَّكتان على ركبتيها وعيناها الغائرتان تُحملقان في السجادة.

«أخبرني جون، إنه زوجي الأول. كان أستاذًا في الكيمياء والعلوم الطبيعية وكذلك يعرف عن الفرن الكهربائي. صَنْعتُه سهلة في حال توافُر الطاقة، ولا نستخدِم سوى الكهرباءِ في هذا المنزل للتسخين وكل شيء. ثم رأيتُ حبيبي البائس يُدمَّر من خلالي، وعلمتُ كم هو المبلغ في البنك، وطلبتُ من بيلينجهام أن يسحب المبلغ ويُحضره لي من دون عِلم سيدني. أتى إلى هنا في المساء. أرسلتُ سيدني بعيدًا، إلى برايتون على ما أظن. أنا فعلت كلَّ شيء، وضعت القفل الجديد على كابينة الهاتف وثبَّتُ العمود من السقف إلى الغرفة الصغيرة، لم يصعُب عليَّ بعثرةُ كل شيء؛ إذ كانت الأبواب مفتوحةً والمروحة الكهربية تدور فوق الأرض ...»

كانت تُخبره عن الفرن الارتجاليِّ في الدفيئة عندما وصلت الشرطة ومعها جرَّاح القسم وذهبت معه وهي تنتحِب لأنه لن يكون هناك مَن يربط لسيدني ربطة عنقه أو يخلع له قمصانه.

اصطحب السيد ريدر المُفتش إلى الغرفة الصغيرة وأراه محتوياتِها.

استهلَّ قائلًا: «هذا القُمع يُؤدي إلى كابينة الهاتف.»

قاطعه الضابط: «ولكنَّ الأباريق فارغة.»

أشعل السيد جيه جي ريدر عودَ ثقاب وانتظر حتى اشتعل تمامًا، ثم أنزله داخلَ الإبريق. انطفأ العودُ المُشتعِل بعد نصف بوصة من الحافة.

قال: «أول أكسيد الكربون، يتم تكوينه بنقع رقائق الرخام في حمض الهيدروكلوريك — ستجد الخليط في الخزان. الغاز عديم اللون وعديم الرائحة وثقيل. ومن ثَم يُمكن سكبُه

من الإبريق مثل الماء. كان بإمكانها أن تشتريَ الرخام، ولكنها خشيَت من إثارة الشكوك. قُتِل بيلينجهام بتلك الطريقة. جعلته يدخل إلى كابينة الهاتف وربما أغلقَت عليه الباب بنفسِها ثم قتلتْه بدون ألم.»

سأل الضابط المُرتعِب: «ماذا فعلَت بالجثة؟»

قال السيد ريدر: «تعالَ معي إلى الدفيئة وأرجو ألا تتوقَّع أن ترى مناظرَ مُرعبة؛ فالفرن الكهربي يمكن أن يُحلِّل الماس إلى عناصره الأصلية.»

ذهب السيد ريدر إلى منزله في تلك الليلة في حالةٍ من الاضطراب العقلي، وظلَّ يغدو ويروح لمدة ساعةٍ في مكتبه الكبير الكائن في شارع بروكلي.

ظل يُقلِّب المسألة في رأسه مرارًا وتَكرارًا؛ هل يُقدِّم اعتذاره إلى مارجريت بيلمان؛ لأنه قال إنها زوجته أم لا؟

القصة الخامسة: ميلودراما بحتة

السيد ريدر هو الذي وضع خُطة مداهمةِ وَكْر تزوير الأموال التابع لتومي فينالو وأعدَّ جميع التفاصيل باستثناء تكوين قوة المُداهمة. يقع الوكر في جولدرز جرين حيث يأتي إليه الوُكلاء المَوثوقون من أجل شراء أوراق النقد مقابل سبعة جنيهات إسترلينية وعشر شلنات لكلِّ مائة جنيه إسترليني، أو سبعين جنيهًا إسترلينيًّا لكل ألف. لا يُعرَف الفرق بين العُملة التي يُزوِّرها تومي والعُملة المُعتمَدة والمطبوعة لخِزانة صاحبة الجلالة. كانت درجات اللونَين البُنيِّ والأخضر متطابقةً مع العملات الأصلية، وكذلك الأرقام متطابقة مع السلاسل الصادرة؛ وكانت الأوراق مُتماثلة. كانت تُطبَع في ألمانيا مقابل ثلاثة جنيهات إسترلينية لكل ألف، وجمع تومي أرباحًا بالآلاف.

اكتشف السيد ريدر كلَّ شيءٍ عن وكر تومي في وقت فراغه، وقدَّم تقريرًا بالأمر إلى رئيسه وهو النائب العام. المسافة مِن وايتهول إلى شرطة سكوتلاند يارد دقيقتان سيرًا على الأقدام، وانتقلت المعلومات في تلك المدة.

أمره الرئيس: «خذ المُفتش جرياش معك وتولَّ الإشراف على المداهمة.»

ترك المُفتش يُعد كلَّ الترتيبات، ومن بين الذين عَلِموا بالمداهمة المُخطَّط لها، مُحقق جمع أموالًا من علاقاتٍ مشبوهة أكثرَ مما جمع من الحكومة. هذا الضابط «أفشى سر» المداهمة لتومي، وعندما وصل السيد ريدر ورجاله الشجعان إلى جولدرز جرين، وجَدوا تومي وثلاثةً من أصدقائه يلعبون لعبةَ جسر المزايدة في هدوء، ولم يجدوا سوى أوراقِ نقدٍ قديمة وأصلية.

لمَّا وصلوا إلى الشارع، تنهَّد جيه جي قائلًا: «يا للأسف، يا لغاية الأسف. بالطبع لم يكن لديَّ أدنى فكرة عن أن المُحقِّق ويلشور من ضمن القوة. إنه ... امم ... ليس مُخلصًا تمامًا.»

سأل الضابط مصدومًا: «ويلشور؟ هل تقصد أنه «أفشى سر» المداهمة لتومي؟»

حكَّ السيد ريدر أنفه وقال بلطفٍ إنه يعتقد ذلك.

«إنه يُحقق دخلًا كبيرًا من عدة مصادر؛ بالمناسبة، لديه حسابٌ في بنك مديلاند آند دربيشاير، والحساب مكتوب باسم زوجته قبل الزواج. أخبرك هذا في حالة ... اممم ... قد يُفيدك أن تعرف.»

أفادت كلماته في سرعة طرد ويلشور غير المُخلص من القوة، ولكنها لم تكفِ للإمساك بتومي إذ كانت آخِرَ كلماته:

«أنت ذكي يا ريدر، ولكن يجب أن تكون محظوظًا كي تُمسِك بي!»

اعتاد تومي على تَكْرار هذه العبارة لكل مَن يُهمه أمره. كان لقاءً يستحق أن يفخر به لأنه قلَّما يُواجِه المتعاملون في الأوراق المالية المُزيفة السيد جيه جي ثم يفلتون بجريمتهم.

«يستحق الأمر ألف جنيه؛ بل عشرة آلاف! لو بيدي، لدفعت هذا المال كي أجعل جيه جي يبدو أحمق، على أية حال، هذا الكلب العجوز! أظن أن شرطة سكوتلاند يارد ستُفكر أكثرَ من مرة قبل أن تُداهِمني مرة أخرى، وهذه ضربة حقيقية لفكرة المداهمة. جيه جي اسمه جوناه في المقرِّ الرئيسي، ولو كان الأمر بيدي، لجعلت اسمَه في الوحل!»

روى السيد فينالو هذه القصة تحديدًا للسيد راس لال بونجابي — ضيف شريف (ويدفع جيدًا) — وقد أسفرَت عن نتائجَ مُثيرةٍ للفضول.

النبيذ الجيد مَذاقه أفضل في بلده، ويُمكن للرجل أن يشرب برميلًا من النبيذ الإسباني في خيريز دي لا فرونتينا ولا يتعب، ولكن إذا حاول شربَ زجاجةٍ من هذا النبيذ في شارع فليت، فسيُلِمُّ به تعبٌ شديد. وكذلك تحتفظ السجائر المصرية بأفضلِ توليفة لها عندما تُدخَّن في رَدْهة أيِّ فندق في القاهرة.

الجريمة كذلك لها خصائصُها التي لا تحتمل الانتقال من بلدٍ إلى آخر. فسارق الخِزَن في أمريكا لا تنتعش صَنعته في فرنسا إلا إذا تسلَّح بالمعرفة عن الطرق الأوروبية وكرَّس نفسه لإتقانها. وبإمكان اللصِّ الأوروبي أن يجنيَ دخلًا جيدًا في البلدان الشرقية، ولكن لا يُوجَد مشهدٌ في العالم أصعبُ على النفس من العقل الشرقي الذي يسعى جاهدًا للتكيُّف مع تعقيدات وسائل المكر الأوروبية.

يحظى راس لال بونجابي بسُمعة بين دوائر الشرطة الهندية بصفته أذكى مجرمٍ عرَفَته الهند. قضى راس لال مدة قصيرة في سجن بونا ولم يدخل أيَّ سجنٍ آخَر في حياته، واشتُهر بذلك في أوساط دوائر الشرطة الهندية؛ وفي فترة سجنه القصيرة، أُقيمت صلواتٌ

من أجل خَلاصه في معابدَ بعينها وعُقِد الاتفاق على أنه لم يكن ليُدان على الإطلاق، لولا أن مُفوَّض الشرطة الأوروبي أقسمَ على ذلك بأغلظِ الأيمان، ومن المعروف أن كل السادة البِيض في الهند يُؤازر أحدُهم الآخَر، ومن ثَم ألقاه في السجن قاضٍ أوروبي.

مارس جميع أنواع الجرائم، إلا أنه كان يميل إلى سرقات المجوهرات. رجل ذو مظهر مُهندَم بل وحتى نبيل، له شعرٌ أسود ولامع ومفروق من الجنب ومُتموِّج فوق جبهته وكأنه مَوجةٌ سوداء، وكان يتحدَّث الإنجليزية والهندية والتاميلية بطلاقة، ولديه معرفةٌ سطحية بالقانون (مكتوب على بطاقات زياراته عبارة «ساقط بكالوريوس قانون») ولكن لديه معرفة تامَّة بعِلم الأحجار الثمينة.

في الفترة القصيرة التي قضاها السيد راس لاس بونجابي في سجن بونا، تزوَّج مفوضُ الشرطة الأوروبي الأبيض، الذي كان اسمه غيرُ العاطفي سميث، بفتاةٍ ليست جميلةً تتمتع بثراء فاحش. علم سميث أن الجمال الظاهري زائلٌ وأنَّ لها قلبًا طيبًا، والمعلوم أن طِيبة القلب مُقدَّمة على الزينة الخارجية. وفي الواقع كانا حبيبَين مُتماثلين. كان والدها يمتلك مطاحن جوت في كالكوتا؛ وفي المناسبات الاحتفالية مثل احتفال الحاكم العام، اعتادت أن تتزيَّن بعدة آلاف من الروبيات؛ ولكن حتى الأغنياء يُحَبُّون لشخصهم فقط.

حُكِم على راس لال بالسجن بسبب عدم نجاحه في محاولةٍ لسرقة عِقدَين من اللؤلؤ تمتلكهما السيدة محلُّ الحديث، ولمَّا خرج من السجن وعلم أن المفوض سميث تزوَّج من الفتاة المتألقة وأنه ذهب إلى إنجلترا، بات من الطبيعي تمامًا أن يُوجِّه الكراهية والمرارة من المُفوض سميث إلى أسباب شخصية بحتة، ومن ثَم أقسم على الانتقام.

وفي الهند الآن، أصبحت أعمالُ الخدم من أعمال أسيادهم. عمليات التقصِّي الأولية التي يُنفِق عليها سارق المجوهرات الإنجليزي أو الأمريكي ثروة صغيرة، أصبحت تُجرى مقابل بضعة آنات (عملة هندية قديمة). عندما أتى راس لال إلى إنجلترا، وجد أنه غفل عن تلك الحقيقة البالغةِ الأهمية.

غادر المفوض سميث وزوجته المدينة؛ في الواقع كانا في طريقهما عبر البحار إلى نيويورك وقتما أُلقي القبض على راس لال بتهمته التقليدية «كونه مُشتبَهًا به». تتبع راس خادم سميث ولمَّا أغراه بالشراب، أغرقه بالأموال كي يُفشيَ سر المكان الذي تحتفظ فيه زوجة المفوض بمجوهراتها سواء كان المكان خزانة أو دُرجًا أو صندوقًا أو حتى علبة مجوهرات. وكان مُبرره لطرح السؤال هو أنه راهن أخاه على أن تلك المجوهرات محفوظة

تحت سرير زوجة المفوض، وهو مُبرر كشفَ عن عجزٍ كبير في ملَكته الإبداعية. ولمَّا كان الخادم رجلًا مُخلصًا، رغم أنه يشرب الجِعَة، فقد أخبر الشرطة؛ لذا أُلقي القبض على راس لال وصديقه والمساعد رام ومَثَلوا أمام القاضي وأوشك القاضي أن يُخلي سبيلهم لولا اطلاعُ السيد جيه جي ريدر على القضية وتقديمِه وقائعَ غايةً في الأهمية من مِلفاته الخاصة عن الماضي الأسود للرجل. ولذلك حُكِم على السيد راس لال بالسجن مع الأشغال الشاقة لمدة ستة أشهُر، ولكن الشيء الذي جنَّ جنونه بسببه هو أن قصة فشله الذريع انتشرت كالنار في الهشيم في أرجاء الهند، وهذا ما توقَّعه.

تشتَّت بسبب هذه الفكرة في زنزانته الانفرادية في سجن وورموود سكرابس. كيف ستُفكر فيه الهند؟ سيُصبح محلَّ استهزاء في الأسواق، «محل استهزاء أصحاب القدرات الضئيلة» على حدِّ تعبيره. لذا حوَّل كراهيته من المُفوض سميث إلى السيد جيه جي ريدر. وكان كرهه حقيقيًّا للغاية، وقد زادت حقيقيَّته بسبب تفاهة هذا الصاحب ريدر وقلَّة قيمته؛ إذ إنه شبَّهَه بالبقرة العجوز والثعلب المكَّار وأشياء أخرى يصعُب التعبير عنها. ظلَّ مدة الأشهر الستة التي قضاها في السجن يُفكر في محاولات انتقامٍ يائسة وجادة.

لمَّا خرج من السجن، قرَّر أن الوقت لم يَحِن بعدُ للعودة إلى الهند. أراد أن يتعرَّف على السيد جيه جي ريدر وعاداته عن قُرب، ولمَّا كانت الأموال معه لا حصر لها، استطاع أن يُوفر الوقت، وأيضًا استطاع أن يمزج بين العمل والمُتعة.

استطاع السيد تومي فينالو أن يتواصَل مع الرجل الآتي من الشرق أثناء وجوده في سجن وورموود سكرابس، كما أن سيارة الليموزين الأنيقةَ التي انتظرت راس لال أمام بوابات السجن وقت خروجه استأجرها تومي وانتظره فيها، رجل أعمال ذكي عرَض عليه من قبل مسئولُ الطباعة الألماني خطًّا جديدًا من الأوراق النقدية الهندية من فئة المائة روبية التي من السهل أن تتطوَّر إلى خط أعمال ثانوي يُدِرُّ رِبحًا عظيمًا.

قال تومي المتعاطف: «سوف تأتي وتُقيم على حسابي يا رجل.» يتصف تومي بقِصَر القامة والبدانة، وله عينان مُنتفختان مثل عيون كلب البج. ثم أردف: «لقد عاملك ريدر العجوز معاملةً سيئة، وسأقول لك طريقةً للانتقام منه، ولا تُوجَد خطورة في تلك الطريقة، وأرباحها تسعون في المائة. اسمع، صديق لي …»

مَن يبيع الأوراق المالية المُزوَّرة ليس تومي؛ بل دائمًا مَن يبيع الأوراق النقدية المزوَّرة «صديق» غامض.

سكن راس في شقة مفروشة في مُربع سكني يمتلكه السيد فينالو؛ فقد كان رجلًا فاحشَ الثراء في الحقيقة. بعد بضعة أسابيع، عبَر تومي شارع سانت جيمس كي يقطع الطريق على عدوِّه القديم.

«صباح الخير يا سيد ريدر.»

توقف السيد جيه جي ريدر واستدار للخلف.

باعتناءٍ كريم يليق بصاحب المعطف المشقوق الذيل والحذاء المُربع من عند الأصابع، قال: «صباح الخير يا سيد فينالو. أنا سعيد أنك خرجتَ من السجن مرة أخرى، وأنا واثق من أنك ستبحث الآن ... اممم ... عن طرُقٍ مشروعة تُمارِس فيها مواهبَك التي لا أشكُّ فيها.»

استشاط تومي غضبًا.

«لم أدخل إلى «السجن»، وأنت تعرف هذا يا ريدر! ولم يكن ذلك نتيجةَ توقُّفِك عن محاولة الإمساك بي. ولكن يجب أن تتحلَّى بما هو أكبرُ من الذكاء كي تُمسِك بي؛ يجب أن يُحالفك الحظ! هذا لا يعني بالطبع أن هناك ما يُدينني كي تُمسِك بي؛ لم أرتكب احتيالًا في حياتي، وأنت تعرف هذا جيدًا.»

انزعج انزعاجًا شديدًا لدرجة أنه نسي تبادُل عبارات الملاطفة التي خطط لها.

التقى مع راس لال وابتهج من المُقابلة أيَّما ابتهاج. وتوجَّه السيد راس لال في تلك الليلة إلى موعدٍ عُقِد في مكانٍ لم يرتَحْ له وهناك قابلَ صديقه الجديد.

قال تومي مُتحمسًا: «هذا آخر مكان في العالَم قد يُفكر فيه ريدر العجوز، ولو فعل فلن يعثُر على شيء. قبل أن يدخل إلى المبنى، ستختفي البضاعة عن الأنظار.»

قال راس لال: «إنه موطن للراحة القُصوى.»

قال تومي مُنتشيًا: «إنه لك يا فتى. لا أحتفظ بهذا المكان إلا من أجل إدخال البضاعة وإخراجها. لا تبقى البضاعة هنا لمدة ساعةٍ حتى، ويبقى المخزن فارغًا لبقية الوقت. كما أقول دومًا؛ ريدر العجوز يجب أن يكون لديه ما هو أكثرُ من الدهاء، يجب أن يُحالفه الحظ!»

وقت الفراق، سلَّم لعميله مِفتاحًا، ومع إعطائه هذه الأداةَ الضرورية، تفوَّه ببعض الكلمات التي تجمع بين النصيحة والتحذير.

«لا تأتِ إلى هذا المكان إلا في وقتٍ متأخر. تمرُّ دورية الشرطة من نهاية الطريق في الساعة العاشرة والواحدة والرابعة. متى ستُغادر إلى الهند؟»

قال راس: «في الثالث والعشرين، وقبل رحيلي، لا بدَّ أن أنتقمَ من هذا النَّذل ريدر.»

قال تومي: «لا أحبُّ أن أكون في مكانه.» كان بإمكان تومي أن يتملَّق؛ إذ يمتلك في جيبه ما يساوي مائتي جنيه من المال الحقيقي دفعها راس مُقدمًا مقابل مبلغٍ أكبرَ من الأموال غير الحقيقية.

مرَّت بضعة أيام، ثم ذهب راس لال إلى مسرح أورفيوم، ولم تكن مصادفةً أن يذهب في الليلة ذاتِها التي يُرافق فيها السيد ريدر سيدةً جميلة إلى مكان التنزُّه ذاتِه.

عندما يذهب السيد جيه جي ريدر إلى المسرح (ويتوقف ذَهابُه بالكامل على تلقِّيه تذكرةً مجانية)، فدائمًا ما يختار الأعمال الميلودرامية، ويُفضِّل أن تكون إحدى أعمال دروري لين؛ لأنه بجانب خطابات المُمثلين الحماسية، تُضاف أحداث تحطيم قطارات السكك الحديدية والسفن التي يَشيب لها الشعر، وسباقاتُ الخيل الضخمة التي يفوز فيها البطل المُفضَّل بفارقٍ ضئيل. ربما يبدو من المُستبعَد جدًّا أن تُثير هذه الأعمال نُقَّاد الدراما — لا سيما الأعمال التي يفوز فيها الأبطالُ المُفضَّلون — لكن السيد ريدر يرى الواقعية في كل هذه العروض.

جلس ذات مرة كي يُشاهد مسرحيةً هزلية صاخبة، وكان الرجل الوحيد الذي جلس في المسرح ولم يضحك. في الواقع، بات مصدرَ تأثيرٍ مُحبِط لدرجة أن المُمثلة بطلةَ العرض قدمت طلبًا انفعاليًّا إلى المدير بأن يُعيد ثمن التذكرة لهذا «العجوز البائس الجالس في منتصف الصفِّ الأول» وأن يطلب منه مغادرة المسرح. ولأن السيد ريدر دخل بتذكرةٍ مجَّانية، فقد وضع المدير في مأزقٍ حرج للغاية.

ما فتئ يذهب بدون رُفقاء، مرَّ اثنان وخمسون عامًا من دون أن تدخل الرومانسية أو الذوبان عشقًا الذي يولِّد الأحلام إلى حياته. بطريقةٍ ما، تعرَّف السيد ريدر على فتاةٍ ليست كأيِّ فتاة سبق أن تعامَل معها السيد ريدر. اسمها بيلمان — مارجريت بيلمان — سبق أن أنقذ حياتها على الرغم من أن هذه الواقعة لم تلمَعْ في ذاكرته كثيرًا مثل واقعة أنه عرَّض حياتها للخطر قبل أن يُنقِذها. كذلك كان يتملَّكه شعورٌ بالذنب لسببٍ آخرَ تمامًا.

كان يُفكر فيها يومًا ما؛ قضى حياته يُفكر في الناس، على الرغم من أن غالبية هؤلاء الناس لم يرتَقوا إلى احترام الآنسة مارجريت بيلمان. ظنَّ أنها ستتزوَّج الشابَّ ذا المظهر الأنيق الذي اعتاد أن يُقابل عربة الشارع التي ترتادُها عند ناصية الجسر كلَّ صباح ويعود معها إلى طريق لويشام السريع كلَّ مساء. سيكون حفلَ زفافٍ لطيفًا للغاية، حيث تتوافر فيه السيارات المُستأجرة ويُؤدي القسُّ طقوسَ الزواج بنفسه ويُحضر الطاهي

المحلي إفطارَ حفل الزفاف، وبعدها تُلتقَط الصور الفوتوغرافية للعريس والعروس على المرج مُحاطين بأقاربهم السعداء غير الجذابين. بعد ذلك، تُقِلُّهم سيارة مُستأجرة خِصِّيصى إلى إيستبورن لقضاء شهر عسل بتكلفة عالية. وبعد انقضاء كلِّ تلك الأحداث الرتيبة، ينهضان ويخرجان من مسكنهما المُترَف إلى سيارتهما الصغيرة ليُشاهدا مباريات التنس يوم السبت بعد الظهيرة.

تنهَّد السيد ريدر من أعماقه. كم كانت الدراما المسرحية مُرضيةً، حيث تبدأ كلُّ المشاكل في الفصل الأول وتُحَل بطريقةٍ مُرضية في الفصل الأخير. تلمَّس بأصابعه شاردًا قُصاصتَين من الورق الأخضر أتَتَا إليه في ذلك الصباح. الصف أ، المقعدان ١٧ و١٨. التذكرتان أرسلهما مدير يدِين له ببعض الامتنان. المكان هو مسرح أورفيوم، موطن الدراما العالمية، والمسرحية هي «نيران الانتقام». يبدو أنها أمسيةٌ رائعة.

أخذ مظروفًا من على الرفِّ ووجهه إلى شباك التذاكر وبدأ في كتابة الخطاب المُرفق لإرجاع التذكرة الزائدة، وعندئذٍ خطرَت له فكرة. إنه يدين للآنسة مارجريت بيلمان بشيءٍ ما، ولا يرتاح له بالٌ بسبب هذا الدَّين. لقد وصفها ذات مرة، لأسباب تتعلق بالأصوبية، بأنها زوجته. ادَّعى هذا الادعاءَ المُستحيل استرضاءً لامرأة مجنونة، هذا صحيح، ولكنه تذرَّع به. إنها تَشغَل منصبًا مرموقًا الآن؛ إذ تَشغل منصبَ الأمين لدى أحد المقرَّات السياسية، ويرجع الفضلُ في الحصول على تلك الوظيفة إلى السيد جيه جي ريدر، ولكنها لا تعلم ذلك.

أخذ الهاتفَ واتصل على رقمها وبعد تأخُّر الرد لمدةٍ طبيعية، سمع صوتها.

سعَل السيد ريدر: «امم ... الآنسة بيلمان، لديَّ ... امم ... تذكرتان للمسرح الليلة. وأتساءل عما إذا كنتِ تهتمِّين بالذَّهاب؟»

كادت دهشتُها أن تُسمَع.

«هذا لطفٌ كبير منك يا سيد ريدر. بالطبع أحبُّ أن آتيَ معك.»

شحب لون السيد جيه جي ريدر.

«ما أعنيه هو، معي تذكرتان؛ ظننتُ أنه ربما ... امم ... يحبُّ شخصٌ آخرُ أن يذهب ... ما قصدتُه هو ...»

سمع ضحكةً لطيفة على الطرف الآخر من الهاتف.

قالت: «ما قصدتَه هو أنك لا ترغب في اصطحابي.» وبالنسبة إلى رجل في خبرته، فقد تخبَّط في الحديث كثيرًا.

قال مُرتعبًا من أن يُسيء إليها: «يجب أن أُقدِّر أنه شرفٌ لي أن أصحبك، ولكن الحقيقة، ظننتُ ...»

«سأقابلك في المسرح، ما اسم المسرح؟ أورفيوم؛ رائع جدًّا! في الساعة الثامنة.»

وضع السيد ريدر سماعة الهاتف وشعر أنه واهنُ القُوى ويتصبَّب عرقًا. الحقيقة أنه لم يصحَب سيدةً إلى أي مناسبةٍ اجتماعية في حياته قط، ولَمَّا تراءت له جسامة هذه المغامرة تملَّكه شعورٌ بالارتباك والانبهار. قاتلٌ يستيقظ من أحلام العربدة ويجد نفسه مُدانًا داخل زنزانة ما كانت لتغمره مشاعر الأسى أكثرَ مما غمرَت السيد ريدر، مُمزَّق من تيارات الحياة الناعمة، وإن كانت غادِرةً ويقترِب أكثرَ وأكثر من الدوَّامة المُرعبة لغير المألوف.

قال السيد ريدر: «يا ربي!» كان يستخدم هذا التعبير الخاصَّ دومًا ويُبقيه من أجل اللحظات الحرجة بالنسبة إليه.

وظَّف في مكتبه شابةً تتَّصِف بالدقة المُتناهية في ترتيب المستندات، إلا أنها لا تمتلك مقوِّمات الجمال التي تجعل الرجلَ يتحوَّل إلى مَلاك، أو تجعل بيرسيوس يتحرك بجيوشه إلى أسوار طروادة في الأيام الغابرة. وما فتئ السيد ريدر يُناديها باسم «آنسة». يعتقد أن اسمها هو «أوليفر». في الحقيقة، كانت امرأةً متزوجة ولديها طفلان، ولكن أُقيمَ حفلُ زفافها من دون علمه.

انطلق السيد ريدر إلى الطابق العلوي في مبنًى كائنٍ في شارع ريجنت من أجل التعليمات والتوجيهات.

«ليس ... اممم ... من عادتي ... اممم ... أن أصحب سيدات إلى المسرح، وأشعر أني تائهٌ بشأن ما هو مُتوقَّع منِّي، هذا بالإضافة إلى أن الفتاة ... اممم ... غريبة عني.»

سخرت منه المساعدة ذاتُ الوجه الخالي من التعبير خُفْية. في زمان السيد ريدر، ما كان في آدابهم أن تتغيَّر هذه المشاعر الطبيعية لأنها ما كانت تَضمُر!

كتب اقتراحاتها.

«الشوكولاتة حقًّا؟ من أين أشتري ...؟ أوه، نعم، أتذكر أنني رأيتُ الموظفين يبيعونها. شكرًا جزيلًا لك يا آنسة ... اممم ...»

لَمَّا خرَج وأغلق الباب خلفه، لم تُخفِ سُخريتها.

قالت بنبرةٍ مُهينة: «جميعهم يسلكون الطريق الخطأ عند السبعين.»

كانت مارجريت بالكاد تعرف ما ينبغي أن تتوقَّعه عندما دخلَت إلى البهو المُبهرج لمسرح أورفيوم. ماذا ستبدو السهرة مع رجل يرتدي قبعةً مستديرة من الأعلى ومعطفًا

مشقوق الذيل مُحكَم الأزرار ذا تصميمٍ قديم كان يُفضله في ساعات العمل؟ كادت أن تتجاوز الرجل المُتأنِّق في ملبسه إلى حدٍّ ما ويرتدي صدريةً ملائمة من النسيج المُضلع وربطة عنق فراشة مربوطة بطريقة مثالية، لولا أنه جذب انتباهها.

قالت مُتلهِّفة: «السيد ريدر!»

إنه السيد ريدر حقًّا؛ حتى أزرار القميص تتناسَب تمامًا مع تلك البذَّة من آخر صيحات الموضة ويرتدي حذاءً لامعًا مُدبَّبًا من عند الأصابع. السيد ريدر شأنه شأن رجالٍ كثيرين، يرتدي الملابس التي تُرضيه في ساعات العمل، ولكنه يقبل اقتراحاتِ الخياط بشأن التأنُّق في الملبس من دون تفكير. لم يهتمَّ السيد جيه جي ريدر يومًا بأمور الملابس مُطلقًا — سواء أكانت أنيقةً أم لا — ولكنه مع ذلك، كان يهتم بشدة بمسئوليته الغريبة.

أخذ رِداءها الخارجي (سبق أن اشترى برنامجَ فِقرات المسرح وصندوق شوكولاتة كبيرًا حمله من شريط الساتان المربوط به). باقٍ من الزمن رُبعُ ساعة على رفع الستار، وشعرت مارجريت بضرورة تقديم تعليل.

«تحدثت عن «شخص» آخر؛ هل تقصد روي؛ الرجل الذي يُقابلني في بعض الأحيان عند وستمينستر؟»

قصد السيد ريدر هذا الشاب. قالت: «كنَّا صديقَين حميمين، لا أكثر من ذلك؛ ولم نَعُد صديقين مُقرَّبين الآن.»

لم تذكر السبب. ربما عللت الأمر في جملةٍ واحدة لو قالت إن والدة روي تُغالي في تقدير صفات ابنها الوحيد الجسدية والعقلية، وأن روي يُؤيد رأي والدته تأييدًا تامًّا، ولكنها لم تقُل شيئًا.

قال السيد ريدر بنبرة حزينة: «آه». بعد هذه المحادثة مباشرة، قطعتِ الأوركسترا أيَّ أملٍ في إكمال الحوار، حيث كانا يجلسان في الصف الأول في أقرب نقطةٍ إلى ضجيج الآلات النحاسية كما أنهما ليسا بعيدَين عن صخَب آلات النفخ الخشبية. وفي بعض الأحيان، وعلى مدار الفصل الأول المُثير، كانت تسترقُ النظر إلى رفيقها. توقَّعَت أن تجد هذا الرجل مُستمتعًا قليلًا أو ضَجِرًا بعض الشيء من التناقُض السخيف بين الحقائق التي يعرفها والعروض المسرحية التي تُقدَّم على المسرح. ولكنها كانت كلما نظرَت إليه، تجده غارقًا في أحداث المسرحية؛ ربما شعرَت به يرتجف عندما رُبِط البطل في جذع شجرة وأُلقي به من فوق الجبل في التيارات المائية الجارفة، وأيضًا عندما أُنقِذ البطل على المسرح بينما يُسدَل الستار، سمعت — بشيء من التعجب — السيد ريدر يتنفَّس الصُّعَداء ارتياحًا.

لَمَّا أُضيئت الأنوار في صالة العرض، قالت مُحتجَّة: «اصدُقني القول يا سيد ريدر، ألا تسأم من هذا؟»

«هذا؛ تقصدين المسرحية؛ أسأم منها؟ يا إلهي، كلَّا! أعتقد أنها جيدة جدًّا، جيدة للغاية.»

«ولكن الواقع غير ذلك، أليس كذلك؟ القصة بعيدة الاحتمالِ تمامًا، كما أن الأحداث ... أوه، نعم، إنني أستمتع بها؛ أرجو ألا تنزعِج هكذا! كل ما هنالك أنني اعتقدتُ أنك بما تعرفه عن عِلم الإجرام ... هل استخدمتُ المصطلح الصحيح؟ ... لن تستمتع بها إلى هذه الدرجة.»

نظر إليها السيد ريدر بقلق.

«أخشى أن المسرحية ليست من النوع ...»

«أوه، إنها كذلك ... أحبُّ الميلودراما. ولكن ألا تصدمك هذه الأحداث باعتبارها ... بعيدة الاحتمال؟ على سبيل المثال، ألا يصدمك هذا الرجل الذي رُبِط في جذع شجرة وتلك الأم التي تُوافق على قتل ابنها؟»

حكَّ السيد ريدر أنفه مفكرًا.

«عصابة بيرموندزي قيَّدَت هاري سولتر بالسلاسل في لوحٍ خشبي، وقلبَته ثم أسقطته، وقع الحادث في الجهة المقابلة لسوق بيلينجسجيت. حضرت إعدام تود رو واعترف بجريمته وهو على مقصلة الإعدام. وكانت «لي» وهي والدة بيرسون هي التي سمَّمته في تيدينجتون للحصول على أموال التأمين كي تتزوَّج مرةً أخرى. حضرتِ المحاكمة وتلقَّت الحُكم وهي تضحك؛ والآن، ما الأحداث الأخرى التي تضمَّنَها ذلك الفصل؟ أوه، نعم، أتذكر أن صاحب ورشةٍ لنشر الخشب حاول أن يُجبر شابةً على الزواج منه بتهديدها بسجن والدها. وقعت هذه الأحداث مئات المرات؛ ولكن بصورة أسوأ. في الحقيقة، لا يُوجَد شيء مُبالَغ فيه في الميلودراما سوى أسعار المقاعد، وعادةً ما أحصل على التذاكر مجانًا!»

استمعَت في البداية وهي لا تكاد تُصدق، ثم راحت تُقهقه مُستمتعة.

«يا للعجب ... ومع ذلك ... حسنًا، بصراحة، لم أشاهد الميلودراما سوى مرةٍ واحدة في حياتي، ولا أصدقها حتى الآن. ما الذي يحدث في الفصل الثاني؟»

اطَّلع السيد ريدر على البرنامج لديه.

قال بالتحديد: «أعتقد أن الفتاة التي ترتدي فستانًا أبيضَ ستتعرَّض للأَسْر وتنتقل إلى حريم حاكِم شرقي.» وضحكت الفتاة هذه المرةَ بصوتٍ عالٍ.

سألتْ وهي تشعُر بنشوة النصر: «هل مرَّت عليك قصة كهذه؟» واضطُرَّ السيد ريدر أن يعترف بأنه لم يمرَّ بقصةٍ مُماثلة، ولكن …

قال: «إنها مصادفة لافتة للنظر، مصادفة لافتة للنظر كثيرًا!»

نظرت إلى البرنامج لديها، وتساءلت لو أنها غفلت عن أي شيءٍ لافت للنظر كثيرًا.

«في هذه اللحظة، يُوجَد رجل يُراقبني من الصف الأمامي في مقاعد الشُّرفة؛ أرجو ألا تُديري رأسك، إن لم يكن حاكمًا فلا شك أنه شرقي؛ في الحقيقة يُوجَد رجلان من أصحاب البشرة السمراء، ولكن يُعتبَر واحد منهما فقط مُهمًّا.»

سألت متفاجئة: «ولكن لماذا يُراقبانك؟»

قال السيد ريدر بجدية: «ربما لأنني أبدو لافتًا للنظر كثيرًا في ملابس السهرة.»

في تلك اللحظة، التفت أحد الرَّجلَين ذَوَي البشرة السمراء إلى رفيقه.

«إنها المرأة التي يذهب معها كلَّ يوم؛ إنها تعيش في الشارع ذاته، ولا شك أنها تُهمه أكثر من أي شخصٍ في العالَم يا رام. انظر كيف تضحك في وجهه وكيف ينظر إليها صاحبنا العجوز! عندما يشيب الرجل، يُصبح سخيفًا تجاهَ المرأة. يمكن إنجاز هذا العمل الليلة. أُفضِّل الموت هنا ولكن لن أعود إلى بومباي من دون إنجاز عملي مع هذا الرويبضة.»

واقترح رام — وهو السائق والحليف وزميل السجن الذي وُضِع في قالبٍ أقلَّ بطولةً كما أنه ليس له ثأرٌ شخصي— مُتعجلًا التروِّيَ في الأمر.

قال راس لال باللغة الإنجليزية: «فكرتُ مَليًّا في كل فرضيةٍ وفي نتائجها المنطقية.»

قال رفيقه على عجل: «ولكن يا سيدي أليس من الحِكمة أن نترك هذا البلد ونجنيَ ثروة من الأموال الجديدة التي سيبيعها لنا الرجل البدين القصير؟»

قال راس لال بالإنجليزية: «الثأر ثأري.»

جلس طيلة الفصل التالي، الذي دارت أحداثه كما قال السيد ريدر تمامًا حول خداع فتاة بريئة حتى وقعَت في براثن باشا تركي؛ وأثناء مشاهدة تطوُّر الأحداث، ظلَّ يُراجع مُخططه. لم ينتظر حتى أن يُشاهد أحداث الفصلَين الثالث والرابع؛ إذ كانت هناك تحضيراتٌ لا بدَّ من إنجازها.

لمَّا مشَت مارجريت مع السيد ريدر عبر الرِّواق المُزدحِم، قالت: «ما زلتُ أعتقد أنه على الرغم من أن القصة مُثيرة للغاية، إلا أنها مُستحيلة تمامًا. في الحياة الواقعية، في البلدان المُتحضرة، أعني … لا يظهر الرجال المُقنَّعون فجأة من العدم ومعهم مُسدسات ويقولون «ارفع يديك!» هذا ليس حقيقيًّا، أليس كذلك يا سيد ريدر؟» قالت هذا مُلاطِفة.

تمتمَ السيد ريدر بموافقةٍ على غيرِ رضًا منه.

قالت مُتحمسة: «لكني استمتعتُ بها كثيرًا!» ولَمَّا نظر السيد ريدر إلى الوجه المُتورِّد، أحسَّ بشعورٍ غريب لم يكن سرورًا تامًّا ولا ألَمًا تامًّا.

قال: «سعدتُ للغاية.»

انفضَّ الجالسون في مقاعد الشرفة وصالة العرض إلى البَهْو، وظلَّ ينظر حوله بحثًا عن وجهٍ رآه حينما وصل. ولكن لسوء الحظِّ لم يظهر راس لال ولا رفيقه. كان المطر يهطل زخَّات، ومر بعض الوقت قبل العثور على سيارة أجرة.

لَمَّا جلس بجوار مارجريت، ابتسمت وقالت: «يا لها من فخامة. يُمكنك التدخينُ إذا رغبت.»

أخرج السيد ريدر علبة سجائر ورَقية من جيب صدريته، واختار سيجارةً رفيعةً وأشعلها.

قال وهو يرمي عود الثقاب بحذرٍ من بين حافة زجاجِ النافذة والإطار: «المسرحيات لا تُشبه الحياةَ الواقعية تمامًا أيتها الفتاة. تستهويني مسرحياتُ الميلودراما لِما فيها من مثالية.»

التفتَت وحملقَت فيه.

كرَّرَت وهي لا تكاد تُصدق: «مثالية؟»

أومأ ريدر.

«هل سبق أن لاحظتِ خُلوَّ الميلودراما من مشاهدِ الإسفاف؟ شاهدت مرةً دراما كلاسيكية — «أوديب» — وأشعرَتْني بالغثيان. في الميلودراما، حتى الأشرار يُؤدُّون أدوارًا بطولية، والعبرة الحتمية والثابتة هي «الحق سينتصِر في النهاية حتى وإن غاب في البداية.» أليست هذه مثالية؟ كما أنها صحية للغاية. لا تُوجَد مشاكلُ جنسية، ولا تُعرَض الأشياء غير السارَّة مُطلقًا بطريقةٍ جاذبة؛ ولذا تسمو بالنفس.»

ابتسمت قائلة: «لو أنك صغير في السن قليلًا.»

قال السيد ريدر بهدوء: «يجب أن يتحلَّى المرء بروح الشباب كي يبتهِجَ بانتصار الفضيلة.»

عبرا جسر وستمينستر واتَّجها يسارًا إلى طريق نيو كِنت. من خلال النوافذ التي تعتَّمَت بسبب المطر، التقطَ جيه جي المَعالمَ المألوفة وأمسى يُقدِّم تعليقاتٍ عليها وكأنه مُرشد. لم تُدرك مارجريت من قبل أن التاريخ صُنع في جنوب لندن.

«كانت تُوجَد مشنقة في هذا المكان ... محطة البضائع ذات المنظر القبيح هذه كانت المِحطةَ الختامية لأول خط سكك حديديَّة في لندن ... ركبت الملكة أليكساندرا من هذا المكان عندما تزوَّجَت ... أُطلِق على الطريق جهة اليمين بعد عبور جسر القناة اسمٌ غريب وهو بيرد إن بوش ...»

أتت سيارة كبيرة وسارت حَذْوَ سيارة الأجرة، وأخذ السائق يَصيح بشيءٍ ما إلى سائق سيارة الأجرة. حتى السيد ريدر المُتشكِّك ظنَّ أن الأمر مجرد تبادُل شتائم حتى انعطفَت سيارة الأجرة فجأة إلى الطريق الذي كان يتحدَّث عنه. وتأخَّرَت السيارة، ولكنها تقترِب الآن.

قال جيه جي: «ربما الطريق الرئيسي مزدحِم.» وفي تلك اللحظة تباطأت سيارة الأجرة وتوقفَت.

حاول الإمساك بالمِقبض حينما فُتِح الباب بعُنفٍ ورأى السيد ريدر رجلًا عريض المنكبَين يقف على الطريق في الضوء الخافت.

«ترجَّلَ بسرعة!»

كان الرجل يُمسِك في يده مُسدسَ كولت أسود طويلًا وكان وجهه مُغطًّى بقِناع من الذقن حتى الجبهة.

«بسرعة، وارفع يدَيك!»

نزل السيد ريدر في المطر وأوشك أن يُغلق الباب.

«والآنسة أيضًا؛ انزلي هيا!»

«ما الذي يجري هنا؟ أخبرتَني أن طريق نيو كروس مغلق.» كان المُتحدِّث هو سائق سيارة الأجرة.

«هذه ورقة بخمسة جنيهات ... أبقِ فمَك مغلقًا.»

رمى الرجلُ المُقنَّع ورقة نقدية إلى السائق.

«لا أُريد مالك ...»

سأل راس لال مُتهكِّمًا: «هل تريد أن تخترق تلك الرصاصةُ صدرك يا صديقي؟»

تبعت مارجريت رفيقها إلى الطريق في تلك اللحظة. توقفَت السيارة خلف سيارة الأجرة مباشرةً. وُضِعَت فوهة المسدس في ظهر السيد ريدر ومشى إلى الباب المفتوح ودخل السيارة. تبعته الفتاة وقفز الرجل المُقنَّع خلفهما وأغلق الباب. وعلى الفور فاضت السيارة بالنور من الداخل.

«هل هذه المفاجأة تليق بمُحقِّق ماهر وذكيٍّ في الشرطة؟»

جلس الخاطف في المقعد المقابل ومُسدَّسُه على ركبتَيه. ومن خلال الفتحات في القناع الأسود، لمعت عينان بُنِّيتان خبيثتان. لكن تفكير السيد ريدر انصبَّ على الفتاة. تغيَّر لون وجهها من الصدمة، ولكن لحُسن الحظ لاحظَ أن الشعور المُسيطر عليها ليس الخوفَ. أفقدها الذهولُ القدرةَ على الحركة، وباتت لا تستطيع الكلام.

استدارت السيارة وسارت مُسرعةً عائدة في الطريق الذي أتَوا منه. شعر بالصعود على جسر القناة، ثم استدارت السيارة فجأة إلى اليمين وبدأَت في النزول من فوق منحدرٍ حاد. كانوا يسيرون باتجاه روثرهيث؛ فالسيد ريدر يعرف طبوغرافية لندن عن ظهر قلب.

لم تستغرق الرحلة وقتًا طويلًا. شعر أن عجلات السيارة تتخبط على طريق غير مُعبَّد لمسافة مائة ياردة، ظلَّت السيارة تتأرجح على الطريق بطريقةٍ غيرِ مُريحة، ثم توقفت فجأةً بالضغط على الفرامل.

وقفوا في حارةٍ طينية ضيقة. على أحد الجوانب، تُوجَد قناة ذات سقفٍ مُقوَّس لخطِّ سككٍ حديديَّة، وعلى الجانب الآخر أرضٌ فضاء مُحاطة بسورٍ عالٍ. من الواضح أن السائق توقف بعيدًا عن وجهتهم؛ لأنهم اضطُرُّوا إلى الخوض والانزلاق على الوحل لمسافة خمسين ياردة أُخرى قبل أن يصلوا إلى بوابةٍ ضيقة في السور. دخلوا إلى مَمرٍّ أسطوانيِّ الشكل يؤدي إلى مبنًى مُربع وخمَّن السيد ريدر أنه كان مصنعًا صغيرًا في يوم ما. أضاء خاطفُهم مصباحًا على الباب وقرأ المُحقق عبارةً تآكلَت حروفها وهي:

«شركة ستورن فيلتون للجلود».

لمَّا أضاء الرجل النور، قال: «والآن! والآن أيها الشرطي الكاذب والفاسد، لديَّ فاتورة بسيطة ينبغي تسويتُها معك.»

كانوا في ردهة مُغبرة ومحاطةٍ بالألواح المُعشَّقة في ثلاثة جوانب.

تمتم السيد ريدر: ««حساب»؛ تلك هي الكلمة التي تريدها يا راس لال.»

صُدِم الرجل لدقيقةٍ ثم خلع القناع من فوق وجهه وقال:

«أنا راس لال! وستندم على ما فعلت! هذه ليلةٌ ستُعاني فيها أنت والفتاة من الرُّعب!»

لم يضحك السيد ريدر على اللكنة الإنجليزية الغريبة. البندقية التي في يد الرجل تحدَّثَت كلَّ اللغات بدون أخطاء، ويُمكن أن تقتل عندما تكون في يدِ مُهرِّج غير واعٍ تمامًا كما تفعل عندما يُمسك بها أشرسُ الرجعيِّين.

انتابه القلق بشأن الفتاة: فهي لم تتفوَّه بكلمة منذ أسرهما. تورَّدَت وجنتاها مرةً أخرى، وكانت هذه إشارةً جيدة. كان هناك لمعانٌ في عينَيها لم يربطه ريدر بالخوف.

أخذ راس لال حبلًا طويلًا مُعلقًا على مسمارٍ في حاجزٍ خشَبي، ولكنه بات مُتردِّدًا.

قال وهو يهزُّ كتفيه: «ليس ضروريًّا، تعرفت على ما يكفي من الغرفة ... لن تتسبَّب في المتاعب هناك.»

فتح الباب وأمرَهما بالمرور وصعود الدرَج غير المفروش المواجِه لهما. في الأعلى، تُوجَد بسطة وباب حديدي كبير مُثبَّت في الطوب الصُّلب.

سحب المِزلاج الحديدي ودفع الباب، ففتحه مُحدِثًا صريرًا. كانت غرفة كبيرةً ومن الواضح أنها استُخدِمت من قبلُ لتخزين شيءٍ سريع الاشتعال؛ لأن الحوائط والأرضية مصبوبة بالخرسانة الخشنة ويُوجَد كتابة على مكتب مُغبر تقول: «خطر. ممنوعٌ التدخين في هذا المخزن». لا يُوجَد نوافذ ما عدا نافذةً مُربعة بطول ثماني عشرة بوصة أعلى الجدار بالقُرب من السقف. في أحد أركان الغرفة، تُوجَد كومة من الملفات الورقية المُتَّسخة، ويُوجَد على المكتب عشراتُ الصناديق الخشبية الصغيرة كان أحدها مفتوحًا لأن الغطاء ذا المسمار المُنتصِب كان مرفوعًا من إحدى الزوايا.

وقف راس لال عند الباب مُمسكًا مُسدَّسه الذي يتباهى به، ثم قال: «أمتع نفسك لمدة نصف ساعة أو ربما أربعين دقيقة. في خلال ذلك الوقت سآتي من أجل تلك الأُنثى؛ وغدًا سوف تصعد على سفينةٍ معي للذَّهاب إلى ... أها، مَن يعلم إلى أين؟»

قال السيد ريدر: «أغلِق الباب خلفك وأنت خارج، يُوجَد تيار هواء شديد البرودة.»

أتى السيد تومي فينالو سيرًا على الأقدام في الساعة الثانية صباحًا، ولَمَّا عبر الحارة المُوحِلة، كشف مصباحه الكهربائي فجأةً عن آثار سيارة. وقف تومي وكأنه أُطلِق عليه النار. ارتعدَت فرائصه ووقَع قلبه في قدمَيه حينما أتى إلى البوابة الضيقة. ظلَّ لبعض الوقت لا يعرف هل الأفضل أن يجريَ أم يمشي مُبتعدًا. ليست لديه نية في التقدُّم. بعد بُرهة، سمع صوتًا. إنه مساعد راس لال، وكاد أن يُغمى عليه من الفرحة. مشى مُتعثرًا وأتى إلى الرجل الذي يرتجف.

سأل هامسًا: «هل أتى سيدُك الأحمق بالسيارة إلى هنا؟»

قال رام الذي لم تكن اللغة الإنجليزية قويةً لديه: «نعم، السيد راس لال.»

قال تومي مُتذمرًا: «إذن فهو أحمق! يا إلهي! لقد ارتعدت فرائصي!»

لَمَّا كان رام يستجمعُ الكلمات الإنجليزية لشرح ما حدث، تجاوَزَه تومي. وجد عميله يجلس في الردهة وسيجارة شيروت بين أسنانه وترتسِم على وجهه الأسمر ابتسامةٌ تنمُّ عن الرِّضا.

قال بينما يُغلق تومي الباب: «مرحبًا! أوقَعْنا الثعلبَ المكَّار في الفخ.»

قال الآخر باستياء: «لا تهتمَّ بالثعلب المكار. هل حصلتَ على الروبيات؟»

هزَّ راس لال رأسه.

قال السيد فينالو مُتوجسًا: «ولكني تركتها في المخزن؛ عشَرة آلاف روبية. ظننتُ أنك حصلت عليها وهربت قبل هذا.»

«لديَّ شيء أهم في المخزن، تعال وانظر يا صديقي.»

صعد السُّلَّم أمام تومي المُرتبِك وأضاء مصباح البسطة وفتح الباب.

قال: «انظر ...» ولم يقل غيرَ هذا.

قال السيد جيه جي: «عجبًا، إنه السيد فينالو!»

تُمسِك يدٌ رزمةً من الروبيات التي تُشبه الحقيقية تقريبًا؛ بينما تُمسك اليد الأخرى ...

همس تومي: «كان عليك أن تعرف أن معه مُسدَّسًا أيها القِرد الأسود الملعون. والعجب أنك وضعته في غرفة تُوجَد بها البضاعة ويُوجَد بها هاتف!»

اقتِيدَ إلى قسم الشرطة المَحلِّي وقُيِّد بالأصفاد مع رفيقه في ذلك الوقت.

قال راس جادًّا: «سأقول للقاضي في الصباح إنها كانت مجرد مزْحة أو مزحة ثقيلة.»

تضمَّن ردُّ تومي فينالو الكثيرَ من الشتائم.

أعلنت كنيسة سانت جون دقَّات الساعة الثالثة وصحب السيد ريدر الفتاة المُتحمِّسة إلى الباب الأمامي للنزل الذي تسكن فيه.

قالت: «لا أستطيع التعبير عن ... مدى استمتاعي بالليلة.»

نظر السيد ريدر غيرَ مرتاح إلى الواجهة المُظلِمة من السكن.

«أرجو ... اممم ... ألا يَلفِت رجوعُك في هذه الساعة المُتأخِّرة انتباهَ أصدقائك ...»

على الرغم من أنها طمأنَته، عاد ببطءٍ إلى المنزل وهو يشعُر بعدم الارتياح بأن يُصبح اسمها على ألسِنة الناس. وفي الميلودراما، عندما يُصبح اسم البطلة على ألسنة الناس، فلا بدَّ أن يتزوَّجها أحدٌ ما.

التفكير في هذا الأمر أقضَّ مضجع السيد ريدر طوال الليل.

القصة السادسة: أفعى المامبا الخضراء

روح الاستكشاف دمَّرت مِهنًا واعدةً أكثرَ مما دمَّر شربُ الخمر ولعب القمار واللهَثُ وراء النساء. وبوجهٍ عام، مسارات الحياة المُجرَّبة هي الأكثرُ أمانًا، وغامرت قلةٌ من الرجال وخاضت طرقًا مجهولة سعيًا وراء جمع ثروةٍ بطرُق سهلة، ولم يُفكروا في تلمُّس الطرق التي سبق سبرُ أغوارِها، ولذلك أضاعوا طريقَهم مثلما أضاعوا أعظمَ إنجازاتهم.

وصل مو ليسكي إلى مكانةٍ مرموقة في عالمه واكتسب هذه المكانة بالسعي الدَّءوب وحتى العنف، وهذه من ضِمن صفاته المُتعددة. ربما تمكَّن من الاستمرار حتى النهاية، ولكنه وقع في براثن أعمالٍ خارج طريقه، كما أنه أوقع نفسَه في عداءٍ خاصٍّ، بدأ في عمل بعيد كلَّ البعد عن أعماله المعتادة.

كان هناك مُحتالٌ مغربي اسمه الراهبوت زار إنجلترا عدة مرات، وكان يسافر في السفن السريعة التي تسافر من نهر لندن إلى خليج فونشال ولاس بالماس وطنجة وأخيرًا بورتو. كان رجلًا مَغربيًّا عاديًّا جدًّا ذا وجهٍ أصفر وبه أثرُ بثرات، وذا جسمٍ ضئيل، ويتحدَّث الإنجليزية، إذ وقع في شبابه في يدِ مُبشِّر أمريكي حسَنِ النية. استفاد مو من هذا الرجل — الراهبوت — كثيرًا لأن الكثير من المُخدرات الألمانية تُشحَن من ميناء ترييستي إلى بلاد الشام، والكثير من صناديق البرتقال كانت تنزل في الحوض ويُوجَد بداخل كلِّ برتقالةٍ أسطوانةٌ معدنية صغيرة تحتوي على موادَّ مُهرَّبة من السكارين والهروين والكوكايين والهيدروكلورات، وغيرها من العقاقير الضارة الأخرى.

راهبوت يُحضِر هذه الأشياء من وقتٍ لآخَر، ومن ثَم يتقاضى أجرًا جيدًا يُرضيه. في أحد الأيام في حانة «ذا فور جولي سي مِن» أخبر مو عن عملية سرقةٍ كبيرة. العملية ارتكبها مجموعةٌ من لصوص أنغيرا يعملون في فاس، ولم تقلَّ المسروقات في قيمتها عن زمُرد

الملك سليمان؛ إنها أثمنُ مُمتلكات المغرِب. لم يجرؤ حتى الملك عبد العزيز في أيام إفلاسه الأسوأ أن ينقلها من مسجد عمر؛ ولمَّا كان رجال أنغيرا على ما هم عليه، اقتحَموا المسجد المُقدَّس وقتلوا حارسَين من حُرَّاس الكنز، وهربوا بالأحجار الخضراء التسعة الخاصة بالملك العظيم. بعد ذلك، أُطلِقَت صرخة سُمِعت من أسواق كالكوتا إلى شوارع مارسي كارسي. ولكن رجال أنغيرا تغلَّبوا على صوت الرأي العام، ولم يفعلوا أكثرَ من السعي وراء مُشترٍ. ولأن الراهبوت شخصية سيئة السُّمعة، دخل في المسألة؛ وفيما يلي القصةُ التي حكاها لمو ليسكي في حانة «ذا فور جولي سي مِن» في إحدى ليالي أكتوبر التي يكسُوها الضباب.

قال راهبوت: «مكسبُ هذه العملية مليون بيزيتا لك ولي أيها الرجل الطيِّب (كل الأوروبيين الذين يدفعون نقدًا وفي الحال، يدعوهم الراهبوت باسم «الرجل الطيب»). إذا أُفشِي هذا الأمر، فستكون نهايتي.»

استمع مو وهو يلمس ذقنه بيده المُبهِرة بلمعانها وتوهُّجِها. إنه يحرص على التزيُّن. كانت هذه العملية خارج إطار أعماله بعض الشيء، ولكن ذكرت الصحف القِيمةَ المُجرَّدة للمُسروقات، ومن ثَم جرى الدمُ في عروقه من احتمال كسب نصف مليون بمُنتهى السهولة. لم ينزعج كثيرًا من فكرة أن شرطة سكوتلاند يارد وجميع مراكز الشرطة في العالَم تبحث عن أحجار الملك سليمان التسعة. إنه يعرف الطرُق السرية التي ربما تُخفَى فيها هذه الأحجار المصقولة؛ وإذا حدث الأسوأ، فهناك مكافأة قيمتها خمسةُ آلاف جنيه إسترليني مُقابل إعادة هذه الجواهر.

«سأُفكر في الأمر، أين البضاعة؟»

فوجئ الآخرُ حينما قال راهبوت: «هنا. يُمكنني أن أضعَها في يدك في غضون عشر دقائق أو عشرين دقيقة أيها الرجل الطيب.»

بدا أنهما دخَلا في مفاوضة مباشرة؛ بلغ سُوء الحظ مَبلغَه في تلك الفترة؛ لأنه وجد نفسه مُتورطًا في مسألةٍ لا تَعِدُ بأي ربحٍ؛ ألا وهي نزاع ماريلو بليسي الذي بات نزاعًا معه بسبب احترامه الكبير للسيدة.

عندما تكون المرأة سيِّئة، فعادةً ما تكون سيئةً بحق، وماريلو بليسي امرأة خبيثة لأقصى درجة. امرأة طويلة وجميلة شعرُها أسود وأملس وذات غُرَّة سوداء وكثيفة مقصوصة مثل غُرة الأطفال تُغطي جبهتها المُميزة بعض الشيء.

رآها السيد ريدر مرةً واحدة؛ كان في المحكمة الجنائية المركزية يُدلي بشهادته ضد بارثولوميو زافييه بليسي، وهو من سكان فرنسا الأصليِّين واكتشف طريقةً جديدة لتزوير

النقود القديمة. يصعُب اكتشاف عمليات التزوير التي يرتكبها، ولكن السيد ريدر ليس رجلًا عاديًّا. فهو لم يكتشف التزوير فحسْب، بل تتبَّع الطابعة ولذلك واجه بارثولوميو زافييه قاضيًا لم يتعاطف معه إذ أخبره بصوتٍ خافتٍ مدى خطورة خفض قيمة العملة ومدى خطورتها على جذور حياتنا التِّجارية والصناعية. لم يمتعِض الرجل الماثِل في قفص الاتهام صاغرًا. إنه يعرف كل هذا. بل لم يُفاجَأ إلا من الكلمات المُقتضبة الفظَّة التي تفوَّه بها القاضي في النهاية.

«حكمتُ عليك بالسجن لمدة عشرين سنة مع الأشغال الشاقة.»

حُبُّ ماريلو للرَّجُل مسألةٌ تحتمِل الشك. يُحتمَل أنها لم تُحبه؛ ولكنها كرهت السيد ريدر، ولم تكرهه لأنه السبب في سجن زوجها، لكن لأنه استخدم عبارة «المرأة التي يرتبط بها السجين.» في سياق الإدلاء بشهادته. ولو أراد السيد جون ريدر لوضعها هي الأخرى في قفص الاتهام مع بليسي: وقد عرَفَت ذلك أيضًا وأبغضته بسبب رحمته.

تمتلك السيدة بليسي شقةً كبيرة في شارع بورتلاند. تقع الشقة في مجمعٍ سكَني تمتلكه هي وزوجها مشاركةً؛ لأنهما كسَبا أموالًا طائلة من الطرُق غير المشروعة، كما امتلك السيد بليسي خيولَ سباقٍ من قبلِ أن يمتلك رقمًا في سجن باركهرست. ومِن ثَم أنفقت ماريلو على وسائل الترفيه ببذخ.

بعد بضعة شهور من دخول زوجها السجن، تناولت العَشاء على انفرادٍ مع مو ليسكي، أكبر زعماء العصابات والإمبراطور غير المُتوَّج لعالَم الجريمة. كان رجلًا ضئيلًا وأنيقًا يرتدي نظارة أنفية ويبدو وكأنه من ذَوي المِهن العِلمية. ومع ذلك فهو يحكُم عصابة سترافاس وسوليفانز وبيركلوز، وكلمته تسري قانونًا على اثنَي عشَر مضمارًا للسباق، وعددٍ من نوادي القمار وعدد لا يُحصى من المؤسسات غير الخاضعة لرقابة الشرطة. دائمًا ما كان «يخسف الأرض» بخصومه بفُجور، ويُشيد به القادة المنافسون بشكلٍ أو بآخر وهم على وجَل. فرض رسومًا على وُكلاء المُراهنات وتحصَّن من تدخُّل الشرطة بسبب فشلِها في إدانته مرَّتَين.

نظرًا إلى وجود البُقَع البيضاء في المعطف الأحلك سوادًا؛ فقد كانت لديه هذه السِّمة الفُضلى، أن ماريلو بليسي هي امرأته المثالية، ولا شكَّ أن كل لصٍّ يمتلك مُثُلًا، مهما كانت، لا تستحقُّ الاتباع.

بات يُنصِت لآراء ماريلو ويلعب في سلسلة ساعة الجيب وعيناه على تطريز مفرش المائدة. ولكن على الرغم من حُبِّه لها، إلا أن الحذَر المُتأصِّل في طباعه حملَه على التصرُّف بمنطقية.

قال: «حسنًا يا ماريلو. أستطيع القول بأنني ربما أتمكن من التخلُّص من ريدر، ولكن ما الذي سيحدُث بعد ذلك؟ لن يمرَّ الأمر من دون أن يسمع به أحد! كما أنه شخص خطير. لم آبَهْ مُطلقًا بشأن الأشخاص العاديِّين، ولكن هذا العجوز يعمل في مكتب النائب العام، وما كان ليتقلَّد هذه الوظيفة لو كان أبلهَ. والآن عقدتُ واحدة من أكبر الصفقات التي وقعَت في طريقي. هلا أنجزتِ هذا «العمل» بنفسك؟ أنت امرأة ذكية؛ ولا أعرف أحدًا أذكى منك.»

قالت بازدراء: «بالطبع، إذا كنتَ تخاف من ريدر!» وارتسمَت ابتسامةٌ متسامحةٌ على شفتَيه الرفيعتَين.

«أنا؟ لا تكوني سخيفةً يا عزيزتي! أَريهِ مَن تكونين. إن لم تستطيعي النيلَ منه، فأخبِريني. خائف منه! اسمعي! لو أردت، فبإمكاني نتْفُ ريش هذا الطير العجوز وطهيُه قبل أن تتلفَّظي وتقولي «مو ليسكي»!»

لا يشكُّ أحد في مكتب النائب العام في قُدرة السيد ريدر على الاعتناء بنفسه، وعندما أتى كبير المُفتشين باين من شرطة سكوتلاند يارد للإبلاغ بأن ماريلو كانت في اجتماعٍ مع أخطر رجل في لندن، ابتسم مساعد النائب العام ابتهاجًا.

«كلَّا، لا يحتاج ريدر إلى الحماية. سأُخبره إذا أردت، ولكن لا تستبعِد أنه يعرف كلَّ شيءٍ عن الأمر. ما الذي تفعلونه حيال عصابة ليسكي؟»

علا الحزنُ وجهَ باين.

«ألقينا القبضَ على ليسكي مرَّتَين، ولكن أنقذَته شهادة زور رُتِّب لها جيدًا. لا يُريد مساعد المُفوَّض القبضَ عليه مرة أخرى حتى نُمسكه في حالة تلبُّس، إذا جاز التعبير. إنه خطير.»

أومأ مساعد النائب العام.

وقال مُنذرًا: «وكذلك ريدر. هذا الرجل مثل أفعى المامبا! ألم ترَ المامبا من قبل؟ إنها حيةٌ سوداء، وسمُّها يقتلك في غضون دقيقتَين من اللدغ!»

ارتسمَت ابتسامةُ رَيب على شفتَي كبير المُفتشين.

«لم يُعجبني إلى هذا الحدِّ قط؛ إنه أرنب، نعم، ولكن أفعى، لا أعتقد ذلك!»

في آخر فترة الصبيحة، أتى رسولٌ إلى السيد ريدر كي يذهبَ إلى مكتب الرئيس، ولمَّا وصل أبدى اعتذارًا جميلًا وخجلًا يُعطي مَن لا يعرفه انطباعًا خاطئًا عن قدراته. أنصت وعيناه مُغلقتان للرئيس وهو يُخبره عن اللقاء بين ليسكي وماريلو.

عندما انتهى الرئيس من سرد الوقائع، تنهَّد قائلًا: «نعم، يا سيدي. نمى إلى سمعي بعض الشائعات. ليسكي؟ أليس شخصًا يرتبط بشخصياتٍ خارجة على القانون؟ في أيامٍ أخرى وفي ظلِّ ظروف أنسب، كان سيُصبح قائدَ أحدِ الأحزاب الفلورنسية. إنه رجل مُثير للاهتمام. وله أصدقاء مُثيرون للاهتمام.»

حذَّره المُحامي: «أرجو أن تُبقي اهتمامك موضوعيًّا» ومن ثَم تنهَّد السيد ريدر مرةً أخرى وفتح فمه كي يتحدَّث ولكنه تردَّد، ثم سأل: «ألا يُؤثر تركُ السيد ليسكي طليقًا ... اممم ... في سُمعة الإدارة يا سيدي؟»

نظر إليه الرئيس: أتاه إلهام جعله يقول:

«اقبض عليه!»

أومأ السيد ريدر برأسه ببطء.

نمَّت نظرتُه عن حزنٍ عميق؛ وقال أخيرًا: «رأيي أن هذه فكرة جيدة. ليسكي لديه العديد من المعارف ذوي الشخصيات الغريبة. يَعرِف هولنديين وروسًا ويهودًا ... كما أنه يعرف شخصًا مغربيًّا.»

رفع الرئيس عينَيه بسرعة.

«مغربي؛ هل تُفكر في أحجار الزمُرُّد التسعة؟ يا عزيزي، يُوجَد مئات المغاربة في لندن والآلاف في باريس.»

تمتم السيد ريدر: «والملايين في المغرب. أنا أذكر المغربي على هامش الموضوع يا سيدي. أما فيما يتعلَّق بصديقتي السيدة بليسي، فلا أتمنَّى سوى الأفضل.»

ثم اختفى من الغرفة.

مرَّ أكثرُ من نصف الشهر ولم يُظهِر أيَّ اهتمام واضح بالقضية. قضى بعض الساعات يتجوَّل في حي لامبيث وشُوهِد في إحدى المرات وهو داخل باحة الأعضاء في مضمار سباق هيرست بارك، ولكنه لم يتحدَّث إلى أحدٍ ولم يتحدَّث إليه أحد.

في إحدى الليالي، عاد السيد ريدر إلى منزله المُنظَّم في شارع بروكلي ووجد صندوقًا صغيرًا مُسطحًا في انتظاره على الطاولة، وقالت مُدبرة شئون المنزل إنه وصل عبر البريد بعد ظهر اليوم. كُتِب الاسم بأحرُف مطبوعة «السيد المُحترم جون ريدر» والطابع البريدي من وسط لندن.

قطع الشريط الرفيع المربوط به الصندوق ونزع الورقة البُنِّية ثم الورقة الفِضية وكشف غطاءً حريريًّا رفعه برفق. تحت طبقةٍ من القُصاصات الورقية، تُوجَد بعض لفَّاتٍ

فوقَ بعضها من الحلويات الشهية. الشوكولاتة — سواء أكان معها إضافاتٌ لذيذة أم لا — يشتهيها السيد ريدر ومن ثَم أخذ كُرَيَةً صغيرة مُزينة بلونٍ بنفسجي مُتبلورٍ وتفحَّصها مُعجَبًا.

دخلت مدبرة شئون المنزل في تلك اللحظة ومعها صينية الشاي ووضعَتْها على الطاولة. نظر السيد ريدر من فوق نظارته الكبيرة.

سأل بنبرةٍ حزينة: «هل تُحبِّين الشوكولاتة يا سيدة كيريل؟»

قالت السيدة الكبيرة مُبتسمة: «نعم بالتأكيد يا سيدي.» قال السيد ريدر: «وأنا أيضًا. وأنا أيضًا!» وهزَّ رأسه أسفًا وأعاد الشوكولاتة بحرصٍ إلى الصندوق. أردف قائلًا: «للأسف، طبيبي — وهو رجل مُمتاز — يَمنعُني من جميع أنواع الحلويات حتى تخضعَ لاختبارٍ صارم لدى المُحلِّل العام.»

كانت السيدة كيريل امرأةً بطيئة الفهم، ولكن الاطلاع على أعمدة الإعلانات في الجرائد اليومية زاد من حصيلةَ المعرفة العِلمية لديها كثيرًا.

اقترحت: «أترى أنها تحتوي على أي فيتامينات؟»

هزَّ السيد ريدر رأسه.

قال بلُطف: «كلَّا، لا أظن ذلك. الفيتامينات هي غذائي الوحيد. يُمكنني قضاءُ ليلةٍ كاملة من دون رفقة أحد سوى هذَين الرفيقَين الصغيرَين المُهمَّين، ولا أشعُر بأي ضررٍ منهما. شكرًا لك يا سيدة كيريل.»

لمَّا خرجت، أعاد طبقة القصاصات إلى مكانها بحذَر بالِغ ووضع الغطاءَ وأعاد ربط الشريط بعناية كما كان. لمَّا انتهى، أرسل العبوةَ إلى القسم المختصِّ في شرطة سكوتلاند يارد، وأخذ من صندوقٍ صغير مُلصقًا مكتوبًا عليه «سُم» باللون الأحمر. ولمَّا فعل ذلك، كتب ملاحظة إلى الرجلِ المَعنيِّ، ثم التفتَ إلى كعكاته وكوب الشاي الكبير الخاص به.

دقَّت الساعة السادسة والربع مساءً عندما أزال غلاف الشوكولاتة. ودقَّت الحادية عشرة والربع بالضبط عندما أطفأ الأنوار استعدادًا للذَّهاب إلى النوم، وعندها قال بصوتٍ عالٍ:

«ماريلو بليسي، يا إلهي!»

ها قد بدأتِ الحرب.

وقع هذا الحدث مساء الأربعاء؛ وفي صباحِ الجمعة، قُوطِع تزيُّن ماريلو بليسي بوصول رجلَين كانا في انتظارها عندما دخلت إلى غرفة الاستقبال وهي ترتدي قميصًا شفَّافًا. تحدَّثا عن بصمات أصابعَ وجَداها على الشوكولاتة ومسائل أخرى.

بعد نصف ساعة، قبعَت امرأةٌ مشدوهة في الحجْز الكائن في شارع هارلبورو وجلست تستمِع إلى المُفتش وهو يسرد عليها تُهمتَها. في الجلسات التالية، حُكِم عليها بالسجن لمدة سنتَين بتهمة «إرسال مادة سامَّة بنبات الأكونيت عن طريق البريد إلى جون ريدر بنيَّة قتله».

جلس مو ليسكي حتى نهاية المحاكمة، افتضح عمقُ الحُبِّ الذي يُكِنُّه للمرأة الماثلة في قفص الاتهام بالحزن والأسى اللذين كسوا وجهَه. بعدما أُخِذت من قفص الاتهام، خرج إلى الصالة الكبيرة المفتوحة، وهناك وفي تلك اللحظة بدرَ منه أولُ خطأ.

بينما كان السيد ريدر يرتدي قفازه الصوفي، توجَّه إليه الرجل المتأنِّق.

«هل أنت ريدر؟»

«نعم، يا سيدي.»

نظر إليه السيد ريدر من فوق نظارته نظرةً طيِّبة. وقف وكأنه شخص أعدَّ نفسه لتلقِّي التهاني.

«أنا مو ليسكي. تسبَّبتَ في حبس صديقةٍ لي ...»

«السيدة بليسي؟»

«نعم، أنت تعرف! سأنال منك يا ريدر جرَّاء هذا!»

وفي لحظتها، أمسكه شخصٌ من ذراعه مسكةً قوية ولفَّه نحوه. إنه مُحقِّق شرطة المدينة.

قال: «هلا صَحبتَني قليلًا.»

شحب لون مو. تذكَّر أن قوة مركزه نابعة من حقيقة أنه لم يُدَن مُطلقًا؛ اسمه ليس مُقيدًا في السجلَّات.

سأل بصوت أجشَّ: «ما التهمة؟» قال الضابط: «إرهابُ شاهدٍ من مكتب المُدَّعي العام واستخدام لغة التهديد.»

مثَل مو أمام أعضاء المجلس التشريعي في جيلدهول في صباح اليوم التالي وحُكِم عليه بالسجن لمدةِ ثلاثة أسابيع، ولَمَّا كان السيد ريدر يعلَم أن التهديد آتٍ وبات مُستعدًّا للمواجهة مثل أفعى المامبا، شعر أنه أحرزَ تقدُّمًا. أصبح زعيم العصابة «شخصًا مُدانًا» بلغة القانون.

لما عُرِض على السيد ريدر أن تحميَه الشرطة، قال لباين: «لا أعتقد أن شيئًا سيحدُث حتى يخرج. سيجد قدرًا كبيرًا من الرِّضا في ترتيب التفاصيل الخاصة ... اممم ... «بتأديبي»

وأنا متأكِّد من أنه سيؤجِّل هذا حتى يخرج من السجن. من الأفضل أن أحظى بهذه الحماية حتى يخرج …»

«أتقصد بعدما يخرج؟»

أكَّد السيد ريدر بحرص: «حتى يخرج. بعد … حسنًا … اممم … أُفضِّل ألا تكون … اممم … حماية الشرطة عائقًا لي.»

أصبحت جميع حَواسِّ مو ليسكي يقظةً عندما أُخلِي سبيلُه. سيطرت على كل خُططه يقظةُ القط، التي أبقَتْه بعيدًا عن المتاعِب، باستثناء تلك الواقعة الأخيرة. لعن نفسه بدمٍ بارد لأنه عرَّض صفقة الزمُرُّد للخطر، وأول ما فعله هو الاتصال بالراهبوت.

بات في حياته عاملٌ جديد مُثير للخوف: وهو إدراكه المرير بإمكانية وقوعه في الخطأ وخوفُه من أن يُحاول الرجالُ الذين أحكَم قبضته عليهم خرْقَ ولائهم له نتيجةً لوقوعه في ذلك الخطأ. ولم يكن هذا الخوف الذي هزَّ قلبه نابعًا من العاطفة فحسْب، بل كان هناك شيءٌ آخر وراءَه. يجني مو ما يُقارب خمسة عشرَ ألف جنيه في السنَة من ضحايا نادي القِمار ومضمار السباق فحسْب. وتُوجَد مصادر جانبية لكسْب دخله؛ إذ كانت «عصابته» تتحكَّم بشكلٍ كبير في حركة تجارة المُخدِّرات بين القارات وتُحقِّق ربحًا بالآلاف كل عام. قد يُظَن الأمر خياليًّا وبعيدًا عن الواقع، ولكنه حقيقة. ولم تكن جميع الأرباح تذهب لمو ورجاله. كان يتبقَّى بعض الفُتات الذي ينقضُّ عليه الصغار في السوق.

لا بدَّ أن ينتقِم من ريدر. كانت هذه مهمتَه الأولى. والانتقام منه بحيث لا تقوم له قائمة فيما بعد. يمكنه بسهولة أن يُهاجمه ذاتَ ليلة، ولكن هذا سيبدو تنفيذًا للتهديد الذي ألقى به خلفَ القضبان. من الواضح أنه يحتاج إلى بعض الأفكار المُبتكَرة؛ عقابٍ قويٍّ وشرس له تأثير أكبر من صليل السيوف.

الرجال الذين يتمتَّعون بمكانة السيد ليسكي الرفيعة لا يُقابلون مُساعديهم في الأقبِية المُظلمة ولا يرتدُون عباءاتٍ أو أقنعةً كي يُخفوا هُويَّاتهم. أتى الستة الكبار الذين يتحكَّمون في المصالح التي تخدم مو ليسكي معًا في الليلة التي أُطلِق فيها سراحه واجتمعوا معًا في مطعم في سوهو حيث حجَزوا غرفة طعام خاصة على النحو المعتاد.

قال مو بابتسامة صغيرة: «أنا سعيد لأنه لم يلمسه أحد وأنا في الحبس. أُحبُّ أن أتدبَّر هذه المسألة بنفسي. ظللتُ أفكر وأنا في الحبس وتوصَّلتُ إلى فكرة جيدة للتعامُل معه.»

قال تيدي ألفيلد؛ الذراع الأيمن له: «يُلازمه ضابطان طوال الوقت، وإلا كنتُ سأفتك به من أجلك يا مو.»

قال السيد ليسكي بنبرة تهديد: «ولو فعلتَ لفتكتُ بك يا تيدي. ألم آمُرْ بعدم المساس به؟ فما الذي تعنيه بقولك «كنتُ سأفتكُ به»؟»

انعقدَ لسان ألفيلد الذي كان عريضَ المنكبَين ويتخصَّص في «سرقة» السيارات التي لا يُراقبها صاحبها.

زمجر مو: «التزِمْ بوظيفتك. سأتدبَّر أمر ريدر. لديه فتاة في شارع بروكلي؛ شابَّة تصحبه دائمًا واسمها بيلمان وتعيش في المنزل المقابل لمنزِله تقريبًا. لا نُريد الفتكَ به الآن. ما نريده الآن هو طردُه من وظيفته، وهذا أمرٌ سهل. طُرِد رجل من وزارة الداخلية الأسبوع الماضي لأنهم وجدوه في نادي «٩٥» بعد الساعات المسموح فيها بشُرب الكحوليَّات.»

وضع خُطة بسيطة.

في إحدى الليالي، غادرَت مارجريت بيلمان مكتبَها ومشَت إلى ناصية جسر وستمينستر، ونظرَت حولها بحثًا عن السيد ريدر. إذا سمحَت له ظروفُ عمله، فعادةً ما يُوجَد في الجوار على الرغم من نُدرة المقابلات في أوقاتٍ مُتأخِّرة؛ وعندما تراه، فعادةً ما تراه بصحبة رجلَين مُتجهِّمَي الوجه يجلسان كلٌّ واحدٍ من جانب.

تركت السيارة الأولى تمرُّ وقرَّرت أن تركب السيارة التالية التي كانت آتيةً ببطء عبر الجسر، وعندها أُلقي طردٌ عند قدمَيها. نظرت حولَها ورأت امرأةً جميلة أنيقةَ الملبس تتمايَل وعيناها مُغلقتَين وكادت أن تسقط لولا أنها أمسكَت بذِراعها. لفَّت ذراعها حول خِصْر المرأة وساعدتها على الجلوس على مقعدٍ من حُسن الحظ أنه وُضِع هنا.

قالت السيدة الواهنةُ القُوى لاهثةً: «أنا آسفة حقًّا؛ أشكرك كثيرًا على أي حال. هلا أوقفتِ لي سيارةَ أجرة من فضلك؟»

تحدثَت بلهجةٍ أجنبية بعض الشيء، وتصرَّفَت بأسلوبٍ يليق بسيدة راقية؛ هكذا اعتقدَت مارجريت.

أشارت إلى سيارة أجرة، وساعدَت السيدة على الركوب.

سألت الفتاة المُتعاطفة: «هل تُريدينني أن آتيَ معك إلى المنزل؟»

تمتمَت السيدة: «هذا لطفٌ منك، ولكن أخشى أن أُزعجك؛ هذا سُخف منِّي. عُنواني هو ١٠٥ شارع جريت كلاريدج.»

استعادت عافيتَها قليلًا في أثناء الرحلة بحيث تمكَّنَت من إخبار مارجريت أن اسمها السيدة لامير وأنها أرملة مَصرفي فرَنسي. تقول التجهيزات الفخمة في المنزل الكبيرِ الكائن

في أفخم بُقعة بمايفير بأن السيدة لامير امرأة ثريَّة. فتح كبير الخدم الباب وقدَّم خادمٌ الشايَ إذ ألحَّت السيدة على الفتاة أن تحتسيَ معها الشاي.

«أنت طيبة للغاية. لا أستطيع أن أُوفِّيَك حقَّك مهما شكرتُك يا آنسة. يجب أن أتعرَّف عليك أكثر. هلَّا أتيتِ في ليلةٍ كي تتناولي العَشاء معي؟ هل يوم الخميس يُناسِبك؟»

تردَّدت مارجريت بيلمان. صفاتها البشرية جعلَتها تنبهِر بالفخامة التي تُحيط بها كما أن السيدة اللطيفة تتمتَّع بجاذبيةٍ ورِقَّة وسِحرٍ يصعبُ مقاومته.

«سنتناول العشاء بمُفردنا، وبعد ذلك قد يأتي بعضُ الأشخاص لقضاء سهرةٍ راقصة. هل لديك صديقٌ تُحبِّين اصطحابَه معك؟»

ابتسمَت مارجريت وهزَّت رأسها. من الغريب أن كلمة «صديق» لم تُوحِ لها بغَير السيد ريدر الغريبِ الأطوار، وبطريقةٍ ما لم تتخيَّل اصطحاب السيد ريدر في أُمسية كهذه.

عندما خرجَت إلى الشارع وأغلَق كبيرُ الخدم الباب خلفها، تلقَّت أكبر صدمةٍ مرت بها في ذلك اليوم. رأت مَن تُفكر به يقِف على الجانب الآخر من الطريق ومِظلَّته الملفوفة مُعلَّقة على ذراعه.

ألقت التحيَّة وقالت: «عجبًا، السيد ريدر!»

نظر في ساعته الكبيرة وقال: «ما زال أمامك سبع دقائق من الوقت المُخصَّص. منحتُك نصف ساعة، واستغرقتِ بالضبط ثلاثًا وعشرين دقيقة وبضع ثوانٍ.»

سألتْ من دون داعٍ: «هل عرَفت أنني هنا؟»

«نعم، تبعتُك. لا أحبُّ السيدة آني فيلثام؛ إنها تدعو نفسها باسمٍ ما. هذا النادي ليس جيدًا.»

قالت لاهثة: «نادٍ!»

أومأ السيد ريدر.

«إنهم يُسمُّونه ناديَ مافين. اسم غريب وأعضاؤه غريبو الأطوار. هذا ليس جيدًا.»

لم تطرَح المزيد من الأسئلة ولكنها رافقت السيد ريدر إلى شارع بروكلي وهي تتساءل عن السبب الذي دفع السيدةَ إلى التفكير فيها وجعْلها مُرشَّحة مُحتملةً لمباهج منطقة مايفير.

وقعت سلسلة أحداث أربكت السيد ليسكي في البداية. كان مشغولًا وكاد أن يندَمَ على أنه لم يُؤجِّل البدء في خُطة أعماله. تبيَّن أنه فشل في أحد الجوانب التي اكتشفها عندما تقابَل قدَرًا — على ما يبدو — بالسيد ريدر وجهًا لوجهٍ في بيكاديللي.

قال السيد ريدر بنبرةٍ أقربَ إلى الاعتذار: «صباح الخير يا ليسكي. أسِفتُ للغاية على تلك الأحداث غيرِ المُتوقَّعة والمؤسِفة، ولكن صدِّقْني، أنا لا أحمل لك أيَّ كراهية. وبينما أُدرِك أنك لا تُشاركني عواطفي بأي شكلٍ من الأشكال، إلا أنني لا أرغب إلا في التعايُش معك كصديقَين.»

رمقَه ليسكي بنظرةٍ حادَّة. وظنَّ أن الرجل العجوز بدأ يرتعِب. يكاد صوتُه القلق يرتعِد وهو يُقدِّم غُصن الزيتون.

قال مو بأبهى ابتسامةٍ لديه: «لا بأس يا سيد ريدر. أنا أيضًا لا أحمِل أيَّ كراهية. على أي حال، بدَر منِّي قولٌ سخيف وكان من واجبك ما فعلته.»

واصل حديثه بنبرته تلك وظلَّ يتنقَّل بين التُّرَّهات والسيد ريدر يستمِع ويظهر عليه الارتياحُ المُتزايد.

قال وهو يهزُّ رأسه أسفًا: «العالَم مليءٌ بالرذائل والخطايا، الرذيلة طاغية سواءٌ بين قصور الأغنياء أو بين أحياء الفقراء، وتُداس الفضيلة تحت الأقدام مثل نباتات الأقحوان. أنت لا تُربي الدجاج يا سيد ليسكي، أليس كذلك؟»

هزَّ مو ليسكي رأسَه.

تنهَّد السيد ريدر: «يا للأسف! يتعلم المرء الكثير من الطيور التي تُربَّى في المنازل! إنها درس عملي في استشعار ما هو غير مشروع. كثيرًا ما أتساءل لماذا لا يسمح مأمورو السجون للمسجونين في دارتمور بالمُشاركة في هذه الهواية غير المُؤذية والتثقيفية. كنتُ أتحدَّث إلى السيد باين صباح اليوم باكرًا عندما داهموا ناديَ مافين؛ يا له من اسم طريف ...»

قال مو بسرعة: «داهموا نادي مافين؟ ما الذي تقصده؟ لم أسمع شيئًا عن هذا.»

«ما كنتَ لتسمع. هذا النوع من المُؤسَّسات لا يرُوق لك. اعتقدْنا أنه من الأفضل مُداهمة المكان على الرغم من أنني أخشى أن تتسبَّب المُداهمةُ في استياء فتاةٍ صديقةٍ لي تمَّت دعوتها على العشاء هناك مساء غد. كما قلت، الدجاج ...»

الآن، عرَف مو أن خُطته باءت بالفشل. وأمسى مُرتبكًا من موقف الرجل.

«لعلَّك تودُّ أن تأتيَ معي وترى دجاج الأوربنجتون ذا اللون البرتقاليِّ لديَّ يا سيد ليسكي، أليس كذلك؟ أنا أعيش في بروكلي.» خلع ريدر نظارته وحملق في رفيقه بعينَين واسعتَين. «لنتَّفق على الساعة التاسعة الليلة؛ لدي كلام كثير نتحدَّث فيه. في الوقت ذاته، سيكون الأفضل لجميع الأطراف المَعنيَّة أن تأتيَ دون أن تَلفت النظر ... إممم: هل تفهم ما أعني؟ على سبيل المثال، لا أحبُّ أن يعرِف الذين يعملون في المكتب لدي.»

ارتسمَت ابتسامةٌ بطيئة على وجه ليسكي. لديه اعتقادٌ راسخ بأن لكلِّ رجلٍ سِعرَه سواء كان الثمن نقدًا أم رُعبًا؛ وهذه الدعوة إلى مقابلةٍ سرِّية تُمثل تأييدًا للملَكة التي لديه.

في تمام التاسعة، وصل إلى شارع بروكلي، بات يرجو أن يتقدَّم السيد ريدر أكثرَ في طريقٍ يصلون فيه إلى حلٍّ وسط. ولكن مِن الغريب للغاية، أن المُحقق العجوز لم يتحدَّث في شيءٍ سوى الدجاج. جلس على أحد جوانب الطاولة وشبَّك يدَيه على المفرش وراح يتباهى وهو يتحدَّث عن السلالة التي أدخلها إلى منزل تربية الطيور الإنجليزي، وظلَّ مو مُنتظرًا وهو يكاد يموت من الملل.

قال السيد ريدر وهو يُساعد ضيفه في ارتداء معطفه: «لديَّ ما كنتُ أريد قولَه لك، ولكن أخشى أنه يجب تأجيلُ هذا الحديث إلى لقاءٍ آخر. سأمشي معك إلى أوَّل طريق لويشام السريع؛ المكان يعجُّ بالشخصيات السيِّئة ولا أحبُّ أن أشعر أني عرَّضت سلامتك للخطر بإحضارك إلى تلك البقعة الفقيرة.»

إذا لم يُوجَد في العالم سوى مكانٍ واحد يحظى باحترام كبير ويخلو من قُطَّاع الطرق الذين يُغيرون على الأحياء الأكثر ثَراءً، فهو شارع بروكلي. وافق ليسكي على عرض مُرافقة مُضيفه، ومشَيَا إلى الكنيسة القابعة في نهاية الشارع.

قال ريدر بجدِّية: «مع السلامة يا سيد ليسكي. لن أنسى هذا اللقاء المُمتع. فقد منَحْتني أكبرَ مساعدة. تأكَّد من أنني لن أنساك أنا والإدارة التي أُمثلها.»

عاد ليسكي إلى المدينة وبدا أن الحيرة تملَّكَتْه. في ساعات الصباح الباكر، ألقَت الشرطة القبضَ على ذِراعه اليُمنى؛ تيدي ألفيلد، ووجَّهَت إليه تُهمة سرقة سيارة ارتكبها قبل ثلاثة شهور.

هذه أولى الأحداث غير القابلة للتفسير. وقع الحدث التالي لمَّا كان ليسكي في طريق عودته إلى شقته من بورتلاند بليس إذ واجه فجأةً المُحقق الغريب الهيئة.

«هل هذا ليسكي؟» حدَّق السيد ريدر النظر في الظلام. «أنا في غاية السعادة أني وجدتُك. ظللتُ أبحث عنك طوال اليوم. خشيتُ أني ضلَّلتُك في المرة السابقة لمَّا أخبرتك أن دجاج ليجهورن لا تصلح تربيته في الأماكن ذات التربة الرملية. بل على العكس من ذلك …»

سأل الآخر بأسلوب فظ: «انظر إليَّ يا سيد ريدر، ما اللعبة التي تلعبها معي؟»

سأل ريدر بنبرةٍ مُتألمة: «اللعبة؟»

«لا أريد أن أعرف شيئًا عن الدجاج. إذا كان لديك ما يستحقُّ أن نتحدَّث فيه، فاتصل بي وسآتي إلى مكتبك أو تأتي إلى مكتبي.»

اندفع متجاوزًا المُحقِّقَ من مكتب النائب العام وأغلق باب شقته خلفَه بقوة. وفي غضون ساعتَين، داهمَت قوة من شرطة سكوتلاند يارد منزل هاري ميرتون وأخذت هاري وزوجته من أسِرَّتهم، ووجهَت إليهما تهمة حيازة غير مشروعة لمجوهرات مسروقة تم تتبُّعُها حتى وُجِدَت في خِزانة.

بعد أسبوع، ولمَّا كان ليسكي عائدًا من مقابلة بالغةِ الأهمية مع الراهبوت، سمع خطوات مُتثاقلة تمرُّ من جانبه، والتفتَ وتقابلَتْ عيناه مع عينَي السيد ريدر المُتألِّمتَين.

قال السيد ريدر بحرارة: «كم أنا سعيد بلقائك! لا، لا، لا أريد التحدُّث عن الدجاج على الرغم من أنني تألَّمْتُ قليلًا بسبب عدم مُبالاتك تجاه هذه الطيور النبيلةِ والمُنتجة.»

فجأة، ردَّ ليسكي غاضبًا: «أخبِرْني ما الذي تُريده بحق الجحيم؟ لا أريد أن يكون لي أيُّ علاقة بك يا ريدر، وكلما أسرعتَ في إدخال ذلك في عقلك، كان ذلك أفضل. لا أريد النقاشَ في أمر الدواجن أو الخيل ...»

«انتظر!» انحنى السيد ريدر إلى الأمام وخفَض صوته. «ألا يمكن أن أتقابل أنا وأنت ونتبادلَ الثقة؟»

ابتسم مو ليسكي ابتسامةً بطيئة.

«أوه، دخلتَ إلى صُلب الموضوع أخيرًا، أليس كذلك؟ حسنًا. سأُقابلك في أي مكانٍ تُحبه.»

«هل نقول في المَمشى القريب من تمثال المدفعيَّة، غدًا الساعة العاشرة مساءً؟ أعتقد أنه لن يرانا أحدٌ هناك.»

أومأ ليسكي باقتضابٍ وتابع مَسيرَه وهو لا يزال يتساءل عما يريد هذا الرجل أن يقوله له. في الساعة الرابعة، استيقظ بسبب عدم توقُّف رنين الهاتف، وارتعب حينما علم أن أوهارا — أكثرَ مَن يثق به من زعماء العصابات — أُلقِيَ القبضُ عليه بتهمة عملية سطو ارتكبَها منذ عام. كارتر — أحد الزعماء الصغار — هو مَن جلَب تلك الأخبار.

«ما الحكاية يا ليسكي؟» لاحظ ليسكي نبرة شكٍّ في صوت مرءوسه جعلَته يفتح فمه مُندهشًا.

«ما الذي تعنيه بقولك ما الحكاية؟ تعالَ إلى هنا لتُقابلني. لا أريد التحدُّث عبر الهاتف.»

وصل كارتر بعد نصف ساعة، عابسَ الوجه ويملؤه الشك.

لمَّا أصبحا وحدَهما، سأل مو: «والآن، ما الذي تريد أن تقوله؟»

قال كارتر مُتذمرًا: «ما أردتُ قوله هو أنك شوهدتَ مع ريدر العجوز منذ أسبوع في شارع لويشام، وفي تلك الليلة، أُلقي القبض على تيدي ألفيلد. شُوهدت تتحدَّث بهدوء مع هذا الكلب العجوز، وفي الليلة ذاتها، قُبض على رجلٍ آخرَ من العصابة. وفي الليلة الماضية، شاهدتُك بعينَيَّ وأنت تتحدَّث سرًّا مع ريدر؛ والآن أُلقي القبض على أوهارا!»

نظر إليه مو وهو لا يكاد يُصدق.

سأل: «حسنًا، وماذا في الأمر؟»

قال كارتر وهو يقلب شفته: «لا شيء سوى أن هذه مصادفةٌ غريبة، هذا كل ما في الأمر. بات أفراد العصابة يتحدَّثون عن الأمر، ولا يَرُوقهم ما يحدث، ولا يُمكنك أن تلومَهم.»

جلس ليسكي يَعَضُّ على شفتَيه وهو شارد الذهن. هذه حقيقة، على الرغم من أن تلك المصادفة لم تطرأ على باله من قبل. إذن فتلك هي لعبة الشيطان العجوز! كان يُقوِّض سلطته ويُثير الشكوك حوله للإطاحة به من منصبه إن لم يُوقِف هذه الشكوك.

قال بصوتٍ منخفض للغاية: «حسنًا يا كارتر. لم يخطر ببالي هذا الأمر من قبل. سأُخبرك الآن، وعليك أن تُخبر الأفراد الآخرين بما حدث.»

شرح دعوات السيد ريدر في بِضْع كلمات.

«وأخبِرْهم أني سأُقابل هذا العجوز مساءَ غدٍ، وسأُعطيه شيئًا يتذكَّرني به.»

اتضحَت الأمور له الآن، وبعدما غادر الرجل، جلس يُفكر في أحداث الأسبوع الماضي. الرجال الثلاثة الذين أُلقي القبض عليهم كانوا موضعَ اشتباهٍ من الشرطة منذ مدةٍ طويلة، وعلِم مو أنه لم يكن أحدٌ ولا حتى هو ليتمكَّنَ من حمايتهم. تمَّت الاعتقالات بترتيبٍ مع شرطة سكوتلاند يارد، بما يُناسب السيد ريدر الداهية.

قال مو: «سأتفوَّق عليه في الدهاء!» وقضى بقية اليوم يُعِدُّ تخطيطاته.

في الساعة العاشرة في تلك الليلة، مرَّ من تحت قوس الأميرالية. كان الضباب الأصفر يُغلف الحديقة ورذاذ المطر يتساقط، ولم تكن هناك أي إشارةٍ تدل على الحياة سوى السيارات التي تأتي من وقتٍ لآخر باتجاه القصر.

ظلَّ يمشي حتى تجاوز النصب التذكاري وانتظر السيد ريدر. دقت الساعة العاشرة، ومرَّ ربع ساعة ولم يكن ثَمَّة أثرٌ للمُحقق.

قال مو دونَ أن يُحرك شفتيه: «لا بدَّ أنه اشتمَّ رائحةً في المسألة.» ووضع السلاح الصغير الذي يحمله في جيبه مرةً أُخرى.

كانت الساعة الحاديةَ عشرة عندما تعثَّر ضابطٌ في الدورية بشخص يئنُّ مُمدَّدًا على الرصيف، ولَمَّا أضاء مصباحه الكهربي على الشخص المُمدَّد، رأى المقبض المنحوت لسكِّين مغربي قبل أن يتعرَّف على وجه مو ليسكي المُتألِّم.

قال باين مفكرًا: «لا أفهم تمامًا كيف حدث كل هذا.» (كان قد دُعي إلى استشارةٍ من المقر الرئيسي)، «لماذا أنت متأكِّد لهذه الدرجة من أنه الراهبوت المغربي؟»

سارع السيد ريدر إلى تصحيح الانطباع المغلوط: «لستُ متأكدًا. ذكرت الراهبوت لأنني رأيتُه بعد الظهيرة وفتَّشتُ مسكنه بحثًا عن الزمرُّد، على الرغم من أنني واثق تمامَ الثقة بأنه لا يزال في المغرب يا سيدي.» ثم خاطب رئيسه قائلًا: «كان السيد راهبوت فطنًا إذ تذكَّر أنه غريب على الطرائق التي نتَّبِعها.»

قال مساعد النائب العام: «هل ذكرتَ مو ليسكي على الإطلاق يا سيد ريدر؟»

فرك السيد ريدر ذقنه.

«أعتقد نعم، أنا متأكد من أنني أخبرته بالموعد مع السيد مو ليسكي في الساعة العاشرة. أظن أنني ذكرتُ مكان اللقاء أيضًا. لا أتذكر بالضبط كيف أتى ذِكر موضوع ليسكي. ربما حاولتُ خداع هذا المواطن الأصلي بحيث يعتقد أنه إن لم يُعطِني المزيدَ من المعلومات عن الزمرد، فسأُضطَر إلى استشارة أحد يعرف الكثير من الأسرار. ربما قلتُ ذلك. سمعت أن السيد ليسكي سيمكُث فترة طويلة في المستشفى، هل هذا صحيح؟ شيء مؤسِف. لن أُسامح نفسي أبدًا لو كان ما قلته سببًا في دخول السيد ليسكي المسكين إلى المستشفى ... على قيد الحياة!»

لَمَّا ذهب، نظر الرئيس إلى المُفتش باين. ابتسم باين.

سأل المفتش: «ما اسم هذه الأفعى الخطيرة يا سيدي؟ «المامبا»، أليس كذلك؟ لا بدَّ أن أتذكَّر هذا.»

القصة السابعة: القضية العجيبة

في أيام شباب السيد ريدر، تلك الأيام التي كانت تُطلَب فيها سيارات الأجرة ولا يُسافر رجلٌ من دون وردةٍ في ياقة معطفه؛ أُرسِل السيد ريدر برفقة ضابطٍ شابٍّ من شرطة سكوتلاند يارد لإلقاء القبض على مُخترعٍ شابٍّ من نوتنجهام كسَب أكثرَ من الكفاية بطرُق تُثير استياء شرطة سكوتلاند يارد. هذا الشاب لم يخترع آلاتٍ أو ابتكارات بارعةً من أجل تقليل العمل؛ بل اخترع قصصًا. لم تكن قصصًا بالمعنى المقبول للكلمة، بل كانت معلوماتٍ مُضلِّلةً حِيكَت من أجل استخراج الأموال من جيوب الرجال والنساء البُسطاء العقل. استعمل السيد إيتر ما لا يقلُّ عن خمسةٍ وعشرين اسمًا مُستعارًا والعديد من العناوين في بثِّ رواياته، وكاد أن يَجنيَ ثروةً ضخمة لولا أنَّ عدُوًّا يرتدي حذاءً مُربعًا من عند الأصابع قبَض عليه وأجلسه على مقعد العدالة. لم يتعاطف القاضي وحَكَم على السيد إيتر بالسجن لمدة سبع سنوات مع الشغل، ووصفَه بالمُحتال العديم الضمير وبأنه خطر على المجتمع، وابتسم ويلي إيتر إذ كان له قلب وكأنه من الحجر الصوَّان.

تذكر السيد ريدر هذه القضية في المقام الأول بسبب تعليق مُحامي الادعاء العام على مختلِف أدوار التمثيل والحِيَل التي ارتكبها السجين، مُشيرًا إلى سِمةٍ مُعينة تكشَّفَت في كل جزءٍ لعِبَه المتهَم؛ ألا وهي عدم معرفته بهجاء كلمة «استطاعة» التي لم يبرَحْ يكتبها بحروفٍ مقلوبة وكأنه يكتب «استعاطة».

قال المحامي: «لا بدَّ لكلِّ مجرمٍ من خصلة تكشفُه، مهما كان عبقريًّا. مهما كان دور التمثيل ومهما برَع في فصل الأدوار والوضعيَّات بعضها عن بعض، إلا أن هناك نقطةَ ضعفٍ مميزةً ومشتركةً بين كل شخصيةٍ يُؤدِّيها، تبرُز نقطةُ الضعف لا سيما في المُجرمين الذي يعيشون على الاحتيال والخدع.»

تذكر السيد ريدر هذا طوالَ حياته العمَلية. قلة من الناس يعرفون أنه كان يعمل لدى شرطة سكوتلاند يارد. هو نفسه كان يتهرَّب من أي سؤالٍ يُطرَح بخصوص الموضوع. من صفاته الظريفة زعمُه بأنه أصدقُ الهواة وأن نجاحه في كشف الجرائم يرجِع إلى تفكيره بعقلية المجرم مما يُمكِّنه من رؤية الخطأ في الأشياء التي لا يظهر فيها الخطأ.

رأى الخطأ في العديد من أفعال البشر البريئة في ظاهرها وهذا أفاده من حيث سُمعتُه؛ حيث إن الذين عرَفوه وأشفقوا عليه بسبب عدم كفاءته الظاهرية ومظهره غيرِ الجذاب لم يعرفوا الأفكار الخبيثة التي ملأَت عقله.

كانت هناك فتاةٌ جميلة تعيش في شارع بروكلي في نزل. لم تَرُقْه الآنسة مارجريت بيلمان لأنها جميلة، بل لأنها عقلانية؛ وهما مصطلحان غالبًا ما يتناقضان كقاعدةٍ عامة. أعجبه كثيرًا الركوبُ معها من المنزل في السيارة ذاتِها، واعتادا على مناقشة مسألة أمير ويلز وحكومة حزب العمال وارتفاع تكلفة المعيشة، وغيرها من المسائل الحياتية، بقدرٍ كبير من الحماس. علم من الآنسة بيلمان عن زميلتها في السكن السيدة كارلين ورجَع معها ذات مرة إلى شارع بروكلي؛ فتاة ضعيفة ونحيلة تظهر الخبرة والتجرِبة على وجهها وتنمُّ عيناها الجميلتان عن أحداثٍ مأساوية في حياتها.

صادف أنْ علِم السيد ريدر كل شيء عن السيد هاري كارلين قبل أن يُرسِل إليه اللورد سيلينجتون لأن السيد ريدر يتمتع بهبة كسْب ثقة الآخرين بإثبات تعاطُفه الفعلي بدلًا من التعبير عنه.

تحدَّثَت عن زوجها دون أن تشعُرَ بالمرارة؛ ولكن أيضًا دون ندَم. إنها تعرفه؛ بل تعرفه حقَّ المعرفة على الرغم من قِصَر الحياة الزوجية بينهما. أشارت في مرةٍ دون قصدٍ إلى قريبٍ ثريٍّ كان زوجُها سيرثُ ثروته لو كان رجلًا عاديًّا. وفي الوقت المناسب، سيكون ابنُها صاحبَ لقبٍ عظيم إلا أنه مُفلِس. بذلَت ما في وُسعِها لتصحيح أقوالها حتى إن السيد ريدر، الذي يشكُّ في أصحاب الألقاب الذين يأتون إلى بروكلي، تأكَّدَ من إخلاصها، مهما كانت فداحةُ خطئها. وعلم بعد ذلك أن اللقَب هو ذلك الذي يحمله جناب المُبجَّل إيرل سيلينجتون ومانفورد.

أتى وقت ركود في مكتب النائب العام وهذا الوقت يبدو العالم وكأنه خالٍ من الخطايا؛ جلس السيد ريدر لمدة أسبوع في طرَف غرفته الصغيرة يُضيع الوقت أو يقرأ أعمدةَ الإعلانات في جريدة «ذا تايمز» أو يرسم رجالًا مُنفِّري المظهر على اللوح النشاف، ويُبادل بين هذه الأعمال والتنزُّهات التي اعتاد عليها في الأماكن التي لا يختارها سوى

القلة القليلة لقضاء وقتِ استجمامهم. أَحَبَّ التجوُّل في الأحياء الفقيرة الكائنة في منطقة جريت ساري دوكس؛ لم يكن ينفِر من التردُّد على الجانب الشمالي من النهر، ويعود مرة أخرى إلى منطقة رسو السفن؛ ولكن عندما سأله رئيسه هل يقضي قدرًا كبيرًا من الوقت في لايمهاوس، رد السيد ريدر بابتسامة مثيرة للشفقة.

قال بلطفٍ: «كلا يا سيدي، أقرأ عن تلك الأماكن … أجدها مُثيرةً للاهتمام أكثرَ بين صفحات … اممم … الروايات. نعم يُوجَد صينيُّون في تلك الأماكن، وأظن أن الصينيِّين رومانسيون، ومع ذلك لم يُضيفوا رومانسيةً إلى لايمهاوس، أكثر منطقة في إيست إند سُكَّانها مُحترمون ومُلتزمون بالقانون.»

في صباح أحد الأيام، أرسل النائب العام إلى كبير مُحقِّقيه، ولبَّى السيد ريدر الأوامرَ وهو يحثُّ الخُطى ويكتنفه شعورٌ مُمتع من الترقُّب.

قال النائب: «اذهب إلى وزارة الخارجية وتحدَّث إلى اللورد سيلينجتون. إنه قلِقٌ بشأن ابن أخيه. هاري كارلين. هل تعرِف الاسم؟»

هزَّ السيد ريدر رأسه؛ لم يكن في تلك اللحظة قد ربط الموضوع بالفتاة الشاحبة التي تعمل كاتبةً على الآلة الكاتبة لكسْب عيشها.

شرح النائب: «إنه شخصٌ سيِّئ للغاية، وللأسف إنه وريث سيلينجتون. وأظنُّ أن الرجل العجوز يُريدك أن تؤكِّد رأيه.»

قال السيد ريدر: «يا إلهي!» وانسلَّ من الغرفة.

اللورد سيلينجتون وكيل وزارة الدولة للشئون الخارجية لم يسبق له الزواجُ ويمتلك ثروةً ضخمة. كان ثريًّا في عام ١٩١٢م، عندما انتابه هلعٌ بسبب بعض التشريعات التي اعتقد أنها ستُؤثر عليه بالسَّلب باعتباره من أصحاب الأملاك، ومن ثَمَّ باع مُمتلكاته واستثمر الجزء الأكبر من ثروته (مُعاديًا جميع مَشورات الخبراء) في الأسهم الصناعية الأمريكية. ضاعفَت الحربُ مُمتلكاته ثلاثةَ أضعاف. كسَب الملايينَ من الاستثمارات الضخمة في الأراضي البترولية. إنه من فاعلي الخير، كما أنه سخي في تبرُّعاته للمؤسَّسات المُخصَّصة لرعاية الأطفال الصغار؛ وهو مؤسس «دار إيستلي لرعاية الأطفال» وأسهَم بأموالٍ طائلة في تأسيس مؤسَّساتٍ مُماثلة. رجل نحيل ذو وجهٍ كئيب، أخذ يُحدِّق من تحت حاجبه الأشعث في السيد ريدر عندما دخل إلى غرفته مُعتذرًا.

قال مُتذمرًا: «إذن أنت ريدر، أليس كذلك؟» من الواضح أنه لم يُعجَب البتَّة بزائره. قال بنبرةٍ غاضبة: «اجلس، اجلس» ومشى إلى الباب وكأنه لم يكن متأكدًا من أن السيد ريدر

أغلقَه، وعاد وغاص في مقعده على الجانب الآخر من المكتب. وقال: «فضَّلتُ أن أُرسِل إليك بدلًا من إخطار الشرطة. قال السير جيمس إنك رجل حصيف يا سيد ريدر.»

انحنى السيد ريدر قليلًا وتبع ذلك فترةُ صمتٍ طويلة وغريبة، وقطع وكيل الوزارة هذا الصمتَ بطريقةٍ مفاجئة وبأسلوبٍ مُنفعل.

«لديَّ ابنُ أخ؛ اسمه هاري كارلين. هل تعرفه؟»

قال السيد ريدر واثقًا: «سمعتُ عنه.» في طريقه إلى وزارة الخارجية، تذكَّر الزوجة المهجورة.

انفجر اللورد: «إذن، وصلَتْك معلومات لا تسُرُّ عنه. إنه نذل ومُبذِّر ووصمة عارٍ على الاسم الذي يحمله! لو لم يكن ابنَ أخي، لحبستُه الليلة، هذا الوغد! لديَّ أربعة أوراق مالية هنا ...»

توقَّف وسحب الدُّرج وفتَحه بعنف وأخرج خطابًا وألقاه بقوة على الطاولة.

قال غاضبًا: «اقرأ هذا.»

رفع السيد ريدر نظارته على أنفه قليلًا واطلَع على الرسالة (دائمًا ما كان يُثبِّت نظارته بالقُرب من عينَيه عندما يستخدمها). الرسالة موجَّهة إلى «دار إيستلي لرعاية الأطفال» ويطلُب فيها المُرسِلُ باختصارٍ خمسةَ آلاف جنيه ويقولُ المُرسِل إنه يريدها الليلة، وتحملُ توقيع «آرثر لاسارد».

قال اللورد: «تعرف لاسارد، أليس كذلك؟ إنه رجل نبيل يشترك معي في أعمالي الخيرية. وهناك أموالٌ مُستحَقة لأرضٍ اشتريناها مُتاخمةٍ للمنزل. ربما تعلَم أن بعض المُحامين لا يقبَلون الشيكات مُطلقًا مقابل الممتلكات التي يبيعونها نيابةً عن عملائهم، ومن ثَم جهزتُ الأموال وتركتُها مع السكرتير وطلبها أحدُ العاملين لدى لاسارد.» قال اللورد غاضبًا: «لا أحتاج إلى أن أُخبرك أنه طلبها. أيًّا كان من خطَّط لتلك الضربة، فقد خطَّط لها جيدًا. علموا أنني سأتحدَّث في مجلس اللوردات الليلة الماضية؛ وعلِموا أيضًا أنني غيرتُ السكرتير لديَّ مؤخرًا ووظَّفتُ رجلًا لا يعرف العديد ممَّن أُقيم أعمالًا معهم. أتى رجلٌ مُلتحٍ يطلُب المال في الساعة السادسة والنصف وأخرج خطابًا من السيد لاسارد، وكانت هذه نهايةَ الأموال باستثناء أننا اكتشفْنا أنها تحوَّلَت هذا الصباحَ إلى أوراقٍ مالية أمريكية. بالطبع تمَّ تزويرُ الخطابَين؛ لم يُوقِّع لاسارد على أيٍّ منهما ولم يطلب المال مُطلقًا؛ لأنه لم يكن مُستحقًّا حتى أسبوعٍ آخَر.»

سأل السيد ريدر: «هل علم أيُّ أحد عن هذه الصفقة؟»

أومأ اللورد مُتثاقلًا.

«علم ابن أخي. أتى إلى منزلي منذ يومَين كي يقترضَ أموالًا. يتحصَّل على دخلٍ ضعيف من تركَة أُمِّه الراحلة، ولكنها لا تكفيه بسبب استهتاره وإسرافه. اعترف لي صراحةً أنه عاد من إيكس مُفلسًا. لا أعرف تحديدًا المدةَ التي قضاها في لندن، ولكنه كان في مكتبي حينما دخل السكرتير ومعه الأموال التي سحبتُها من البنك كي أدفعَ الثمن حين يُصبح مُستحقًّا.» أردف بنبرة عنيفة: «ارتكبتُ حماقةً كبيرة لمَّا شرحتُ له لماذا أمتلك كلَّ هذه النقود في المنزل، ولماذا لا أستطيع أن أُقرِضَه الألف جنيه التي طلَب اقتراضها.»

فرك السيد ريدر ذقنه.

وسأل: «ما الذي ينبغي لي فعلُه؟»

قال اللورد سيلينجتون مُزمجرًا: «أريدك أن تعثُر على كارلين. ولكني أريد أولًا إعادة تلك الأموال؛ هل تفهمني يا ريدر؟ عليك أن تُخبره إن لم يُعِدِ إليَّ هذه الأموال ...»

لم يُنزل السيد ريدر عينَه من كورنيش السقف.

قال بأسلوب مهذَّب: «يبدو كأنك تطلُب منِّي أن أصلَ إلى اتفاقٍ مع الجاني أيها اللورد. ولكنني أدرك أنه في الظروف الغريبة، يجب أن نتبعَ طرائقَ غريبة. الرجل ذو اللحية السوداء الذي طلب الأموالَ ربما ...» ثم تردَّد سائلًا: «... هل كان مُتنكرًا؟»

قال الآخرُ بغيظ: «بالطبع كان مُتنكرًا.»

قال السيد ريدر مُتنهِّدًا: «يقرأ المرء هذه الأشياء، ولكن نادرًا ما يظهر غريبٌ مُلتحٍ في الحياة الحقيقية! هل يُزعجك أن تُخبرني عنوان ابن أخيك؟»

أخرج اللورد سيلينجتون بطاقةً من جيبه ورماها عبر الطاولة. سقطت على الأرض ولكنه لم يعتذِر. إنه من ذلك النوع من الرجال.

قال السيد ريدر وهو ينهض: «جيرمين مانشنز. سأرى ما يمكن فعلُه.»

تمتمَ اللورد سيلينجتون بشيءٍ ربما كان وداعًا رقيقًا، ولكنه غالبًا لم يكن كذلك.

كان جيرمين مانشنز عبارةً عن مبنًى صغيرٍ جدًّا ضيِّق الواجهة، كما يعلم السيد ريدر — إذ كان يعلم الكثير — فهو عبارة عن مجموعة شُقق سكنية ويُديرها كبيرُ خدم سابقٌ كما أنه مُستأجَر لإحدى تلك الشُّقق. لحُسن الحظ — كما علم السيد ريدر لاحقًا — أن هاري كارلين كان في المنزل وفي غضون دقائقَ كان الرجل من مكتب النائب العام داخل غرفة استقبالٍ بأثاثٍ قديم تُطِل على شارع جيرمين.

وقف شابٌّ طويل بجانب النافذة وأخذ ينظر ساهمًا إلى الشارع الضيق الحيويِّ واستدار لَمَّا أعلن السيد ريدر عن مجيئه. كان وجهه رفيعًا ورأسه صغيرًا وعيناه ضيقتَين، لو امتلك أيًّا من سمات العائلة وعيوبها، فربما كانت هي سرعة الغضب الشديدة.

من خلال بابٍ مفتوح، رأى السيد ريدر غرفةَ نوم غيرَ مرتَّبة البتة، واسترقَ نظراتٍ إلى حقيبةٍ كبيرة مُتهالكة عليها مُلصقاتُ سفَر بين الدول الأوروبية.

سأل السيد كارلين: «حسنًا، ماذا تُريد بحق الجحيم؟» وعلى الرغم من نبرته، إلا أنه انتابه قلقٌ خفي اكتشفه السيد ريدر.

قال المُحقق: «هل لي أن أجلس؟» ومن دون انتظار الدعوة، سحب كرسيًّا من جانب الحائط وجلس حَذِرًا؛ لأنه يعرف جودة كراسي النزل.

زادت رباطة جأشه وتلميح السلطوية في صوته من قلق السيد هاري كارلين؛ ولَمَّا دخل السيد ريدر في سبب الزيارة مباشرة، رأى الرجل والدمُ يهرُب من عروقه.

قال السيد ريدر حذرًا وهو يملِّس على ركبتَيه: «هذا موضوعٌ يصعُب فتحه؛ وعندما أجد نفسي في مثل هذا المأزق، فعادةً ما أستخدم أبسط وأوضح لغة.»

واستخدم بالفعل لغةً بسيطة واضحة مع الوعيد. جلس كارلين في وسط الحديث لاهثًا.

قال مُتلعثمًا: «ماذا؛ ماذا! هل يجرؤ هذا الغاشم العجوز ...! اعتقدتُ أنك أتيتَ للتحدُّث عن الأوراق المالية ... أقصد ...»

قال السيد ريدر حذرًا: «أقصدُ أنك لو كنتَ تُمازح قريبَك بهذه الطريقة، فأعتقد أنك مازَحتَه بما فيه الكفاية. واللورد سيلينجتون مُستعدٌّ أن يعتبِر الأمر برُمَّته وكأنه مزحةٌ ثقيلة من جانبك، إذا ردَدتَ الأموال ...»

كاد الشابُّ أن يصرخ: «ولكنني لم ألمس أموالَه البغيضة! لا أريد ماله ...»

قال ريدر بلُطف: «على النقيض يا سيدي، أنت في أشدِّ الحاجة إليه. غادرتَ فندق كونتيننتال دون أن تدفع الفاتورة؛ وأنت مَدينٌ بنحو ستِّمائة جنيه اقترضتَها من عدة رجال؛ وصدر ضدَّك أمرٌ قضائي في فرنسا لتمرير شيكات عادةً ما يصفُها الأشخاص العاديون بأنها ... اممم ... «بدون رصيد».» حكَّ السيد ريدر ذقنه مرةً أخرى وأخذ ينظرُ من النافذة متأمِّلًا: «في الحقيقة ... في الحقيقة لا أعرف رجلًا في شارع جيرمين أحوجَ إلى المال منك أنت.»

كاد كارلين أن يُوقِفه، ولكن الرجل في منتصف العمر تابع حديثه بلا رحمة.

«مكثتَ ساعة في قسم السجلَّات في شرطة سكوتلاند يارد، ولم يكن اسمُك مجهولًا هناك يا سيد كارلين. غادرتَ لندن على عجَلة من أمرك لتجنُّب ... اممم ... إجراءات غير سارَّة. أظنُّ أنك قلتَ «الأوراق المالية»؟ معروف أنك شريكٌ لأشخاص تعرفهم الشرطة أكثرَ من معرفتهم بالسيد كارلين. أنت أيضًا مُتورطٌ في عملية احتيال لها علاقةٌ بمضمارِ سباق وهي ذات طابَع غريب وبغيض. ومن بين انحرافاتك الصغيرة، لديك ... اممم ... زوجة صغيرة مهجورة، وتعمل الآن كاتبةً على آلة كاتبة في مكتبٍ بالمدينة، وطفل صغير لم تَعُلْه قط.»

لعق كارلين شفتَيه الجافَّتَين.

سأل: «هل هذا كلُّ ما لديك؟» قالها مُحاولًا إبداءَ لامبالاته، ولكن الاهتزاز في صوته ورعشة يدَيه فضَحا قلقه الشديد.

أومأ ريدر.

«حسنًا، سأخبرك شيئًا. أريد أن أفعل الصواب مع زوجتي. أعترف أنني لم أكن سندًا لها، ولكن السبب هو افتقاري إلى المال. هذا الوغد العجوز كان دائمًا يتنعَّم في المال، اللعنة عليه! أنا قريبه الوحيد، وما الذي فعله؟ ترك كلَّ فلسٍ إلى دُور رعاية الأطفال اللعينة التي يُموِّلها! سأكون سعيدًا لو استولى أحدٌ على خمسة آلاف جنيه منه! لم أكن لأستطيعَ أن أقوم بذلك بنفسي، ولكني سأسعد لو فعلَها أحدهم؛ أيًّا مَن كان. ترك كلَّ أمواله لهؤلاء الصغار ذَوي الأصوات العالية والوجوهِ القذِرة، ولم يترك شيئًا لي!»

تركه السيد ريدر يَهْذي ولم يُقاطِعه، وفي النهاية كادت أن تَنفَد قُواه وسقط على كرسيٍّ عميق وأخذ يُحملِق في زائره.

قال لاهثًا: «أخبره بذلك، أخبره!»

خصص السيد ريدر وقتًا وذهب إلى المكتب الصغير في شارع برتغال الكائن فيه المقرُّ الرئيسي لمختلِف مؤسَّسات السيد سيلينجتون الخيرية. من الواضح أن السيد آرثر لاسارد كان على اتصالٍ براعيه النبيل، فلم يكد السيد ريدر يُعلن عن اسمه حتى سمح له بالدخول إلى الغرفة ذاتِ الأثاث البسيط التي يجلس فيها المدير.

لا عجبَ من أن يكون السيد آرثر لاسارد المُنظِّم ذائعُ الصيت مُساعدًا للُّورد سيلينجتون في الأعمال الخيرية. أنشطة السيد لاسارد في الأعمال الخيرية كثيرة. كان رجلًا عريضَ المنكبين له وجهٌ مُشرَب بالحمرة ورأسٌ أصلع، وخاض جميع أنواع الهجمات التي يُمكن

أن يتعرَّض لها المشاركون في الأعمال الخيرية، ولم يتأثر بشكلٍ خاص من زيارةٍ حديثة قام بها هاري كارلين له.

قال: «لا أرغب في أن أكون فظًّا، ولكنَّ صديقنا أتى إلى هنا بحجةٍ واهية لدرجة أنني أشعُر بأن هدفه الحقيقيَّ كان الحصولَ على ورقة من قرطاسيتي. في الحقيقة، تركته في الغرفة لعدة دقائق؛ ومن ثَمَّ سنَحَت له فرصةُ اختلاس الورقة لو أحب.»

سأل السيد ريدر: «ماذا كانت حُجته؟» وهزَّ الآخَرُ كتفَه.

«أراد أموالًا. كان مهذبًا في البداية وطلب منِّي أن أُقنع عمه؛ ثم بدأ يتصرَّف بوقاحةٍ وقال إنني تآمرتُ كي أسرقه؛ أنا «وأعمالي الخيرية اللعينة»!»

ضحك مِن ذلك، ولكنه أصبح جادًّا مرةً أخرى.

قال: «استعصى عليَّ فَهمُ الموقف. من الواضح أن كارلين ارتكب جريمةً ما في حق عمِّه اللورد لأنه مرعوب منه!»

«هل تظنُّ أن السيد كارلين زوَّر توقيعك وحصل على المال؟»

فتَح المشرفُ ذراعَيه تعبيرًا عن يأسه.

وسأل: «مَن غيرُه محلُّ اشتباه؟»

أخرج السيد ريدر الخطابَ المُزوَّر من جيبه وقرأه مرةً أخرى.

أردف السيد لاسارد: «كنتُ أتحدَّث مع اللورد لتوي عبر الهاتف. بالطبع إنه ينتظِر أن يسمع تقريرك وإن لم تتمكَّن من أخذ اعترافٍ من هذا الشابِّ على جريمته، فاللورد سيلينجتون ينوي مقابلةَ ابنِ أخيه الليلة ويُطالبه بالأموال. لا أكاد أُصدق أن السيد كارلين ارتكب هذا الفعل الشائن، على الرغم من أنَّ الملابسات تُثير الشكوكَ حوله. هل رأيتَه يا سيد ريدر؟»

قال السيد ريدر مُقتضبًا: «رأيتُه. أوه، نعم، رأيته!»

بات السيد آرثر لاسارد يُحدِّق النظر في وجه السيد ريدر وكأنه يُحاول قراءة الاستنتاج الذي توصَّل إليه هذا المُحقِّق، ولكن لم تظهَرْ أيُّ تعبيرات على وجه السيد ريدر.

مدَّ يده مصافحًا وعاد إلى منزل وكيل الوزارة. كانت المقابلة قصيرةً وغير مقبولة بوجهٍ عام.

قال اللورد سيلينجتون بازدراءٍ لم يستطع إخفاءه: «لم أتخيَّل قطُّ أنه سيعترِف لك. هاري بحاجةٍ إلى شخصٍ يُخيفه كما أنه ... يا إلهي! أنا الرجل القادر على ذلك! سأراه الليلة.»

أوقفَته نوبةٌ من السعال وابتلع جرعةَ دواءٍ بأسلوبٍ فظٍّ من زجاجة دواء صغيرة على المكتب.

قال لاهثًا: «سأراه الليلة وسأُخبره بما أنوي فعله! لم أتسبَّب له في أذًى حتى الآن مُراعاةً للقرابة، ولأنه من العائلة. ولكن هذا انتهى. سأوصي بكل أموالي إلى الأعمال الخيرية. ظللتُ جيدًا مدةَ عشرين عامًا حتى الآن، ولكن كل فلس ...»

توقفَ عن الحديث. إنه ممَّن لا يُخْفون مشاعرهم، ولما كان السيد ريدر يفهم الرجال، فقد رأى الصراع الدائر في عقل سيلينجتون.

«يقول إنه لم تَسْنح له فرصة. ربما لم أُعامله بإنصاف ... سنرى.» أشار إلى المُحقِّق بالخروج وكأنه يطرُد كلبًا غريبًا تطفَّل على خصوصيته، وخرج السيد ريدر على مضض؛ لأنه كان لديه ما يُخبر به حضرة اللورد.

من تصرفاته الغريبة — في اللحظات التي يَميل فيها إلى التكتُّم — أن يبحث عن الخصوصية في غرفة مكتبه ذات الطِّراز القديم في شارع بروكلي. ظلَّ جالسًا على مكتبه لمدة ساعتَين يتَّصِل على عدة أرقام هواتف؛ ومن العجيب أن الرجال الذين تحدَّث معهم كانوا وكلاءَ مُراهنات. إنه يعرف غالبيتهم. في الوقت الذي كان فيه أكبرُ خبيرٍ على مستوى العالَم في الأوراق المالية المُزوَّرة، سَنَحت له فرصة التواصُل مع فئةٍ غالبًا هي الوسيطُ الجاهل الذي يستخدمه المُزوِّر في توزيع الأوراق المُزوَّرة؛ وغالبًا ما يكون هو الأداةَ التي تكشفه.

كان يوم الجمعة، وهو اليوم الذي يبقى فيه مُعظم المُديرين في مكاتبهم حتى ساعةٍ مُتأخِّرة. انتهى من عمله في الساعة الثامنة، وكتب خطابًا واتصل على ساعٍ وأرسل الخطابَ إلى وجهته المُقدَّرة.

قضى بقية الليل يُفكر في التجارِب الماضية، ويُنعش ذاكرته من قصاصات الصحف الصغيرة التي تملأ رفَّين في غرفة مكتبه.

يمكن رواية الأحداث الأخرى التي وقعَت في تلك الليلة باللُّغة البسيطة التي تُستخدَم على منصة الشهود. عاد اللورد سيلينجتون إلى المنزل بعد مقابلته مع السيد ريدر يُعاني من بردٍ مصحوب بحُمَّى، وقرَّر وفقًا لشهادة السكرتير، أن يُؤجِّل المقابلة التي رتَّبها مع ابن أخيه. تُركت رسالة عبر الهاتف لدى النُّزل الذي يُقيم فيه السيد كارلين ولكنه كان بالخارج. ظلَّ اللورد مشغولًا في أعماله الخيرية الكثيرة، وكان السيد لاسارد حاضرًا. كان اللورد سيلينجتون يعمل في غرفة مكتب صغيرة تفتح من غرفة نومه.

في الساعة التاسعة والربع وصل كارلين وأوصله كبيرُ الخدم إلى الطابق العلوي وبعدها ذكَر أنه سمع تعاليَ أصواتٍ غاضبة. نزل السيد كارلين على السُّلَّم وأوصله كبيرُ الخدم إلى الباب وعندها دقَّت الساعة التاسعة والنصف، وبعد دقائقَ قليلة ضرب اللورد سيلينجتون الجرس يطلُب خادمه الذي صعد كي يُساعد سيِّدَه للذَّهاب إلى السرير.

في الساعة السابعة والنصف من صباح اليوم التالي، دخل الخادم الذي ينام في شقة مُلحَقة إلى غرفة سيِّدِه وأخذ له كوبَ شاي. وجد صاحبَ عمله مُمددًا على الأرض مقلوبًا على وجهه، كان ميتًا؛ مات منذ بِضع ساعات. لم يرَ أيَّ أثرٍ لجروح، وبدا للوهلة الأولى وكأنَّ هذا الرجل صاحبَ الستين عامًا قد خرَّ في الليل. ولكن كان ثَمة مُلابَساتٍ تُشير إلى حدوث أشياء غير عادية. تحتوي غرفة نوم اللورد سيلينجتون على خِزانة فولاذية في الحائط، وأول شيء لاحظه الخادم أن تلك الخزانة كانت مفتوحة والأوراق مُبعثرة على الأرض، وفي المدفأة كومة أوراق مُحترقة بالكامل، ما عدا طرفًا واحدًا منها.

على الفور، اتصل الخادم بالطبيب وبالشرطة، ومنذ هذه اللحظة خرجَت القضية من بين يدَي السيد ريدر.

قبل الظهيرة، أبلغ رئيسه باقتضاب بنتائج تحقيقاته.

قال أسِفًا: «أخشى أنها جريمةُ قتل. اختصاصيُّ علم الأمراض في وزارة الداخلية مُتأكد تمامَ التأكُّد أنها حالةُ تسمُّم بالأكونيتين. التُقِطت صورة للورقة في المدفأة، ولا شك في أن الوثيقة المُحترقة هي الوصية التي أوصى فيها اللورد سيلينجتون بكلِّ مُمتلكاته لمختلِف المؤسَّسات الخيرية.»

توقف هنا.

سأل رئيسه: «حسنًا، وماذا يعني هذا؟»

سعل السيد ريدر.

«يعني أنه إذا لم نتمكَّن من إثبات الوصية — وأنا أشك في أننا نستطيع — فقد مات اللورد من دون وصية. ومِن ثَمَّ تَئول التركة مع اللقَب إلى ...»

سأل النائب العام مُتفاجئًا: «إلى كارلين؟»

أومأ السيد ريدر.

«أُحرِقَت أوراق أُخرى؛ أربعُ قُصاصاتٍ صغيرة مُستطيلة، من الواضح أنها كانت مُثبَّتةً بعضها مع بعضٍ باستخدام دبُّوس. واستعصَت معرفةُ ما كان في هذه القصاصات.» تنهَّد مرة أخرى. وتطلع إليه النائب العام.

«لم تَذكُر الرسالة التي أوصلها ساعي البريد في المنطقة بعدما انسحب اللورد سيلينجتون إلى منزله في تلك الليلة.»

حك السيد ريدر ذقنه.

وقال مُترددًا: «لا، لم أذكر تلك الرسالة.»

«هل عُثِر عليها؟»

تردَّد السيد ريدر.

وقال: «لا أعلم. أعتقد أنه لم يُعثَر عليها.»

«ألا تعتقد أنها قد تُعطي طرَفَ خيطٍ في القضية؟»

فرك السيد ريدر ذقنه وبدا الارتباكُ على وجهه.

وقال: «أعتقد ذلك. هل تأذن لي يا سيدي؟ المُفتش سولتر في انتظاري.» وخرج من الغرفة قبل أن يتمكَّن النائب من طرح أي استفسارٍ آخر.

عندما عاد السيد ريدر، وجد المُفتشَ سولتر يذرع الغرفة ذَهابًا وإيابًا وقد نَفِد صبره. غادرا المبنى معًا. أوصلتهما السيارة التي كانت في انتظارهما إلى شارع جيرمين في غضون دقائق. كان هناك ثلاثة رجال بملابسَ مدَنية ينتظرون خارج الشقة، وكانوا ينتظرون رئيسهم بالأحرى، ودخل المُفتِّش إلى المبنى وفي أعقابه السيد ريدر. لمَّا وصلوا إلى منتصف السُّلَّم، سأل ريدر:

«هل يعرفك كارلين؟»

أتى ردٌّ مُتجهِّم: «لا بدَّ أنه يعرفني. حاولت قصارى جهدي للحُكم عليه بالسجن قبل أن يهرب من إنجلترا.»

قال السيد ريدر: «هممممم! ليته لم يعرفك.»

«لماذا؟» توقف المُفتش على السُّلَّم كي يستفهِمَ عن السبب.

«لأنه رآنا نخرج من سيارة الأجرة. لمحتُ وجهه، و…»

توقف فجأة. دوَّى صوتُ طلقٍ ناري في المنزل وفي غضون ثوانٍ كان المُفتش يجري صاعدًا السُّلَّمَ درجتَين في الخطوة واندفع إلى الجناح الذي يشغله كارلين.

أنبأتهم نظرةٌ إلى الشخص المُمدَّد على الأرض أنهما تأخَّرا كثيرًا. انحنى المُفتش على الرجل الميت.

وقال: «هذا وفَّر على الدولة تكلفةَ المحاكمة في جريمة قتل.»

قال السيد ريدر بهدوء: «لا أعتقد ذلك.» وشرحَ أسبابه.

بعد نصف ساعة، لَمَّا خرج السيد لاسارد من مكتبه، ربَّت مُحققٌ على كتفِه.

وقال: «اسمك إيتر، وأريدك للتحدُّث بشأن جريمةِ قتل.»

شرح السيد ريدر لرئيسه: «إنها قضية غاية في البساطة يا سيدي. طبعًا أعرف إيتر شخصيًّا، ولكنني تذكَّرت خاصة أنه لا يستطيع تهجِّيَ كلمة «استطاعة» وأدركتُ هذه الخَصْلة في صديقنا لَمَّا رأيت الخطاب الذي كتبه إلى راعيه طالبًا منه المال. إيتر هو الذي أخذ الخمسة الآلاف جنيه؛ أنا مُتأكِّد من ذلك. الرجل مدمِن على لعب القمار، وكان كذلك دائمًا؛ ولم أُضطَر إلى إجراء الكثير من التحقيقات قبل أن أكتشفَ أنه يدين بمبلغٍ كبير، وأن أحد وكلاء المُراهنات هدَّده بتقديمه إلى لجنة تاترسال إذا لم يدفع. هذا معناه نهاية السيد لاسارد، رجل الخير وراعي الأطفال. وبالمناسبة، كان هذا دورَ إيتر الدائم. كان يُدير مؤسَّساتٍ خيريةً مُزيَّفة — من السهل للغاية العثورُ على سُذَّج يريدون التبرُّع في مشاريعَ خيرية. منذ عدة سنوات عندما كنتُ شابًّا صغيرًا، تسببتُ في حبسه لمدة سبع سنوات. لم أرَه منذ ذلك الوقت حتى رأيتُ الخطاب الذي أرسله إلى اللورد سيلينجتون. من سُوء حظِّه أنْ كتبَ السطر: «يُسعدني إن كان باستعاطتك إرسالُ المال مع الرسول من طرفي.» ومِن ثَم كتب كلمة «استطاعة» بالطريقة التي يكتبها إيتر. ذهبت إليه وتأكَّدت. ثم أرسلتُ خطابًا إلى اللورد، ومن الواضح أنه لم يفتح الخطابَ حتى وقتٍ متأخِّر من الليل.

زاره إيتر في أول المساء وتحدَّثا لفترةٍ طويلة. وأستنتج أن اللورد سيلينجتون عبَّر عن تردُّده في أن يترك ابن أخيه من دون أن يرث شيئًا على الرغم من أنه وغد؛ وخشي إيتر من أن تفشل خطته في الحصول على أموال الرجل العجوز. إضافةً إلى ذلك، ظهوري في القضية أرعبه. قرَّر أن يقتل اللورد سيلينجتون في تلك الليلة، ومن ثَمَّ أخذ الأكونيتين معه إلى المنزل ووضعه في الدواء، الزجاجة التي يضعها سيلينجتون على المكتب دومًا. سواءٌ أدمَّر العجوز الوصية التي تحرم ابن أخيه من الميراث قبل أن يكتشف أنه تسمَّم أم بعدما اكتشف، لن نعرف ذلك مُطلقًا. لَمَّا اقتنعتُ أن لاسارد هو إيتر، أرسلت خطابًا مع ساعي بريدٍ خاصٍّ إلى ستراتفورد بليس.»

«هذا هو الخطاب الذي أوصله ساعي بريدٍ خاصٌّ؟»

أومأ السيد ريدر.

«من المُحتمل أن سيلينجتون كان بالفعل تحت تأثير العقار عندما أحرقَ الوصية وأحرق أيضًا الأوراقَ المالية الأربع التي زوَّرها كارلين والتي هدَّده بها العجوز. ربما عرَف

كارلين أن عمَّه مات؛ بالتأكيد تعرَّف على المُفتش عندما ترجَّل من سيارة الأجرة، ولَمَّا اعتقد أنه سيُلقى القبضُ عليه بتهمة التزوير، أطلق الرصاصَ على نفسه.»

زمَّ السيد ريدر شفتَيه وزادت الكآبة على وجهه الحزين.

«ليتني لم أعرف السيدة كارلين؛ معرفتي بها أدخلَت عنصرَ المصادفة وهو مُمكنٌ في القصص، ولكنه مُحزن للغاية في الحياة الواقعية. إنها تهزُّ ثقة المرء في منطقية الأشياء.»

القصة الثامنة: المستثمرون

يبلغ تَعْداد سكان لندن الكبرى سبعةَ ملايين نسَمة، والجميع مِن حيث النظريةُ والتطبيقُ مُتساوون تحت مِظلة القانون، ويتمتَّعون بحقوقٍ اجتماعية متساوية. وبذلك، إذا ظُلِم فردٌ عمدًا، فلا بدَّ من مُعاقبة ظالِمه؛ وإذا مات فردٌ بسبب أذًى مُتعمَّد، فلا بدَّ أن يموت قاتله شنقًا.

يصعُب على أعين القانون مهما بلغَت حدَّتها أن تُراقِب سبعة ملايين فرد؛ إذ من بينهم مليون فرد على الأقل لا يبقَوْن في أماكنهم، وليس لهم مأوًى خاصٌّ بهم بشكلٍ عام. يصعب أيضًا ضبطُ ما يقرُب من عشرين ألفًا ممَّن لهم مأوًى ولكن لا تربِطُهم روابطُ إنسانية. يندرِج ضمن ما سبق المُومِساتُ والعجائز المُوسِرات العازبات والمُشرَّدون في عالم الإجرام، وغيرُهم ممن ليس لديهم أصدقاء.

في بعض الأحيان، ترِدُ تحقيقاتٌ صعبة إلى مقرات الشرطة. وترِدُ في كثيرٍ من الأحيان على استحياء بغية مُراعاة الآخرين. لم يرَ السيد إكس جاره السيد واي منذ أسبوع. كلَّا، إنه لا يعرف السيد واي، ولا أحد يعرفه. رجلٌ عجوز نَحيلُ الجسم ليس له أصدقاء ويقضي أيامه ذات الجوِّ المعتدل يتمشَّى في الحديقة التي يُطِلُّ عليها منزلُ جاره الاجتماعي أكثرَ منه. الآن، لم يَعُد السيد واي يتمشى. ولم يُدخِل حليبه إلى المنزل؛ والستائر مُنسدِلة. أتى رقيبٌ من الشرطة وشرطيٌّ اقتحَم إحدى النوافذ ودخَل منها، فوجد السيد واي ميتًا في مكانٍ ما ... مات من الجوع، أو بسبب نوبة، أو بالانتحار. إذا كان الوضع كذلك، فكلُّ شيءٍ سهل. ولكن افترِض أن المنزل ليس به أحد، وأن السيد واي اختفى. بات الأمر صعبًا ومعقدًا.

سافرَت الآنسة إلفر إلى سويسرا. إنها عانس في منتصف العمر، ويبدو على مظهرها يُسْر الحال. سافرت وأغلقَت المنزل ولم تَعُد إليه مُطلقًا. أُجري البحث عنها في سويسرا؛ بحثَت عنها حكومة موسوليني في شمال إيطاليا من دومودوسولا إلى مونتيكاتيني. ولم يُسفِر البحثُ عن العثور على سيدة ذات وجهٍ رفيع وتُعاني حوَلًا طفيفًا.

غادر السيد تشارلز بويسون ميدلكيرك هو الآخر؛ كان رجلًا عجوزًا غريب الأطوار يتشاجر مع جيرانه بسبب صخب أطفالهم. لم يُخبِر أحدًا إلى أين ذهب. وكان يعيش وحيدًا مع ثلاثة قطط ولم يكن يتحدَّث بوُدٍّ مع أي أحدٍ آخَر. ولم يَعُد مطلقًا إلى منزله الكئيب.

هو أيضًا كان ميسورَ الحال ويُقال إنه بخيل. كذلك كانت السيدة أثبل مارتنج، أرملةً قاسية تعيش مع ابنة أختها الكادحة. اعتادت هذه السيدة أن تختفيَ من دون إعلان مُسبق عن نيَّتها. سمحت لبنت أُختها أن تطلُب الطعامَ من التجار المَحليِّين بالقدْر الذي يُبقي على حياتها، وعندما تعود السيدة مارلينج (إذ كانت تعود دائمًا)، كانت الفواتير تُسدَّد بقدرٍ كبير من التذمُّر من جانب دافعها، وهكذا كان الأمر. يُعتقَد أن السيدة مارتنج سافرَت إلى بولوني أو إلى باريس أو حتى إلى بروكسل. ولكنْ يومًا ما، خرَجَت ولم تَعُد مُطلقًا. بعد ستة أشهُر، أعلنت بنتُ أختها عن اختفائها، واختارت أرخصَ الجرائد؛ إذ كانت تُبقي عينها على يوم الحساب.

قال النائب العام: «يا لها من أحداثٍ غريبة!» وكان أمامه ملفاتُ أربعةِ أشخاص (ثلاث نساءٍ ورجُل) اختفَوا في ثلاثة أشهر.

عبَس النائب العامُّ وضغط على الجرس ودخل السيد ريدر. جلس السيد ريدر على الكرسيِّ المُشار إليه ونظر من فوق نظارته بعينَين مُتَّسِعتَين وهزَّ رأسه وكأنه فهم سببَ استدعائه ويُنكر فَهمه مُقدمًا. سأل النائب العام: «ما الذي تقوله في قضايا الاختفاء تلك؟»

قال السيد ريدر حذرًا: «لا يُمكنك قولُ شيءٍ إيجابي في الحدث السلبي. لندن مدينة كبيرة تعجُّ بالأشخاص غريبي الأطوار، المجانين الذين يعيشون ... اممم ... حياةً مألوفة، لدرجة أن العجيب هو أنَّ الكثير منهم لا يختفون للقيام بشيء مُختلِف عمَّا اعتادوا فِعلَه.»

«هل اطلعتَ على هذه التفاصيل؟»

أومأ السيد ريدر.

وقال: «لديَّ نُسَخ منها. السيد سولتر مُتعطفًا ...»

حكَّ النائب العام رأسه حائرًا.

«لا أرى شيئًا في هذه القضايا؛ أعني لا شيء مُشتركًا. أربعة معدَّل مُنخفِض بالنسبة إلى مدينة كبيرة ...»

قاطعه المُحقِّق مُعتذرًا: «سبعٌ وعشرون حالةً في اثني عشرَ شهرًا.»

«سبع وعشرون؛ هل أنت متأكد؟» فوجئ المسئول الكبير.

أومأ السيد ريدر مرةً أخرى.

«جميعهم يُنفِقون قدرًا قليلًا من المال على الرغم من أنهم يحصلون على دخلٍ كبير نسبيًّا، ويتحصَّلون على الدخل نقدًا في الأول من كل شهر ... تسعة عشر منهم على أيِّ حال. ينبغي لي التحقُّق من الثمانية الباقين ... وجميعهم يتكتَّمون على مصادرِ عائداتهم. ليس لدى أحدٍ منهم أصدقاء شخصيون أو أقاربُ تجمعهم بهم علاقةٌ وُدية؛ باستثناء السيدة مارتنج. خارج نِقاط التشابُه هذه، لم يكن هناك ما يربط أحدَهم بالآخر.»

رمَقه النائب العامُّ بنظرةٍ حادة، ولكن السيد ريدر لم يكن يسخر على الإطلاق. على الأقل، لم يُظهر ذلك على الإطلاق.

أردف قائلًا: «هناك نقطة أخرى نسِيتُ أن أذكُرها. بعد اختفائهم، لم يَرِد إليهم المزيدُ من المال. ورَدَت الأموالُ إلى السيدة مارتنج عندما كانت تسافر في رحلاتها ولكنها توقفَت عندما سافرت في رحلتها الأخيرة.»

«ولكنْ سبعٌ وعشرون ... هل أنت متأكد؟»

قرأ السيد ريدر القائمة، وأخذ يذكُر الاسمَ والعُنوان وتاريخ الاختفاء.

«ما الذي تعتقد أنه حدث لهم؟»

فكر السيد ريدر للحظاتٍ وأخذ يُحملِق في السجادة مُتجهمًا.

ثم قال بمرحٍ تقريبًا: «لا أتخيَّل إلا أنهم قُتلوا.» وكاد أن ينهض النائب العام من على مقعده.

وقال ساخرًا: «أنت في أسعد أمزِجَتك هذا الصباحَ يا سيد ريدر. ما الدافع وراء قتلهم بحق السماء؟»

لم يشرح السيد ريدر. وقعت المقابلة في وقتٍ متأخِّر من بعد الظهر، وأمسى حريصًا على الرحيل لأن لديه موعدًا ضمنيًّا مع شابَّةٍ ذات جمال أخَّاذ ستنتظِر بعد خمس دقائق من الساعة الخامسة على ناصية جسر وستمينستر، والجسر على نهر التايمز للَّحاق بالسيارة المُتَّجِهة إلى لي.

لم يُعرَف عن السيد ريدر أنه صاحبُ خِصال عاطفية. هناك مَن يقول إنه يتصنَّع الحزن على مَن جلَبَهم القدَرُ والحظ السيئ تحت يدِه التي لا تُفلِت العقاب. وهناك من يقول إنه يتألَّم حقيقةً عندما يرى شخصًا خلف القضبان بسبب جهوده والإدلاء بشهادته.

مدبرة شئون منزله — التي اعتقدَت أنه يكرهُ النساء — أخبرت صديقاتها سرًّا بأنه لا يعرف المشاعرَ الرقيقة التي تُنير الإنسانية وتُمجِّدها. في مدة عشر سنوات قضَتْها في خدمته، لم يُظهِر أيَّ مشاعر أو رقَّة باستثناء السؤال عما إذا كان ألَمُ عِرق النَّسا لديها خفَّ أو لا، أو للتعبير عن رغبته في أن تأخذ عطلة تقضيها على البحر. كانت امرأةً تجاوزَت منتصف العمر، ولكن لا تُوجَد فترة في الحياة تتوقَّف فيها المرأة عن الأمل في شيءٍ أفضل. على الرغم من أنها أفضل الخدَم على الإطلاق، فإنها كانت تحتقِره سرًّا وتدعوه بالحرفوش أمام صديقاتها، وتشكُّ في أنه يعيش منفصلًا عن زوجته التي يُسيء مُعاملتَها. كانت هذه المرأة أرملةً (حسبما أخبرته وقتَما وظَّفها) ورأت أيامًا أفضل، بل أفضلَ بكثير.

يتَّسِم موقفها الظاهريُّ تجاه السيد ريدر بالاحترام والرهبة. تغاضت عن زائريه غريبي الأطوار ومعارفِه التافِهين. تغاضَت عن حذائه المُربع من عند الأصابع وقُبعته الطويلة ذات التاج المسطح، حتى إنها أُعجِبَت بربطةِ عُنقه الجاهزة التي يرتديها، المُثبَّتةِ خلف الياقة بإبزيمٍ صغير، يقرص على أصابعه دومًا عندما يُثبِّت ربطة العنق. ولكنْ هناك حدٌّ لكل هذا الإعجاب، وعندما اكتشفت أن السيد ريدر اعتاد الانتظارَ كي يُرافق فتاةً إلى المدينة كلَّ يوم، وأنه كثيرًا ما راقه مُصاحبتُها إلى منزلها، عندها بلَغ السيلُ الزُّبى.

أخبرَت السيدة هامبلتون صديقاتها — وهنَّ وافقْنَها الرأي — أنها لم ترَ أحمقَ مثل هذا العجوز، وأنه دائمًا ما ينتهي الزواجُ بين عجوزٍ وفتاة صغيرة في محاكم الأسرة (ديسمبر في مقابل مايو ويوليو). اعتادت أن تترك نسخًا من جريدة الأحد المُفضلة على الطاولة حيث يرى العناوينَ الرئيسية المتوهِّجة:

> زواج فتاة رومانسية من عجوزٍ ينتهي بصاحب الشَّعْر الرمادي إلى المحكمة.

لم تعرف هل اطَّلع السيد ريدر على هذه المقالات الإنسانية أو لا. لم يُشِر أبدًا إلى مآسي العلاقات غيرِ المُتَّزنة، واستمر في مقابلة الآنسة بيلمان كلَّ يوم؛ الساعة التاسعة صباحًا والساعة الخامسة وخمس دقائق مساءً كلَّما سمَح عملُه بذلك.

نادرًا ما كان يُناقش أعماله الخاصة أو يطرح موضوعًا يشغل عقله، لدرجةِ أنه كان أمرًا استثنائيًّا أن يُشير إلى عمله ولو بطريقةٍ غيرِ مباشرة. ربما لم يكن ليفعلَ ذلك لولا أن الآنسة مارجريت بيلمان فتحَت (دون قصد) باب الحديث الذي سرى بطريقةٍ غير مباشرة إلى عمليات الاختفاء.

كانا يتحدَّثان عن العطلات؛ نوَت مارجريت الذَّهاب إلى كرومر لمدة أسبوعَين.

«سأُغادر في الثاني من الشهر. سوف أحصل على حصَّتي من الأرباح الشهرية (ألا يبدو هذا عظيمًا؟) في الأول من الشهر ...»

«حقًّا؟»

استدار ريدر. تُدفَع حصة الأرباح في معظم الشركات كلَّ نصف عام.

«حصة الأرباح يا آنسة مارجريت؟»

تورَّدَت وجْنتاها قليلًا من دهشته ثم ضحكت.

مازحته قائلة: «ألم تعرِف أني امرأةٌ من ذوات الأملاك؟ أحصل على عشرة جنيهات في الشهر؛ ترك لي والدي منزلًا صغيرًا عندما مات. بِعت المنزل منذ عامَين مقابل ألف جنيه ووجدتُ استثمارًا رائعًا.»

أجرى السيد ريدر عملية حسابية سريعة.

قال: «تبلغ نسبةُ الأرباح اثنَي عشَر ونصفًا بالمئة. هذا استثمار رائع حقًّا. ما اسم الشركة؟»

ترددَت.

«أخشى أنني لا أستطيع إخبارك. كما ترى ... حسنًا، إنه سِر. يتعلق الأمر بوكالةٍ من أمريكا الجنوبية تُزوِّد مَن تُسميهم المُتمرِّدين بالسلاح! أعلم أنه أمرٌ مُخيف جَنيُ المال بتلك الطريقة ... أعني من السلاح وما إلى ذلك، ولكنهم يدفعون أرباحًا جيدة لدرجة أنه لا ينبغي لي أن أرفض فرصةً كتلك.»

عبَس ريدر.

وسأل: «ولكن لماذا الأمر سرِّي إلى هذه الدرجة؟ عدد كبير من الأشخاص المُحترمين يربَحون أموالًا من تجارة السلاح.»

مرة أخرى تردَّدَت في أن تشرح ما تقصده.

قالت: «تعهَّدنا بذلك؛ المساهمون، أعني ... تعهدنا بعدم الإفصاح عن علاقتنا بالشركة. هذا واحدٌ من الاتفاقيات التي وقَّعْتُ عليها. والمال يأتي بانتظام. حصلتُ بالفعل على ما يقرُب من ثلاثمائة جنيهٍ إسترلينيٍّ من الأرباح على مبلغ ألف جنيه.»

قال السيد ريدر: «همممم!» وتحلَّى بالحكمة بعدَم الإلحاح في سؤاله. لا يزال هناك يومٌ آخرُ غدًا.

ولكنه حُرِم الفرصةَ التي تطلَّع إليها في الصباح التالي. شخصٌ ما لعب عليه «مزحة» مَقيتة؛ ذلك النوع من المزاح الذي اعتاد عليه إذ كان هناك رجالٌ لديهم سبب وجيهٌ لكراهيته، ولا يمرُّ عام إلا ويُحاول واحدٌ أو أكثرُ أن يجعله يدفع ثمنَ اهتمامه المنحوس به.

«اسمك ريدر، أليس كذلك؟»

أمسك السيد ريدر مظلته بيدَيه كِلتَيهما بإحكام، ونظر من فوق نظارته إلى الرجل ذي الحال الرثَّة الذي يقف عند بداية السُّلَّم. كان على وشك مغادرة منزله الكائن في شارع بروكلي لينطلِق إلى مكتبه في وايتهول، وبما أنه شخصٌ منهجي ويعمل وفق جدولٍ زمني، استاء بأسلوبه الرقيق من تلك المقاطعة التي كلفَته بالفعل خمسَ عشْرةَ ثانيةً من وقته الثمين.

«أنت الشخص الذي أخبر الشرطةَ عن أيك ووكر، أليس كذلك؟»

السيد ريدر «أخبر الشرطة» عن الكثيرين. كان «مُخبرًا» بحُكم مهنته وهي كلمةٌ مأخوذة من اللغة الدارجة، وتعني الرجل الذي يسعى إلى القبض على مُرتكبي الجرائم. في الحقيقة إنه يعرف أيك ووكر حقَّ المعرفة. إنه ماهر — بل ماهر للغاية — في تزوير الكمبيالات وكان في ذلك الوقت بالتحديد مُنِح وظيفةً دائمة، وأصبح مساعدَ مُمرضٍ في سجن دارتمور، وقد يَعتبر نفسَه محظوظًا إذا تولَّى هذه الوظيفة السهلة لبقية مدة الحُكم التي تبلُغ اثنتَي عشْرة سنة.

كان السائل رجلًا جامدَ الوجه ويرتدي بذَّةً من الواضح أنها حِيكت في الأساس من أجلِ رجلٍ أضخمَ وأطول. البنطلون مرفوع بشكل ملحوظ، والصدرية مليئة بالثَّنيات والطيَّات التي لا تدلُّ إلا على أنها حِيكت لدى هاوٍ، ملابسُ لا يرتديها إلا من لا يأبهُ بانتقادات من يراه. لم تنزل عيناه المُتصلِّبتان اللامعتان عن السيد ريدر، ولكنهما لم تحمِلا تهديدًا حسبما رأى المُحقِّق.

قال السيد ريدر بشيءٍ من اللطف: «نعم، كنتُ سببًا في إلقاء القبض على أيك ووكر.»

أدخل الرجل يدَه في جيبه وأخرج عبوةً مُجعَّدة مغلَّفة في الحرير الأخضر الزيتي. أزال السيد ريدر الغلاف ووجد مظروفًا مُتَّسخًا ومجعدًا.

قال الرجل: «هذا مِن أيك. أرسله مِن السجن مع رجلٍ خرج منه أمس.»

لم يُصدَم السيد ريدر بهذا الخبر. إنه يعلم أن قوانين السجن عُرضة للانتهاك، وأن أشياءَ أسوأَ من مجرد رسالةٍ مُهرَّبة وقعَت في أشد السجون انضباطًا. فتح الظرف ولم

يُنزل عينه عن وجه الرجل وأخرج الورقة المُجعَّدة وقرأ الرسالة المُكوَّنة من خمسة أو ستة أسطر.

عزيزي ريدر، أكتب إليك أُحْجية

ما يُصيب الآخرين، يُمكن أن يُصيبَك. لم يُصِبني، ولكنه في الطريق إليك. إنه حارٌّ مُلتهِب عندما يُصيبك، ولكنك تُصبِح باردًا عندما يزول عنك.

صديقُك المحب
أيك ووكر (الذي حُكم عليه باثنتَي عشرة سنةً لأنك صعدتَ
على منصة الشهود وذكرتَ العديد من الأكاذيب.)

رفع السيد ريدر نظرَه وتلاقتْ عيناه بعينَي الرجل. ثم سأل بتأدُّب: «صديقك مجنون قليلًا، أليس كذلك؟»

قال الرسول: «إنه ليس صديقي. طلب منِّي رجلٌ أن آتيَك بها.»

قال السيد ريدر مُبتهجًا: «بالعكس، أعطاها لك في سجن دارتمور بالأمس. اسمك ميلز؛ أُدِنتَ ثمانيَ مراتٍ بالسطو وستُدان للمرة التاسعة قبل نهاية العام. خرجتَ من السجن منذ يومَين؛ رأيتُك وأنت ذاهبٌ إلى شرطة سكوتلاند يارد.»

انزعج الرجل للحظةٍ ولم يستطع أن يُقرِّر هل يهرُب أم لا. نظر السيد ريدر بطول شارع بروكلي ورأى شخصيةً ممشوقة القوام تقِف على الناصية وعبَرَت الطريق لتركبَ عربة الترام المُنتظِرة، ولمَّا رأى أن فرصته تتبخَّر في الهواء، أعاد ترتيب جدوله الزمني.

«ادخل يا سيد ميلز.»

قال السيد ميلز بعدما اضطربَ للغاية: «لا أُريد الدخول. طلب منِّي أن أُعطيك هذه الرسالة وأنا أعطيتُها لك. ليس لدي شيء آخر ...»

عقَف السيد ريدر إصبعه.

وقال بلطفٍ كبير: «تعال يا عزيزي! وأرجو ألا تُضايقني! باستطاعتي أن أُعيدك مرةً أخرى إلى صديقك السيد ووكر. ففي الحقيقة أنا بغيض جدًّا عندما أنزعِج.»

تبعه الرسول بخنوع ومسَح حذاءه بعصبية في مِمْسحة الباب، ومشى على أطراف أصابعه على السُّلَّم المفروش بالسجاد حتى وصلا إلى غرفة المكتب التي يقضي فيها السيد ريدر مُعظمَ أوقات تفكيره.

«اجلس يا ميلز.»

وضع السيد ريدر بنفسه كرسيًّا لزائره المُضطرِب، ثم سحب كرسيًّا آخرَ إلى طاولة الكتابة، وبسطَ الخطاب أمامه وعدل نظارته، وقرأ وهو يُحرك شفتَيه ثم اضطجع على الكرسي.

قال: «استسلمت. اقرأ عليَّ هذا اللُّغز.»

قال الرجل: «لا أعرف المكتوب في الخطاب ...»

«اقرأ عليَّ هذا اللغز.»

لَمَّا ناول الرجل الخطابَ عبر الطاولة، فضح الرجلُ نفسه لَمَّا نهض ودفع كرسيَّه إلى الخلف وظهر على وجهه تعبيرُ الرُّعب والخوف ممَّا أخبر السيد ريدر الكثير. وضع الخطابَ على مكتبه وأخذ قدحًا كبيرًا من الخِوان وقلبه وغطَّى الورقة المكتوبة على عجل.

ثم قال: «انتظِر ولا تتحرَّكْ حتى أعود.»

شعر الزائر بحقدٍ غير مُعتاد في نبرته مما جعله يرتعِد.

خرج ريدر من الغرفة إلى الحمَّام وشمَّر عن ساعدَيه بسرعة ولفَّ الصنبور وترك المياه الساخنة تجري فوق يدَيه قبل أن يصِل إلى زجاجةٍ صغيرة على الرف، وسكب جزءًا كبيرًا في المياه وغطَّس يدَيه فيها. انتهى بعدما ظلَّ يفرك أصابعَه بفرشاة الأظفار لمدة ثلاث دقائق ثم جفَّفها وخلع معطفه وصدريته بحرصٍ وعلَّقَهما على شماعة الحمَّام. عاد إلى ضيفه المُضطرب مُرتديًا القميصَ من دون المِعطف.

قال مُقررًا حقيقةً، لا سائلًا: «صديقنا ووكر يعمل في المستشفى؟ ما الذي أُصبتَ به هناك؛ حُمَّى قرمزية أم مرَضٌ أخطر؟»

نظر إلى الخطاب من تحت النظارة.

وقال: «بالطبع حمَّى قُرمزية، والخطاب ناقلٌ للعدوى بطريقةٍ مدروسة. ووكر ذكيٌّ نوعًا ما.»

كان خشبُ المدفأة موضوعًا على الشبكة. فحمل الخطاب والورق النشَّاف إلى المدفأة وأشعل النيران وألقى الورق والخطاب في اللهب.

قال مُتأمِّلًا: «ذكي نوعًا ما. بالطبع، فهو أحدُ مساعدي التمريض في المستشفى. حُمَّى قرمزية، أليس هذا ما قلتَه؟»

أومأ الرجل فاغرًا فاه.

«من نوعٍ خبيث بالطبع. يا للروعة!»

أدخلَ يدَه في جيبه ونظر مُتلطفًا إلى المبعوث البائس من ووكر المُنتقِم.

وقال بلُطف: «يُمكنك الذَّهابُ الآن يا ميلز. لا أشك في أنك أُصِبتَ بالعدوى. هذه القطعة من الحرير المُزيَّت غيرُ كافية على الإطلاق — وهذا يعني أنها «غيرُ مجدية على الإطلاق» — كي تَحميَ من الجراثيم المُتجوِّلة. ستُصاب بالحُمَّى القرمزية في غضون ثلاثة أيام، وغالبًا ستموت في نهاية الأسبوع. سأُرسِل لك إكليلًا.»

فتح البابَ وأشار إلى السُّلَّم وتسلَّل الرجلُ إلى الخارج.

راقبه السيد ريدر من النافذة ورآه وهو يعبُر الشارعَ ويختفي بعدما انعطف إلى طريق لويشام السريع، وصعد السيد ريدر بعد ذلك إلى غرفة نومِه وارتدى معطفًا مَشقوق الذيل جديدًا وصدريةً، وارتدى قُفازَين من القماش وانطلق إلى عمله.

لم يتوقَّع أن يرى السيد ميلز مرةً أخرى، ولم يخطر ببالِه أنَّ رجلَ دارتمور كان يُخطط «للإطاحة به» وهذا ما سيجعلُهما يتقابلان مرةً أخرى. بالنسبة إلى السيد ريدر، كانت الواقعة قد انتهت.

في ذلك اليوم، وردَت أخبارٌ من مركز الشرطة عن حالة اختفاءٍ أُخرى؛ وفي الساعة الخامسة إلا عشر دقائق، كان السيد ريدر ينتظِر في المكان الذي يلتقي فيه بالفتاة التي يمكن أن يُمسك منها طرَفَ خيطٍ حسبما أنبأَته غريزتُه. أصرَّ في هذه المرة أن يخرج بأي نتيجةٍ من أسئلته؛ ولكنه لم يخرج بشيءٍ حتى وصلا إلى نهاية شارع بروكلي وكان يمشي ببطءٍ نحو النزل الذي تُقيم فيه الفتاة، وعندئذٍ أعطَته تلميحًا.

سألت وكاد صبرُها أن ينفَد: «ما سبب إلحاحك هذا يا سيد ريدر؟ هل تريد استثمار الأموال؟ لأنه لو كان الأمر كذلك، فلا أستطيع مساعدتك للأسف. هذه اتفاقيةٌ أخرى وقَّعْنا عليها تنصُّ على عدم إدخال مُساهمين آخَرين من جانبنا.»

توقف السيد ريدر وخلع قُبعته وفرك مُؤخِّرةَ رأسه (ظلت مُدبرة شئون المنزل تُراقبه من نافذة عُلوية وباتت متأكدةً تمامًا أنه عرض الزواجَ على الفتاة وهي رفضت).

«سأُخبركِ شيئًا. يا آنسة بيلمان، وأرجو ... اممم ... ألَّا أُخيفَك.»

اقتضب وهو يقصُّ عليها حالات الاختفاء والمُصادفة العجيبة التي تُرافق كلَّ حالة؛ وهي استلامُ عائد الأرباح في الأول من كل شهر. لمَّا حكى لها، شحب وجهُ الفتاة.

قالت بنبرةٍ جادة تمامًا: «أنت جادٌّ فيما تقول، أليس كذلك؟ ما كنتَ لتُخبرني هذا لولا ... اسم الشركة «اتحاد الاستثمارات بمكسيكو سيتي». ولديهم فروعٌ في شارع برتغال.»

سأل السيد ريدر: «كيف تعرفتِ عليهم؟»

«تلقيتُ خطابًا من المدير وهو السيد دي سيلفو. أخبَرَني أن صديقًا ذكَرَني عنده وأعطاني التفاصيلَ الخاصة بالاستثمار كافَّة.»

«هل الخطاب معكِ؟»

هزَّت رأسها.

«كلَّا، طلبَ منِّي خِصِّيصى أن أُحضر الخطاب معي عندما أذهب لأراه. ولكنني لم أرَه في الحقيقة.» وابتسمت الفتاة. «راسلتُ المُحامين لديهم؛ هلا انتظرت؟ لديَّ الخطاب الذي أرسلوه.»

انتظر السيد ريدر عند البوابة ريثما دخلَتِ الفتاة إلى المنزل وعادت على الفور ومعها محفظةٌ صغيرة، وأخرجت منها ورقةً صغيرة. كانت الورقة مُعَنونةً باسم شركة قانونية وهو براشر آند براشر، وهو النوع الرسميُّ المُعتاد من الخطابات التي يتوقَّعها المرء من محامٍ.

> ورد في الخطاب: «سيدتي العزيزة». رد: «اتحاد الاستثمارات بمكسيكو سيتي»: إننا نعمل مُحامِين لدى الاتحاد، وعلى حدِّ ما لدينا من معلومات، فهو حسَنُ السمعة. نشعر أنه من واجبنا أن نقول إننا لا ننصحُ بالاستثمارات في أي شركةٍ تُقدِّم مثلَ هذه الأرباح الكبيرة، لأنه عادةً تأتي المخاطر بقدْرِ الأرباح. ومع ذلك، فنحن نعرف أن هذا الاتحادَ يدفع نسبةَ أرباحٍ تبلُغ اثنَي عشر ونصفًا بالمائة وأحيانًا تبلُغ عشرين بالمائة، ولم تَرِدنا أيُّ شكاوى بشأنهم. وبصفتنا مُحامِين، فبالطبع لا نضمنُ سلامة الوضع المالي لدى أيٍّ من عُملائنا ولا يسَعُنا إلا أن نُؤكد حسبما لدينا من معلومات أن الاتحاد يقوم بعملٍ حقيقي ويتمتَّع بدعمٍ مالي جيد للغاية.
>
> مع خالص التحية
> براشر آند براشر

«هل قلتِ إنك لم ترَيْ دي سيلفو مطلقًا؟»

هزَّت رأسها.

«كلَّا، رأيتُ السيد براشر، ولكن عندما ذهبتُ إلى فرع الاتحاد الذي يقع في المبنى ذاتِه، لم أجد سِوى مُوظفٍ في المكتب. استُدعي السيد دي سيلفو إلى خارج المدينة. واضطُرِرت إلى أن أترك الخطاب؛ لأن الجزء السُّفليَّ عبارةٌ عن طلب تقديمٍ لشراء الأسهم في الاتحاد.

يمكن سحبُ رأس المال بمُوجَب إخطارٍ يُرسَل قبْل السحب بثلاثة أيام، ويجب القولُ بأن هذا البند الأخير دفعَني إلى اتخاذ قراري؛ ولمَّا ورَدَني خطابٌ من السيد دي سيلفو بقَبوله استثماري، أرسلتُ إليه الأموال.»

أومأ السيد ريدر.

قال: «وأنت تتسلَّمين عائدَ الأرباح بانتظامٍ منذ ذلك الوقت؟»

قالت الفتاة مُنتشية: «كلَّ شهر. وفي الحقيقة أعتقدُ أنك مُخطئ في ربط الشركة بحالات الاختفاء تلك.»

لم يرُدَّ السيد ريدر. بعد الظهيرة في ذلك اليوم، قصد المبنى رقم ١٧٩ في شارع برتغال. يتكوَّن المبنى من طابقَين من طرازٍ قديم. تدْخُل المبنى عبر مدخلٍ واسع مرصوف، ومجموعة سلالم قديمة الطراز تُؤدي إلى «الطابق العلوي» الذي يشغَلُه تاجرٌ صيني؛ وتُوجَد ثلاثة أبواب في المدخل. الباب على اليسار، يُوجَد عليه لوحة تحمل اسم «براشر آند براشر للمُحاماة» وفي مواجهته تمامًا مكتب «الاتحاد المكسيكي». في نهاية المَمر، يُوجَد بابٌ عليه لوحة تحمل اسم «جون باستون»، ولكن لا تُوجَد إشارةٌ إلى طبيعة عمل السيد باستون.

طرَق السيد ريدر باب الاتحاد برِفْقٍ وأتاه صوتٌ يسمح له بالدخول. وجد شابًّا يرتدي نظَّارة ويجلس على طاولة الآلة الكاتبة، وفي أُذنيه زوجان من أجهزة استقبال الدكتافون، ويكتب بسرعة.

قال المُوظَّف: «لا يا سيدي، السيد دي سيلفو ليس هنا؛ فهو لا يأتي سوى مرَّتَين تقريبًا في الأسبوع. هل ستُعطيني اسمك؟»

قال ريدر بلُطف: «لا داعيَ لذلك.» ثم خرج وأغلق الباب خلفَه.

حالفه حظٌّ كبير في زيارته إلى شركة براشر آند براشر؛ لأن السيد جوزيف براشر كان في مكتبه، وهو رجلٌ طويل أحمرُ الوجه، ويضع وردةً كبيرة في فتحة الزِّر. من الواضح أن شركة براشر آند براشر شركة ناجحة لأنه يُوجَد ستةُ موظفين في المكتب الخارجي، والأثاث في مكتب السيد براشر — ومنه المكتب الكبير — مُريح، غير أنه ذو طرازٍ قديم.

قال المُحامي وهو ينظُر في البطاقة: «تفضَّل بالجلوس يا سيد ريدر.»

ذكر السيد ريدر عملَه في بِضع كلمات، وابتسم السيد براشر.

قال: «من حُسن الحظ أنك أتيتَ اليوم. ولو أتيت غدًا، لَمَا استطَعْنا أن نُعطيَك أيَّ معلومات. الحقيقة اضطُررنا إلى أن نطلُب من السيد دي سيلفو أن يعثُر على مُحامين

غيرنا. لا، لا، لا يُوجَد أيُّ خطأ غير أنهم دائمًا ما يُحيلون عُملاءهم إلينا، ونشعُر وكأننا راعون لعُملائهم وهذا بالطبع غيرُ مُحبَّب للغاية.»

«هل لديك سِجِلٌّ بالأشخاص الذين راسلوك من وقتٍ إلى آخر يطلبون مَشورتك؟»

هزَّ السيد براشر رأسه.

قال: «مِن الغريب أن أعترف ولكن ليس لدينا سِجل، وهذا من الأسباب التي قرَّرنا من أجلها أن نتركَ هذا العميل. منذ ثلاثة أسابيع، ولأسبابٍ مجهولة، اختفى دفتر الرسائل الذي نحتفظ فيه بنُسَخٍ من جميع الرسائل المُرسَلة إلى الأشخاص الذين تقدَّموا بطلبٍ للحصول على تَزْكية. كان في الخِزانة طَوال الليل، ولكنه اختفى في الصباح، على الرغم من أننا لم نرَ علامةً تدلُّ على كسر القفل. المُلابَسات غامضة للغاية، وقلقتُ أنا وأخي للغاية، وطلبْنا من الاتحاد أن يُعطيَنا قائمةً بعملائهم، ولم تتم الاستجابة لهذا الطلب مُطلقًا.»

نظر السيد ريدر إلى السقف مُتأمِّلًا.

سأل: «من هو جون باستون؟» ومِن ثَم ضحك المُحامي.

«هذا أيضًا لا أعرفه. أظنُّ أنه مُموِّل فاحشُ الثراء، ولكن على حدِّ علمي، فإنه لا يأتي إلى مكتبه سِوى ثلاثةِ أشهر في العام، ولم أرَه مُطلقًا.»

صافح السيد ريدر الرجل بيدِه الليِّنة وعاد بطول شارع برتغال مُطأطئًا رأسَه، ويدُه خلف ظهره تجرُّ مِظلته؛ ومِن ثَم كان هناك تشابهٌ مُثير للسخرية مع حيوان غريبٍ ذي ذيل.

في تلك الليلة، انتظر الفتاة مرةً أخرى ولكنها لم تظهر؛ وعلى الرغم من أنه بقِيَ في مكان اللقاء حتى الساعةِ الخامسة والنصف، إلا أنه لم يرَها. لم يكن هذا الأمرُ مُثيرًا للشكوك لأنها تعمل حتى وقتٍ متأخِّر في بعض الأحيان، ومِن ثَم ذهب إلى المنزل من دون أن يشعر بأيِّ قلق. انتهى من عَشائه الخفيف ثم مشى إلى مسكنها. أخبرتْه صاحبةُ السكن أن الآنسة بيلمان لم تصل، ثم عاد إلى غرفة مكتبه واتَّصَل أولًا بالمكتب الذي تعمل لديه، ثم بالعُنوان الخاص بصاحب العمل.

ورَدَته أخبارٌ مفاجئة: «لقد غادرت منذ الرابعة والنصف. اتصل شخصٌ عليها وسألَتني إنْ كان بإمكانها المغادرة مُبكرًا أم لا.»

قال السيد ريدر مشدوهًا: «يا إلهي!».

لم يذهب إلى فِراشه في تلك الليلة، وإنما ظلَّ مُستيقظًا في غرفةٍ صغيرة في مقر شرطة سكوتلاند يارد، وأخذ يطَّلِع على التقارير التي وردَت من مُختلِف الأقسام. ومع إشراق

الصباح، أصبح مُكرَهًا على إدراك ضرورة إضافة اسم مارجريت بيلمان إلى قائمة حالات الاختفاء في تلك الظروف الغريبة.

غلبه النُّعاس على مقعدٍ خشبي كبير. وفي الساعة الثامنة، عاد إلى منزله وحلَق واغتسل، ولَمَّا وصل النائبُ العام إلى مكتبه، وجد السيد ريدر مُنتظرًا في الردهة. لم يرَ السيد ريدر الذي يعرفه، ولم يكن هذا التغيُّر ناتجًا بالكلية عن قِلة النوم. أصبح صوته أكثرَ حدة، وافتقد بعضًا من نبرة الأسف التي عادةً ما تكتنِفُ كلامه.

وفي بضع كلمات، أبلغَه عن اختفاء مارجريت بيلمان.

سأل رئيسُه: «هل تربط ما حدثَ بدي سيلفو؟»

قال الآخرُ بهدوء: «نعم، أربط بينهما؛ ليس هناك سوى أملٍ واحد، وهذا الأمل ضعيفٌ للغاية؛ أمل ضعيف للغاية حقًّا!»

لم يُخبِر النائبَ العامَّ أين يكمُن هذا الأمل، ولكنه ذهب إلى مكتب الاتحاد المكسيكي.

لم يكن السيد دي سيلفو في المكتب. كان سيُفاجَأ كثيرًا لو كان هناك. عبَرَ القاعة كي يرى المُحاميَ، وفي هذه المرة وجد السيد إرنست براشر ومعه أخوه.

عندما تحدَّث ريدر عن الموضوع، دخل في صُلب الموضوع مباشرةً.

قال: «سأترك ضابط شرطة في شارع برتغال كي يُلقيَ القبض على دي سيلفو فورَ أن يراه. وأظن أنكما يجب أن تعرفا ذلك، بحُكم أنكما مُحامِياه.»

بدأ السيد براشر بنبرةٍ تنمُّ عن مفاجأته: «ولكن لماذا بحقِّ السماء ...؟»

قال ريدر: «لا أعرف التهمة التي سأُوجِّهها له، ولكنها ستكون تهمةً خطيرة بالتأكيد. حتى الآن لم أُدْلِ بمسوِّغات شكوكي إلى شرطة سكوتلاند يارد، ولكن على عميلك أن يَرويَ قصةً وجيهة ويُقدِّم دليلًا لا جدالَ فيه على براءته؛ حتى يكونَ لديه أيُّ أملٍ في الهروب.»

قال المُحامي مُتحيرًا: «لا أعلم شيئًا على الإطلاق. ما الذي كان يفعله؟ هل الاتحاد عملية احتيال؟»

قال الآخرُ باقتضاب: «لا أعرف شيئًا أكثرَ احتيالًا. سأحصل على الإذن اللازِم غدًا من أجل التفتيش في أوراقه وتفتيش مكتب السيد جون باستون وأوراقه. أعتقد أنني سأعثُر على شيءٍ بالغِ الأهمية بالنسبة إليَّ.»

دقت الساعة الثامنة قبل أن يُغادِر إلى شرطة سكوتلاند يارد، وكان يلتف حول الناصية التي يعرفها عندما رأى سيارةً آتية من جسر وستمينستر باتجاه مقرِّ شرطة

سكوتلاند يارد. أخرج شخصٌ ما رأسَه من النافذة وأشار إليه، ثم استدارت السيارة. كانت سيارة كوبيه بمِقعَدَين، وكان السائق هو السيد جوزيف براشر.

بعدما أوقف السيارة عند الرصيف وقفز منها، قال لاهثًا: «وجدْنا دي سيلفو.»

كان مُضطربًا للغاية وكان وجهُه شاحبًا. كاد السيد ريدر يُقسِم أن أسنان الرجل كانت يصطكُّ بعضها ببعض.

أردف قائلًا: «هناك أمرٌ خطير، بالغُ الخطورة. بات أخي يحاول سحب الحقيقة من فمِ الرجل؛ يا إلهي! لو أنه فعل هذه الأشياء المُرعبة، فلن أُسامح نفسي مُطلقًا.»

سأل السيد ريدر: «أين هو؟»

«أتى قبل العشاء مباشرةً إلى منزلنا في دولويتش. لم أتزوَّج أنا أو أخي، ونعيش وحدَنا الآن، وسبقَ أن زارنا وقتَ العشاء. استجوبه أخي وأخذ منه اعترافاتٍ مؤكَّدة لا تكاد تُصدَّق. لا بدَّ أن الرجل مجنون.»

«ماذا قال؟»

«لا أستطيع أن أُخبرك. إرنست يحتجزه حتى تأتي.»

صعد السيد ريدر إلى السيارة وفي غضون دقائق انطلقت السيارة مُسرعةً على جسر وستمينستر باتجاه كامبرويل. وصلوا إلى لين هاوس، إنه سكنٌ على الطِّراز الجورجي القديم يقع في نهاية طريقٍ ريفي، وجده السيد ريدر طريقًا مُغلقًا. لاحظ أن المنزل مُقامٌ على مساحةٍ كبيرة أثناء مرورهم بالطريق وتَوَقفِهم أمام الرِّواق. ترجَّل السيد براشر من السيارة وفتح البابَ ودخل ريدر إلى صالةٍ ذات أثاثٍ مُريح. وكان هناك بابٌ مفتوح.

«أهذا أنت يا سيد ريدر؟» تعرَّف على صوت إرنست براشر، ومن ثم دخل إلى الغرفة.

كان الأخ براشر الأصغر يقف وظهرُه إلى المدفأة الفارغة، ولم يكن ثمَّة أحدٌ آخر في الغرفة.

شرح المحامي: «صعد دي سيلفو إلى الطابق العلوي كي يَستلقيَ على الفراش. هذا عملٌ مُروِّع يا سيد ريدر.»

مدَّ يده مصافحًا وعبَر السيد ريدر الغرفة كي يُبادِله المصافحة. بمجرد أن وضع قدَمَه على السجادة الفارسية المُربعة أمام المدفأة، أدرك الخطر الذي وقع فيه وحاول أن يقفز إلى الخلف ولكنه فقد توازنه. شعر أنه يسقط في حفرةٍ مخفيَّة تحت السجادة، ومن ثَم اندفع وأمسك في حرف الفخ لدقيقةٍ ولكن المحاميَ دار حول الحفرة ورفع قدمه وضغط على الأصابع المُمسِكة في الحافة ومن ثَم أفلت ريدر يدَه وسقط.

انقطعت أنفاسه من صدمة السقوط وتمدَّد للحظاتٍ ما بين مُستلقٍ وجالس على أرضية القبو الذي سقط فيه. نظر إلى الأعلى ورأى الأخَ الأكبر وهو ينظر من أعلى الحفرة. أخذ حجمُ الفتحة المُربعة يتضاءل. من الواضح أن الفخ مُزوَّد بلوحٍ مُنزلق يُغطي الفتحة في الأوقات العادية.

قال جوزيف براشر مُبتسمًا: «سنتعامل معك لاحقًا يا ريدر. دخل إلى هذا المكان الكثيرُ من الأذكياء ...»

انطلق صوتٌ في القبو. ولفحت رصاصةٌ وَجْنة المحامي وحطمَت ثُريًّا زجاجية إلى شظايا، ومِن ثَم تراجع إلى الخلف وصرخ خوفًا. أُغلِق الفخُّ في ثوانٍ وبقِيَ ريدر بمُفرده في القبو المُبطَّن بالطوب. لم يكن بمُفرده تمامًا، فالمُسدَّس الأوتوماتيكي الذي يحمِله في يده كان رفيقًا مُبهجًا في تلك الأزمة.

أخذ من جيب بنطاله مصباحًا كهربيًّا مُسطحًا وشغَّل التيار وتفقد السجن الذي وقع فيه. كانت الحوائطُ والأرضية رطبة؛ هذا أول ما لاحظه. يُوجَد في أحد الأركان سُلَّم صغير درجاته من الطوب يؤدي إلى بابٍ فولاذي مُقفل، ثم سمع:

«السيد ريدر.»

التفت وسلَّط مصباحه على مصدر الصوت. إنها مارجريت بيلمان إذ نهضت مِن فوق كومة أكياس كانت تنامُ عليها.

قالت: «أخشى أنني أوقعتُك في مشكلة عويصة.» ولكنه تعجَّب من هدوئها.

«منذ متى وأنت هنا؟»

أجابت: «منذ البارحة. السيد براشر اتصل بي وطلب مني مُقابلتَه وأخذني في سيارته. احتجزوني في الغرفة الأخرى حتى الليلة، ولكنهم أحضروني إلى هنا منذ ساعة.»

«أيَّ غرفة تقصدين؟»

أشارت إلى الباب الفولاذي. لم تذكر تفاصيلَ أُخرى عن مغادرتها، ولم يكن الوقت مناسبًا لمناقشة تعثُّرها في تلك المشكلة. صعد ريدر الدَّرَج وحاول فتح الباب؛ واكتشف أنه مُقفل من الجانب الآخر ويفتح إلى الداخل. لا تُوجَد أيُّ علامة على فتحةِ مِفتاح. سألها إلى أين يُؤدي الباب وأخبرَته أنه يُؤدي إلى مطبخٍ تحت الأرض وقبوٍ لتخزين الفحم. أملَت في الهروب؛ لأنه لم يكن يَحُول بينها وبين حُريتها سوى قضبانِ النافذة في الغرفة الصغيرة التي احتُجِزَت فيها.

قالت: «لكن النافذة كانت سميكةً للغاية، وبالطبع لم أستطع أن أفعل شيئًا حيالَ تلك القضبان.»

تفحَّص ريدر القبو مرةً أخرى، ثم سلَّط ضوء مصباحه إلى أعلى في القبو. لم يرَ سوى بكَرةٍ فولاذية مُثبَّتة في عارضةٍ بعَرْض القبو بالكامل.

سأل مفكرًا: «ما الذي سيفعله بحقِّ السماء؟» وكأنَّ أعداءه سمعوا السؤال وقرَّروا ألا يتركوه في حيرةٍ بشأن خُططهم، ومن ثَم أتى صوتُ خرير الماء وفي لحظاتٍ بلغ عمقُ المياه إلى الكاحل.

سلَّط الضوءَ على مصدر خروج الماء. وجد ثلاثةَ ثقوبٍ دائرية في الحائط، ويتدفَّق من كل ثقبٍ تيارُ مياهٍ مُستمرٌّ.

سألَتْ بصوتٍ هامس مرعوب: «ما هذا؟»

أصدر أمرًا قاطعًا: «اصعدي على السُّلَّم وابقَي هناك.» وظل يتفحَّص كي يرى هل بإمكانه وقفُ تدفُّق المياه أم لا. علم على الفور أنَّ هذا مُستحيل. والآن، لم يَعُد لغزُ حالات الاختفاء لغزًا.

ارتفعت المياهُ بسرعةٍ رهيبة إلى الركبتَين أولًا، ثم إلى الفخذ ثم لَحِق بها على السُّلَّم.

لم يكن الهروب مُمكنًا لهما. خمَّن أن المياه سترتفع إلى مستوًى يستحيل معه أن يصِلا إلى العارضة في السقف أو إلى البكرة؛ التي استطاع أن يُخمِّن الغرَض المُروِّع منها. لا بدَّ مِن أن هناك طريقةً لإخراج الموتى من هذا القبر. كان سبَّاحًا قويًّا، ومع ذلك علِم أنه لن يستطيع البقاء طافيًا بعد ساعات.

خلع مِعطفه وصدريته وفك زرَّ الياقة.

قال بنبرةٍ جادة: «من الأفضل أن تخلعي تنُّورتك. هل تستطيعين السباحة؟»

أجابت بصوتٍ منخفض: «نعم.»

لم يسألها السؤالَ الحقيقي الذي يدور في ذهنه وهو: كم المدة التي تستطيع فيها السباحة؟

خيَّم الصمتُ لفترةٍ طويلة، وارتفع منسوبُ المياه، ثم قال: «هل أنتِ خائفة جدًّا؟» ثم أخذ يدَها في يده.

قالت: «لا، لا أظن أنني خائفة. يا له من أمرٍ رائع أن تكون معي ... لماذا يرتكبون هذه الأفعال؟»

لم يتلفَّظ بشيء، بل أخذ اليد الناعمة إلى شفتَيه وقبَّلها.

بدأت المياه تصِل إلى درجة السُّلَّم العلوية. وقف ريدر مُنتظرًا ووَلَّى ظهره للباب الحديدي. ثم شعر أن شيئًا يلمس الباب من الجهة الأخرى. سمع نقرًا خفيفًا، وكأنَّ مِزلاجًا رجع إلى الخلف. نحَّاها جانبًا بلُطفٍ ووضع كفَّه على الباب. لم يكن هناك شكٌّ الآن: شخصٌ آخرُ يتحسَّس الجانب الآخر. نزل درجةً وشعر أن الباب يُفتَح إلى الداخل ويقترب منه، ثم سطع ضوء مُفاجئ. في اللحظة التالية، فتح الباب على مِصراعَيه واندفع عبره.

«ارفع يدَيك!»

أيًّا كان الشخص، فقد أوقع المصباح، وركَّز السيد ريدر ضوءَ مصباحه عليه وكاد يفغر فاهُ من الدهشة.

كان الرجل في المَمرِّ هو ميلز، صاحب السوابق الذي أحضر الرسالةَ الموبوءة من سجن دارتمور!

قال الرجل مُتذمرًا: «حسنًا، رفعتُ يدَيَّ.»

بدَر إلى ذهن المُحقِّق شرحُ الأمر كاملًا. وعلى الفور أمسك الفتاة من يدِها وسحبَها عبر المَمر الضيق الذي لا يزال الماء يتدفَّق إليه.

سأل بنبرةٍ آمِرة: «كيف دخلتَ إلى هنا يا ميلز؟»

«من النافذة.»

«أرِني إيَّاها؛ بسرعة!»

أراه السجينُ السابق الطريقَ إلى النافذة التي يبدو أنها النافذة نفسُها التي كانت الفتاة تتطلَّع إليها مُتلهِّفة. كانت القضبانُ قد أُزيلت؛ وإطار النافذة نفسُه أُزيل من المفصلات الصَّدِئة؛ وفي غضون ثوانٍ كان الثلاثة يقِفون على الحشائش والنجوم تتلألأُ فوقهم.

قال السيد ريدر بصوتٍ مهزوز: «يا ميلز، أتيتَ إلى هنا من أجل «تدمير» هذا المنزل.»

ميلز مُتذمرًا: «هذا صحيح. أقول لك إنه مُجرِم. لن أتسبَّب لك في أي مشكلة.»

همس السيد ريدر: «اهرُب! اهرُب بسرعة! والآن أيتها الفتاة، سنتمشَّى قليلًا.»

بعد بضع ثوان، فوجئ شرطيٌّ في دورية بظهور رجل في منتصف العمر يرتدي قميصًا وبِنطالًا وسيدة لا ترتدي ملابسها كاملةً وترتدي تنورة داخلية من الحرير.

شرح ريدر لرئيسه: «الشركة المكسيكية هي براشر آند براشر. جون باستون شخصٌ لا وجودَ له. غرفته كانت مَمرًّا يمرُّ منه الأخَوان براشر من غرفةٍ إلى أخرى. الموظف في مكتب الاتحاد المكسيكي بالطبع مكفوف؛ عرَفتُ ذلك فورَ رؤيته. يُوجَد عدد كبير من الكتَبة

المكفوفين في مدينة لندن. الموظف المكفوف ضروريٌّ لإبقاء هُوية دي سيلفو والأَخَوَين براشر طيَّ السرية.

ترتكب شركة براشر آند براشر الجرائمَ منذ سنوات. في الغالب سيُكتَشَف أنهم استولَوا على أموال العملاء؛ ووضَعوا هذا المُخطَّط لإغراء المُستثمرين الحَمْقى لوضع أموالهم لدى اتِّحادهم على وعدٍ بمنح أرباح كبيرة. اختاروا ضحاياهم بعنايةٍ وجوزيف — العقل المدبر في المؤسَّسة — أجرى تحقيقاتٍ دقيقةً للتأكد من أن هؤلاء الأشخاصَ ليس لديهم أصدقاء مُقرَّبون. وإذا ساورَتْهم أيُّ شكوكٍ بشأن مُقدِّمِ طلبٍ، يكتب الأخَوان براشر خطابًا ينتقِصان فيه من فكرة الاستثمار ويقترحان على هذا الشخص الفَطِن أن يجدَ طريقةً أخرى آمنة أكثرَ من عرض الاتحاد المكسيكي.

بعد دفع أرباح عامٍ أو عامَين، يُجذَب المستثمر البائس إلى المنزل في دولويتش ويُقتَل هناك بطريقةٍ عِلمية. من المُحتمل أن تجد مقبرةً غيرَ رسميَّةٍ في أراضيهم. وعلى حدِّ ما فهمت، فقد سرَقوا ما يَزيد على مائةٍ وعشرين ألفَ جنيهٍ إسترليني في العامَين الماضيَين بتلك الطريقة.»

قال النائب: «هذا لا يُصدَّق، لا يُصدَّق!»

هزَّ السيد ريدر كتفَيه.

«هل هناك ما لا يُصدَّق أكثرُ من جرائم القتل التي ارتكبَها بيرك وهير؟ بيرك وهير موجودان في كلِّ ربوع المجتمع وفي كل حقبةٍ من التاريخ.»

«لماذا أخَّروا تخلُّصَهم من الآنسة بيلمان؟»

سعل السيد ريدر.

«أرادوا القيامَ بعمليةِ قتلٍ نظيفة، ولكنهم لم يرغَبوا في قتلها حتى أقعَ بأيديهم. أشُك ...» وسعل مرة أخرى، ثم أستأنف حديثه: «في أنهم اعتقدوا بأنني أُولي الفتاة اهتمامًا خاصًّا.»

سأل النائب العام: «وهل تهتمُّ بها اهتمامًا خاصًّا بالفعل؟»

لم يردَّ السيد ريدر.

هنداوي